© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

رئيس التحرير: يحيى يخلف

مدير التحرير: غسان زقطان

مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: فيصل حوراني

عبد الفتاح القلقيلي

أحمد نجم

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٢٩» ربيع ٢٠٢٢

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **الصمود في الظروف العربية والدولية المستجدة**

أوراق فلسطينية

١٣ **الحرب الروسية الأوكرانية**
الأسباب، والسياقات، والتداعيات
عبد الغني سلامة

٣٧ **العائدون إلى أوطانهم**
عليان الهندي

٣٥ **مقبرة باب الرحمة:**
معلم مقدسيّ إسلاميّ
بين مطرقة وسندان التهويد
عزيز محمود العصا

ملف منظمة التحرير: المخاض، الميلاد، التأسيس والأصداء (٢-٢)

٤٧ **الأصداء في الدول الغربية**
رباب يحيى

٥٥ **الأصداء في دول العالم الثالث**
حمدين محمد

٦٣ **الأصداء الصهيونية**
د. خالد سعيد

٧١ **الاتحاد العام لطلبة فلسطين**
درع منظمة التحرير الفلسطينية
«فرع الجزائر نموذجاً»
أ.حسام أبو النصر

أوراق ثقافية

٨٥ **أحوال الرواية الفلسطينية ـ**
ملاحظات أوليّة
فيصل درّاج

٩٥ **انتصار الوزير (أم جهاد) في**
مذكّراتها: «مش متذكرة غير خليل»!
بديعة زيدان

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١١١ **الموت في السيرة الذاتية الفلسطينية دراسة في بلاغة الخطاب**

أحمد عزيز

١٢٥ **منبت المثقف العربي الفلسطيني**

عبد القادر ياسين

١٣٣ **بازوليني في فلسطين!**

يوسف الشايب

كتب وعروض

١٤٣ **«شال الحرير» رواية الكاتبة الفسطينية بشرى أبو شرار، الرواية القصيدة**

عِذاب الركابي

١٥١ **د. محمد علي حلّة، الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩**

رانية عبدالرحيم المدهون

١٧٥ **المخرج الفلسطيني رائد دزدار يستعيد يافا من خلال إعادة بنائها من الذاكرة والوثائق**

تحسين يقين

أوراق الذاكرة

١٦٩ **برنامج توثيق وتسجيل تاريخ الثورة الفلسطينية - شهادة الأخ عبد الله الافرنجي**

يحيى يخلف

١٨٧ **أوراق المؤسسة**

الصمود في الظروف العربية والدولية المستجدة

يشن الاحتلال حرب استنزاف علينا، ويواصل سياسة الفصل العنصري، ويمعن في سياسة الاستيطان والإجتياح والقتل، والتنكر لحقوقنا والتنصل من كل ما تم من الاتفاقيات، والتنصل من حل الدولتين.

يجري ذلك في مصادرة الأراضي لبناء المزيد من المستوطنات، بحماية من الجيش الاسرائيلي، إذ حشدت المزيد من القوات العسكرية في الضفة وعلى حدود قطاع غزة، كما تقوم بممارسة سياسة الأمر الواقع في مدينة القدس لتهويدها، والسماح للمستوطنين باجتياح المسجدالأقصى ، وبقيادة اليميني المتطرف ايتمار بن غفير ووزير الخارجية يائير لابيد الذي لا يقل عنه تطرفا.. والحكومة الاسرائيلية التي جاءت بعد حكومة نتنياهو برئاسة نفتالي بينت رئيس حزب يمينا المتطرف جاءت من ائتلاف مع حزب يائير لابيد يش عتيد (هناك مستقبل) ومع حزب ميرتس الذي يصنف على أنّه حزب يساري،ومن القائمة العربية الموحدة برئاسة منصور عباس.

هذه الحكومة لا تقل تطرفا عن حكومة نتنياهو، حيث واصلت سياسات نتنياهو، سياسات الفصل العنصري،ومحاولات تهويد القدس، ومصادرة الأراضي لصالح الاستيطان، واستعمال العنف والقتل العشوائي للشبان الفلسطينيين، والتنكيل بالأسرى، واغلاق باب التفاوض مع القيادة الفلسطينية.

لم يكن هناك تأثير لما يسمى القوى اليسارية مثل ميرتس، أو العربية مثل القائمة الموحدة برئاسة منصور عباس الذي تواطأ مع بينت ويائير لابيد.

قامت حكومة بينت بجرائم حرب في الأراضي الفلسطينية، بما في ذلك جرائم في القدس، وبالرغم من ذلك استطاعت أن تطبّع ، وأن تعزز علاقاتها مع دول عربية وتعزز ما يسمى بالتطبيع، على حساب الحقوق الفلسطينية، وعلى قرارات القمة العربية التي قدمت مشروعا في القمة العربية التي عقدت في بيروت عام ٢٠٠٢، والتي تنص على انسحاب اسرائيل من الأراضي الفلسطينية، وقيام الدولة الفلسطينية على حدود عام ١٩٦٧ مقابل اعتراف الدول

العربية والإسلامية باسرائيل، وهو المشروع الذي رفضته إسرائيل.

في أجواء التطبيع، وتخلي دول عربية عن القضية الفلسطينية، وانشغال دول عربية أخرى، يجد الشعب الفلسطسني نفسه وحيدا في عالم يشهد حربا دولية شرسة، ويعيد المشهد الذي يذكّر بالحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، ويقسّم القارات والعالم الى أحلاف جديدة، وما زالت الأحداث قائمة في الحرب الروسية على أوكرانيا، والتي لا تزال تداعياتها قائمة، وتنبىء بتطورات رهيبة تشكل صورة لعالم جديد. لحرب باردة جديدة وربما صراع جديد، يلوّح به على خيار السلاح النووي.

في هذا الجو والمناخ الدولي، تحاول إسرائيل أن تلعب دورا سياسيا، والتظاهر بدور الوسيط بين روسيا وأوكرانيا، وتقف بمنتصف المسافة بما يخدم سياساتها.

بالرغم من أنّها دولة احتلال ونظام فصل عنصري، تحاول أن تلعب دور الوسيط، وبما يخدم مصالحها، فلا تريد أن تخسر أميركا وحلف الناتو، ولا تريد أن تخسر تحالفها مع الروس في مواجهة الوجود الإيراني في سوريا .

لكن هذه السياسة المرواغة لن تنجح،خصوصا وأنّ الحكومة الاسرائيلية الحالية بدأت تواجه تحديات مصيرية، بعد استقالة عضو الكنيست عيديت سليمان من حزب يمينا من منصبها كرئيسة للائتلاف الحكومي ومن عضويته. وهكذا تخسر حكومة بينت الأغلبية في الكنيست، ويتوقع المراقبون انهيار الحكومة عندما تتواصل الاستقالات.

لم يعد في اسرائيل أحزاب يسار ذات قيمة، فما يسمى يسارا بدأ يضعف ويختفي منذ اغتيال رابين ومنذ رحيل شمعون بيرس.

القادم في المشهد الاسرائيلي سيذهب بعيدا نحو اليمين المتطرف، وستكرر السياسات نفسها،وربما اسوأ منها في قادم الأيام .

كما أنّ المشهد الدولي سيشهد تحولات، وصراعات تشغل العالم عن قضايا الشرق الأوسط، والوطن العربي.

ومن هنا، يتعيّن أن نصمد، وأن نستنفر كل عناصر القوة لدينا، وأن نبتدع اساليب جديدة، ونعظم شأن المقاومة الشعبية، ونعززالديموقراطية في الحياة الداخلية، وأن نمد أيدينا الى جماهيرنا العربية، ونستنهض سياسة الصمود، ونساهم في عودة التضامن العربي، واعادة القضية الفلسطينية الى صدارة المشهد القومي .

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

الحرب الروسية الأوكرانية الأسباب، والسياقات، والتداعيات

عبد الغني سلامة*

مقدمة

العلاقة بين روسيا وأوكرانيا فريدة من نوعها، شكّلتها روابط التاريخ، وديكتاتورية الجغرافيا، وألاعيب السياسة.. رغم أن القومية الروسية نشأت بدايةً في أوكرانيا، وأنّ البلدين الجارين كانا جزءا من دولة أكبر (الاتحاد السوفيتي)، وأنَّ علاقات الجوار فرضت عليهما سياقات من التعاون وتبادل المنافع، وحتى المصاهرة؛ إلا أن العلاقة بينهما ظل يشوبها التوتر، سواء قبل نشوء الاتحاد السوفياتي، أو بعد تفككه؛ فبين فينة وأخرى تتأزم العلاقات بينهما، واللافت أنه في كل أزمة تظهر بصمات الغرب، ومحاولاته استغلال أوكرانيا، وتأجيج الصراع وتأليب البلدين على بعضهما. وتحديداً محاولات الولايات المتحدة الدؤوبة والمستمرة والتي تأتي في سياق أهدافها لتقويض قوة روسيا، بل ومحاولاتها لتفكيكها.

وفي الأزمة الراهنة، ساءت العلاقات بين البلدين حتى تحولت إلى حرب مدمرة، كان من بين أهم أسبابها، من وجهة النظر الروسية، الإعلان عن توجهات لضمّ أوكرانيا إلى حلف الناتو، علماً أنَّ الولايات المتحدة كانت قد تعهدت للسوفيات، ولروسيا بعدم توسَّع حلف الناتو، إلا أنها نكثت بوعودها، وعملت على ضم دول حلف وارسو السابقة إليه، بل وضمت دولا استقلت عن الاتحاد السوفياتي. وأيضا إعلان كييف نيتها امتلاك سلاح نووي، حيث رأت روسيا في ذلك تهديدا لأمنها القومي، بل رأته جزءا من مخطط أكبر، يستهدف محاصرة روسيا أولاً، ثم الصين ثانياً.

خلفية تاريخية

في ٢١ شباط ٢٠٢٢، أي قبل اندلاع الحرب بثلاثة أيام قرر الرئيس الروسي بوتين الاعتراف

* كاتب وباحث فلسطيني

بالجمهوريتين الانفصاليتين الموالتين لروسيا في شرق أوكرانيا وهما لوهانسك ودونيتسك. وفي خطابه قال: إن فكرة الدولة الأوكرانية مجرد وهم، وأنها صنيعة "لينين"، الذي منحها عن طريق الخطأ إحساساً بالدولة من خلال السماح لها بالاستقلال الذاتي داخل الدولة السوفيتية.

وفي حقيقة الأمر، فإن حديث بوتين عن "وهم الدولة الأوكرانية"، له ما يبرره تاريخيا، إذا ما تتبعنا مسار نشوء وتطور أوكرانيا، لكنه في الوقت ذاته ينم عن نبرة إستعلاء من قبل بوتين تجاه أوكرانيا..

تاريخيا، قبل القرن التاسع الميلادي لم يكن هنالك دولة اسمها أوكرانيا، ولكن، وبسبب موقعها المثالي على طرق التجارة الدولية أسس فيها الفايكنغ الدولة السلافية الأولى، والتي عرفت ب"كييفان روس"، وذلك في القرن التاسع، والتي تعتبر نواة الدولة الأوكرانية الحالية، والتي ظلت منذ ذلك التاريخ وطوال الألف سنة التالية وهي في حالة تقلب وتبدل دائمين، ليس في حدودها السياسية وحسب، بل وحتى في حركة شعوبها، وسكانها، وأديانها، ونظمها الحاكمة..

قبل أن تستقر ضمن حدودها الحالية، تعاقبت على حكمها وتقاسُم أراضيها دول الجوار: روسيا، بولندا، المغول، تركيا العثمانية.. لكن علاقاتها بروسيا تحديدا كانت علاقة معقدة ومتشابكة إلى حد كبير، فمثلا تأسست "كييف" قبل موسكو بمئات السنين، وكانت العاصمة الأولى لروسيا، لذا يدعي كل من الروس والأوكرانيين أنها منبع ثقافاتهم وديانتهم ولغتهم الحديثة. وفي الواقع، فإن تاريخ وثقافة روسيا وأوكرانيا متداخلان فعلاً، فهما تشتركان في نفس الديانة المسيحية الأرثوذكسية، وهناك تشابه كبير بين لغتي البلدين، إضافة إلى تشابه العادات والثقافة، وحتى الأزياء والأطعمة.

من أبرز المحطات في تاريخ أوكرانيا إلغاء روسيا لدولة القوزاق (شرق أوكرانيا) عام ١٧٦٤، وتأسيس إقليم "روسيا الصغرى" كخطوة مرحلية قبل ضمها بالكامل عام ١٧٨١، لتبدأ مرحلة السيطرة الروسية على أوكرانيا. بما يشمل ضم شبه جزيرة القرم.

وبعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ التي أنهت الحكم القيصري في روسيا، تم الإعلان عن مجلس وطني في أوكرانيا، وبعدها بعام أعلنت أوكرانيا استقلالها، لكن ما لبثت أن اندلعت فيها حرب أهلية دامية. وفي عام ١٩٢١ استولى الجيش الأحمر على ثلثي أوكرانيا وجرى الإعلان عن إقامة جمهورية أوكرانيا السوفيتية الاشتراكية، بينما الثلث الأخير من الأراضي الأوكرانية والواقع غربي البلاد، أصبح تحت السيطرة البولندية.

فيما يتعلق بشبه جزيرة القرم، والتي شكلت أحد أهم عناوين الصراع المحتدم حاليا، يجدر التذكير بأن روسيا القيصرية كانت قد استولت عليها في أواخر القرن الثامن عشر، عندما دحرت جيوش الإمبراطورة الروسية كاثرين العظمى تتار القرم، الذين كانوا متحالفين مع العثمانيين، ثم تخلوا

عنهم، مقابل تعهد روسيا بإيقاف هجمات القوزاق ضد الدولة العثمانية.

في عهد خروتشوف (وهو من أصل أوكراني) تم إلحاق شبه جزيرة القرم إلى أوكرانيا، ولم تشكل تلك الواقعة آنذاك مشكلة بالنسبة لروسيا، ذلك لأن البلاد كلها كانت تحت حكم نظام سياسي واحد. ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، أصبحت القرم جزءا من أوكرانيا المستقلة، وما زال أكثر من ٦٠٪ من سكانها يعتبرون أنفسهم من الروس.

وتشكل "القرم" أهمية إستراتيجية قصوى بالنسبة لروسيا، لأن فيها أهم ميناء يوصلها بالمياه الدافئة، وفيها مقر أسطول البحر الأسود الروسي. وكان الرئيس الأوكراني الأسبق "يوشنكو"، وهو موال للغرب، قد أثار مخاوف موسكو عام ٢٠٠٩، عندما طالب روسيا بإخلاء قاعدتها البحرية في سباستوبول بحلول عام ٢٠١٧، ولكن الرئيس "فيكتور يانوكوفيتش" قرر بعد انتخابه عام ٢٠١٠ تمديد مدة بقاء الأسطول الروسي في الميناء لغاية عام ٢٠٤٢. ولكن انتخابات ٢٠١٤ شكلت مفصلا خطيرا في العلاقات بين البلدين، حين فاز "زيلينسكي" الموالي للغرب، لذا، وحتى لا تأتي حكومة أوكرانية وتطالب بطرد أسطولها مجددا، ضمّت روسيا شبه جزيرة القرم إلى الأراضي الروسية في آذار ٢٠١٤، في عملية وصفتها بـ»تصحيح خطأ تاريخي».

في شباط ٢٠١٤، قبل ضم القرم بشهر، كان الرئيس الأوكراني يانوكوفيتش وزعماء المعارضة، قد وقعوا بوساطة ممثلي الاتحاد الأوروبي وروسيا، اتفاقية «بشأن تسوية الأزمة السياسية في أوكرانيا»، ولكن بعدها مباشرة أنهى البرلمان الأوكراني صلاحيات الرئيس يانوكوفيتش. وهي خطوة مخالفة للدستور الأوكراني، تبعها اندلاع مظاهرات شعبية، بدعم من أوروبا والولايات المتحدة، تدعو لأوكرانيا أوروبية، وإنهاء النفوذ الروسي على البلاد. مقابل تظاهرات في المناطق الشرقية من أوكرانيا، تطالب بالاعتراف باللغة الروسية لغة رسمية ثانية في المناطق ذات الأغلبية الروسية، وإصلاح دستوري مع لامركزية الأقاليم تصل إلى حدّ الفيدرالية.

تطورت الأحداث بشكل متسارع، واندلعت اشتباكات مسلحة في إقليم دونباس بين القوى الانفصالية من جهة، والجيش الأوكراني من جهة أخرى، انتهى الأمر إلى إعلان جمهوريتي دونيتسك، ولوغانسك.

وفي أيلول ٢٠١٤، نشرت منظمة الأمن والتعاون في أوروبا بروتوكولاً مشتركاً لحل الأزمة، يتضمن التزام «كييف» بتطبيق اللامركزية في السلطة. واعتماد قانون الوضع الخاص لإقليم دونباس، أقرّه البرلمان الأوكراني، ووقعه الرئيس «بوروشينكو».

وفي العام التالي ٢٠١٥، وبعد أشهر من الهدوء النسبي، تصاعد الموقف مرة أخرى بشكل كبير،

وانعقد اجتماع لزعماء دول نورماندي الأربعة (روسيا وأوكرانيا وفرنسا وألمانيا) في مينسك مرة أخرى، بهدف التوصل إلى وقف فوري لإطلاق النار وتسوية الأزمة في جنوب شرق أوكرانيا. وتم اعتماد مجموعة من الإجراءات لتنفيذ اتفاقيات مينسك.

وحسب وجهة النظر الروسية، فإنه بعد انتخابات ٢٠١٤، والتي فاز بها «زيلينسكي» رئيساً، «تحوّل النظام الأوكراني إلى إرهاب صريح ضد المعارضة، شمل أعمال تصفية واغتيالات للسياسيين والصحافيين المعارضين، بمساعدة النازيين الجدد، ممن تم دمجهم في هياكل الأجهزة الأمنية ووزارة الداخلية.

السياقات الإقليمية والدولية، وأسباب الحرب

إعلاميا، تبدو الحرب وكأنها عملية عسكرية روسية ضد أوكرانيا، بسبب خلافات بين الجانبين، ولكنها في حقيقة الأمر أبعد وأشمل من ذلك، حيث يمكن اعتبارها صراعا إستراتيجيا بين روسيا من جهة، وبين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي من جهة ثانية، وأداتهم العسكرية حلف الناتو. وما أوكرانيا في هذا السياق سوى جبهة متقدمة يستخدمها الناتو ضد روسيا بشكل أساسي، وضد الصين كهدف مؤجل وبعيد.

ومثل أي حرب، هنالك أسباب وعوامل خفية، تراكمت عبر فترة زمنية، وهنالك أسباب مباشرة، يجري تسويقها إعلاميا لتبرير الحرب من قبل كل طرف.

من الجهة الروسية، تم تبرير العملية العسكرية ضمن الأسباب التالية:

الأول: نية أوكرانيا الانضمام إلى حلف الناتو، ما يعني إقامة قواعد عسكرية أطلسية على مقربة من روسيا، وأيضا محاولتها الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وخشية موسكو من امتلاك أوكرانيا سلاحا نوويا. وهذه ملفات حساسة وبالغة الأهمية بالنسبة لروسيا، وتعتبرها تهديدا لأمنها القومي.

الثاني: حديث روسيا عن قيام الجيش الأوكراني بقصف المناطق ذات الأغلبية الروسية، وعن عمليات تطهير عرقي، وممارسات عنصرية مثل حظر اللغة الروسية في إقليم الدونباس. وعدم التزام أوكرانيا باتفاقات مينسك. وإعلان جمهوريتي دونيتسك ولوغانسك استقلالهما، واستعادة روسيا لشبه جزيرة القرم.

وبناء عليه، تم تحديد الأهداف السياسية للعملية العسكرية الروسية، وهي: تعهد أوكرانيا بالالتزام بالحياد، وعدم انضمامها لحلف الناتو، وتغيير النظام الحاكم، الذي وصفته بالنازية الجديدة، وتغيير

الوضع الجيوسياسي لإقليم الدونباس، بما يضمن حماية حقوق السكان من الأصول الروسية. وضمان اعتراف النظام الأوكراني بالجمهوريتين الانفصاليتين، واعترافه بسيطرة روسيا على شبه جزيرة القرم.

ولفهم أعمق للموضوع تجدر العودة قليلا للوراء؛ فبعد تفكك الاتحاد السوفياتي (١٩٩١)، سعت روسيا لأن تكون الوريث الوحيد له، وفي الواقع هي الدولة المرشحة أكثر لمثل هذا الدور، والأقدر عليه، فاحتكرت الجيش والأجهزة الأمنية والأسلحة النووية، ومقعد مجلس الأمن، مقابل التعهد بحماية الدول المستقلة عن الاتحاد، وتقديم المساعدات لها، وتسديد جميع ديون الاتحاد السوفيتي والمقدرة بنحو ١٠٠ مليار دولار أميركي. مقابل تخلي الدول المستقلة حديثاً، عن حصتها من الأصول الأجنبية السوفياتية. وقد تم التوصل إلى اتفاقيات ثنائية في هذا الإطار ومن ضمنها مع أوكرانيا، في العام ١٩٩٤.

وبحسب تقارير الخبراء، فإن إجمالي الدعم الذي قدمته روسيا للميزانية الأوكرانية، في الفترة من العام ١٩٩١ حتى العام ٢٠١٣، بلغ نحو ٢٥٠ مليار دولار. كما حافظت روسيا على تعاون دائم مع أوكرانيا في مختلف المجالات، فمثلا، تجاوز حجم التجارة بين البلدين ٥٠ مليار دولار في العام ٢٠١١. كما قدمت لها الغاز الطبيعي بأسعار مخفضة.

ورغم ذلك، تتهم موسكو السلطات الأوكرانية بأنها لم تتقيد بالتزاماتها تجاه روسيا، وأنها تتنكر لكل ما يوحدها مع روسيا، وأنها دفعت المجتمع الأوكراني لعداء روسيا، خاصة بعد صعود القومية المتطرفة، التي وصفتها بالنازية الجديدة، وقالت إنها تتلقى دعما من القوى الأجنبية.

ومنذ وصول زيلينسكي للحكم، بدأت روسيا تستشعر الخطر، فالملفات الأساسية المقلقة (الانضمام إلى الناتو والشراكة مع الاتحاد الأوروبي وامتلاك النووي، ووضع إقليم الدونباس) تم التمهيد لها بإجراءات أوكرانية عديدة، مثل تقرب السلطة من الغرب، ومحاولاتها الانفكاك عن الهيمنة الروسية، وتصعيد إجراءات القمع في شرق وجنوب البلاد، إضافة لإجراءات إقتصادية وسياسية وعسكرية واجتماعية مختلفة، حتى وصل الأمر إلى الدين، ومحاولة انفصال الكنيسة الأرثوذوكسية الأوكرانية عن مرجعيتها الروسية.

هذه القضايا جاءت نتاجاً طبيعياً لتفكك الاتحاد السوفياتي، وكان من المفترض معالجتها بين الدولتين. لكن الدور الأميركي والأوروبي حال دون ذلك، حيث تم استخدام أوكرانيا ضدّ روسيا.

اندلاع الحرب

في ٢٤ شباط ٢٠٢٢، اجتاحت القوات الروسية أراضي أوكرانيا، ضمن عملية عسكرية حدد لها الرئيس بوتين مجموعة أهداف سياسية، أبرزها إقالة الحكومة، وفرض تغيير الدستور الأوكراني بما

يضمن حيادية أوكرانيا، واعترافها باستقلال جمهوريتي دونيتسك ولوغانسك، وبضم شبه جزيرة القرم. وفي خطابه قال: «نريد نزع السلاح من أوكرانيا واجتثاث النازية منها، لحماية أولئك الذين تعرضوا لسنوات من التنمر والإبادة الجماعية من قبل الحكومة الأوكرانية. وليس في خطتنا احتلال الأراضي الأوكرانية».

تباينت آراء الخبراء العسكريين حول نية الرئيس بوتين، وأهدافه الحقيقية، توقع بعضهم أنه يريد حربا شاملة مدمرة، وآخرون قالوا بأنها حرب محدودة، ومن غير الواضح ما اذا كان الجيش الروسي قد فشل في تحقيق انتصار حاسم وكاسح وسريع، أم أنه منذ البداية أراد ضرب أهداف عسكرية وإستراتيجية معينة.. رغم أن تقديرات الخبراء العسكريين أجمعت على أن روسيا تمتلك من القوة العسكرية ما يمكّنها من كسب الحرب، وأنَّ قدرات أوكرانيا العسكرية لا تُقارن مع القدرات الروسية، ولكن، على ما يبدو فإن الجيش الروسي لم يلجأ للأسلوب الأميركي المعتاد في حسم الحروب، أي بالقصف الجوي المكثف، ربما تجنبا لوقوع خسائر فادحة بالمدنيين، الأمر الذي سيجر ردات فعل دولية وانتقادات لروسيا بالإمكان تجنبها من خلال عمليات عسكرية محدودة ومركزة. على أية حال، ما هو واضح أنّ بوتين اعتبر هذه اللحظة مفصلية في التاريخ الروسي. وكما قال رئيس استخباراته سيرغي ناريشكين: «مستقبل روسيا ومكانتها في العالم على المحك».

وتشير تقارير عديدة إلى أن الكرملين تفاجأ بقوة المقاومة الأوكرانية، كما تفاجأ بحجم ونوعية العقوبات التي فُرضت عليه، وبقوة رد المجتمع الدولي.. بينما أشارت تقارير أخرى إلى أن كل ذلك كان ضمن التوقعات.. ويبدو أن الأمر سيظل غامضا وموضع جدال، إلى أن تحسمه مجريات الأحداث وتطوراتها في الميدان، مع الأخذ بعين الاعتبار أن حلف الناتو لن يتدخل في الحرب بشكل مباشر، وسيكتفي بتقديم مساعدات عسكرية للجانب الأوكراني (مع شك في قدرته على إيصالها)، وذلك لأن أي تدخل مباشر من قبل الناتو، أو من قبل الولايات المتحدة سيؤدي إلى تصعيد خطير في مجريات الحرب، وتحويلها إلى حرب عالمية ثالثة، مع احتمالات اللجوء للسلاح النووي، بكل ما يعنيه ذلك من مخاطر جسيمة على العالم. وهذا ما لا تريده أميركا، ولا روسيا، ولا الغرب عموما.

ومع تواصل القصف، ومحاصرة المدن الرئيسة، وسقوط ضحايا من الطرفين، ولجوء ملايين الأوكرانيين إلى دول الجوار، بدأت جولات من محادثات السلام بين الطرفين. ومع الأنباء التي تشير إلى إحراز تقدم في المفاوضات، تبين أنّ مثل هذه الإشارات الإيجابية ليست ما تريده الولايات المتحدة، وقد ظهر الموقف الأميركي على حقيقته؛ وهو تأجيج الصراع، واستخدام أوكرانيا وشعبها في حربها الإستراتيجية مع روسيا، والدليل على ذلك أن البيت الأبيض لم يحاول مرة واحدة دفع طرفي الصراع إلى اللجوء للدبلوماسية والمفاوضات لحل النزاع بينهما، ولم يدعُ إلى حل سلمي للصراع،

وكل التصريحات والجهود الأميركية كانت باتجاه تقديم مساعدات مالية وعسكرية لأوكرانيا، واستصدار مزيد من العقوبات ضد روسيا. وفي هذا السياق أشارت صحيفة «غلوبال تايمز» إلى أن واشنطن لا تريد تسوية سلمية للنزاع بأوكرانيا، وترفض تقديم ضمانات أمنية لأوكرانيا، فهي بحاجة لتأجيج النزاع هناك لتوسيع سيطرتها على أوروبا وإضعاف موسكو.

العقوبات الاقتصادية وأثرها المتبادل

منذ اليوم الأول لاندلاع الحرب فرضت أميركا وأوروبا سلسلة عقوبات على روسيا، لم يسبق لها مثيل، شملت تجميد الجزء الأكبر من الاحتياطي الأجنبى الروسي، واستبعاد عدد من البنوك الروسية من منظومة سويفت البنكية، وبالتالى تعطيل معاملاتها المالية الخارجية، بغرض تحجيم التجارة الخارجية الروسية. كذلك، فقد حُظر تصدير عدد كبير من المكونات الصناعية والتقنيات المتقدمة إلى روسيا بهدف تعطيل الصناعة الروسية. كما تم فرض عقوبات على سياسيين ورجال أعمال روس، كما لجأت الولايات المتحدة إلى حظر استيراد الطاقة، وغيرها من المنتجات الروسية.

هذه العقوبات أثارت مخاوف العالم بأسره، بما في ذلك الدول التي تبنتها، خاصة الاتحاد الأوروبي الذي تعتمد بعض دوله على روسيا بشكل كبير لا سيما في الغاز الطبيعي، والنفط.

ولا شك أن العقوبات الغربية تسببت بأضرار جسيمة على الاقتصاد الروسي، فقد تراجعت العملة الروسية أمام نظيراتها الأجنبية بمقدار النصف تقريباً، وقفز بالتالى معدل التضخم، وأسعار الفائدة، بالتزامن مع نقص فى عدد من السلع وارتفاع الأسعار، نتيجة العقوبات، وهى العوامل التى من المُتوقع أن تؤدى إلى انكماش اقتصادي حاد. لكن أثر هذه العقوبات سيرتد سلبا على اقتصادات الغرب والعالم، خاصة وأن روسيا بدأت فى الرد بتطبيق عقوبات مقابلة، للضغط على الاقتصادات الغربية، جاء فى مقدمتها التوقف عن تصدير نحو ٢٠٠ سلعة، منها سلع أساسية، للدول التي اعتبرتها معادية، كما علقت صادرات القمح والشعير والذرة وعدداً من السلع الزراعية إلى تلك البلدان، بهدف زيادة أسعار هذه السلع والمنتجات فى السوق العالمي، كما فرضت على تلك الدول شراء منتجاتها من الطاقة بالروبل، بما يضاف إلى تأثير الحرب على ارتفاع أسعار الطاقة والمعادن والسلع الغذائية، وهو ما يفاقم من زيادة التضخم فى الاقتصادات الغربية ويهدد بدفعها إلى أزمة عالمية.

علاوة على التداعيات الاقتصادية المباشرة، سواء للعقوبات الغربية على الاقتصاد الروسي، والإجراءات الروسية المقابلة على الاقتصاد الأوروبي والعالمي كذلك، فمن المُتوقع أن تنتج عن هذه العقوبات تداعيات طويلة الأجل على بنية النظام المالي والتكامل الاقتصادي العالميين. وفي المدى المنظور ربما

تنشأ أزمة اقتصادية عالمية جديدة، خاصة وأن العالم لم يتعافَ بعد من الأزمة الاقتصادية التي عانى منها طوال السنتين الماضيتين، بسبب تبعات جائحة كورونا.

في هذا السياق، قال أستاذ الاقتصاد الدولي في جامعة نيويورك «نبيل زكي»، إن العقوبات الأخيرة تمثل ضربة قوية للاقتصاد الروسي على المدى القصير، وفي المقابل تتسبب في ضرر بالغ للدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، وأن الخاسر الأكبر من هذه العقوبات هو الغرب، ثم روسيا. وأفاد زكي بأن عزل روسيا عن نظام سويفت المالي يضر بموسكو كطرف بائع، في المقابل يضر بالدولة الأخرى المستوردة، مثل ألمانيا وإيطاليا اللتان تستوردان حوالي نصف احتياجاتهما من الغاز من روسيا.

[ما] يعني أن العقوبات الاقتصادية باتت سلاحا ذا حدين، وأنها ستضر بجميع الأطراف، بدرجات متباينة، لذلك ثمة دول عديدة لم تتحمس كثيرا لهذه العقوبات بما فيها دول أوروبية (ألمانيا وإيطاليا)، فضلا عن الصين، وبدرجة أقل الهند، اللتين ستوفران مخرجا اقتصاديا لروسيا، بما يمكنها من تحمّل تبعات العقوبات، ومن ناحية ثانية، طورت روسيا نظاما بنكيا خاصا يمكنها من تفادي أخطار حجبها عن نظام سويفت العالمي.

ولأن روسيا وأوكرانيا تهيمنان معا على إنتاج حوالي ربع احتياجات العالم من القمح والذرة، فذلك يعني أنّ الحرب الدائرة رحاها بين الدولتين، والعقوبات المفروضة على روسيا ستجعل الأزمة الاقتصادية تنتج أزمات أخرى ربما أخطر، خاصة وأن عددا كبيرا من بلدان العالم، بما فيها معظم الدول العربية تعتمد على القمح الروسي والأوكراني، بسبب انخفاض تكلفته مقارنة بقمح الولايات المتحدة وفرنسا وكندا والأرجنتين.

وإذا استثنينا ما تحمله الحرب وارتفاع أسعار البترول من عائدات مرتفعة للدول العربية النفطية، فإن معضلة الأمن الغذائي تبدو في حقيقتها، إحدى أهم الانعكاسات السلبية للحرب الراهنة على العالم العربي الذي يرتبط بالسوق الأوكرانية والروسية لتأمين بعض أهم احتياجاتها الأساسية.

ومن البديهي أن أي نقص في السلع الغذائية سيؤدي إلى زعزعة الاستقرار الاجتماعي، بسبب ندرة المخزون من الحبوب والذي يؤدي بالضرورة إلى ارتفاع الأسعار، مما يثقل كاهل الطبقات الاجتماعية الفقيرة، ويرفع تكلفة العيش للطبقة الوسطى التي تعد ضامنة للاستقرار السياسي والاجتماعي، فيزيد من تآكلها واضمحلالها، وهذه عوامل ضغط تنذر بتوترات واضطرابات اجتماعية وسياسية كبرى.

لهذه الأسباب ربما تتصدع منظومة العقوبات الدولية، وما يزيد من فرص تصدعها أنه لم يعد خافيا

على أي مراقب أن هذه العقوبات ليست لدفع روسيا لإيقاف الحرب، ولا للدفاع عن أوكرانيا، إنما لإضعاف روسيا، وإقصائها عن الحلبة، من خلال تقويض قوتها، وأنّ أميركا تستغل الحرب الروسية الأوكرانية بما يخدم أهدافها في التربع على عرش النظام الدولي، والهيمنة عليه، سواء بالعقوبات الاقتصادية، أو باستنزاف قدرات روسيا العسكرية، والأهم، من خلال استهداف مقومات قوتها الرمزية وقوتها الناعمة، حيث أن العقوبات لم تكن اقتصادية فقط، كما درجت العادة، إنما شملت الفنون، والآداب، والرياضة، والسينما، والإعلام.. وكل المكونات الإنسانية الأخرى، وكل ما يمت بصلة للنموذج الروسي الحضاري، حتى وصل الأمر إلى الشطرنج، بل وحظر القطط الروسية من الاشتراك في مسابقات للحيوانات الأليفة! وصولاً إلى شيطنة روسيا، وتشويه صورتها، والتركيز على أنها نظام أوليغارشي وقمعي..

الحرب، ومستقبل النظام الدولي

رغم كل التوقعات المتفائلة عن تشكل نظام ثنائي القطبية بعد الحرب وبسببها، إلا أنه من المبكر الحديث عن ذلك أو عن عودة التوازن الدولي كما كان أيام الحرب الباردة، فبدايةً، النظام الأحادي القطبية بزعامة أميركا بدأ يتزعزع منذ العام ٢٠٠٨، بسبب الأزمة المالية والاقتصادية الأميركية التي حدثت آنذاك، وبسبب تدني قدرة وفاعلية العسكرية الأميركية (خاصة في عهد ترامب، والذي قلّص حضور الولايات المتحدة في السياسة الدولية)، وبسبب نمو قوى دولية جديدة، حيث استعادت روسيا عافيتها، وبرزت الصين كقطب اقتصادي/ تكنولوجي ينافس وقد يتفوق على التفرد الأميركي، كما ظهر تكتل البريكس (روسيا، الصين، البرازيل، الهند، جنوب إفريقيا).

وبناء على المعطيات السابقة يمكننا القول أن اللحظة الأميركية، أي لحظة الأحادية القطبية، أوشكت على الانتهاء، وبدأ يتشكل نظام دولي متعدد الأقطاب وهي صيغة غير مسبوقة تاريخياً، لكن هذه الأقطاب لم تصل إلى مستوى منافسة أو تهديد التفرد الأميركي، فالدول الكبرى إمّا غير راغبة، أو غير قادرة على ممارسة دور بديل أو منافس لأميركا، فضلاً عن الفجوة الكبيرة بين الولايات المتحدة وهذه الدول في القدرات العسكرية والتكنولوجية.

ما يعني أن العالم يعيش مرحلة تحولت فيها الولايات المتحدة من كونها الدولة العظمى والمهيمنة، إلى الدولة رقم واحد في العالم، فهي لم تعد في وضع مريح بالقدر الذي كانت عليه سابقاً، وباتت تحتاج موافقة ومساعدة دول أخرى.

لكن الحرب الأوكرانية ستعمل على خلخلة هذا الوضع باتجاهين: الأول إضعاف روسيا بالقدر الذي

يخرجها من ساحة المنافسة، ويرجعها سنوات إلى الوراء، ومن الواضح أن العقوبات المفروضة عليها ليست حبا بأوكرانيا، إنما هي فرصة أميركا لإقصاء خصمها الأول.. لكن هذا الاتجاه لم يتضح بعد، بل ربما يأتي بنتائج معاكسة، بما يعزز من قوة الحضور الروسي أكثر مما كانت عليه قبل الحرب. والثاني، تعزيز دور الاتحاد الأوروبي كلاعب أساسي في السياسة الدولية، وقد وجدت ألمانيا فرصتها التاريخية في تزعم الاتحاد، ليس اقتصاديا كما هو الحال الآن، إنما عسكريا، حيث أعلنت تخصيص مائة مليار دولار لتعزيز قدراتها العسكرية، إضافة إلى ٢٪ من موازنتها السنوية، وهو مبلغ ضخم جدا.. ولهذا التوجه علاقة بضعف ثقة أوروبا بالدعم الأميركي، والتي تضعضعت إلى أدنى حد في عهد ترامب. ما يعني أن أوروبا من الممكن أن تعيد صياغة علاقاتها الخارجية بحيث تقلل إلى أقصى حد ممكن من اعتمادها على الحماية الأميركية.

إضافة لما سبق فإن عناصر القوة الإستراتيجية لم تعد مقتصرة على الجانب العسكري والنووي، فقد دخلت عناصر قوة جديدة وحاسمة، أبرزها التكنولوجيا، والأمن السبراني، والقوة الاقتصادية، ما يعني تكون أقطاب دولية عديدة وفاعلة. ومن ناحية ثانية فإن العولمة والتجارة الحرة أوجدتا ظاهرة التكاملية في العلاقات الدولية؛ فخسارة أحد الأقطاب الدولية تعد خسارة للقطب الآخر، خلافا لما كان سائدا في زمن الحرب الباردة، حين كانت خسارة طرف تمثل كسباً للآخر، فاليوم إذا تراجعت أميركا اقتصادياً، لا يعني هذا تقدماً لمنافسيها، بل يعني خسائر لكل من أوروبا، والصين، وروسيا، والهند، وحتى بلدان العالم الثالث، وكذلك، فإن العقوبات المفروضة على روسيا، ستنعكس سلبا على الدول التي فرضت العقوبات، وخاصة أوروبا. وذلك لأن الاقتصاد العالمي بات مترابطا ومتشابكا بشكل غير عادي، وكل الدول الكبرى تعتبر سوقا مهما وشريكا تجاريا لبعضها بعضا.

صحيح أننا نحتاج إلى كسر الهيمنة الأميركية، ونتوق لبروز قوة تضع حدا لجبروتها، وربما روسيا قادرة على ذلك، لكن ما يهمنا تشكل نظام دولي متعدد الأقطاب، شريطة أن يكون قائما على العدل، والكرامة، واحترام حق الشعوب في تقرير مصيرها، واحترام حقوق الإنسان.. لا أن نستبدل مستبدا واحدا بعدد أكبر من المستبدين..

ومن الواضح أن النظام العالمي القائم، والذي هو في طور التشكل ما زال يفتقر للحد الأدنى من قيم العدالة والمساواة والإنسانية، وهو قائم على المصالح، ومنطق القوة، وبمعايير مزدوجة ونفعية.. كان هذا واضحا في الهبّة العالمية غير المسبوقة ضد روسيا، وفي حجم ونوعية العقوبات المفروضة عليها، فقد اجتمع مجلس الأمن على الفور، كما اجتمع البرلمان الأوروبي، وكل المحافل الدولية انتفضت فجأة، وتذكرت أن الاحتلال مرفوض، وأنه لا يجوز لدولة أن تعتدي على دولة أخرى، ولا أن تتدخل في شؤونها الداخلية.. فجأة تذكروا القانون الدولي، وحقوق الإنسان!

معالم نهاية الحرب

حققت المفاوضات الروسية الأوكرانية التي انطلقت في تركيا بعض الاختراقات المهمة، بعد أن أدركت القيادة الأوكرانية أن الغرب لن يدخل معها أية حرب، وسيكتفي بالدعم الإعلامي والمالي، وهذا يعني أن استمرار الحرب سيجر المزيد من الخراب والدمار على أوكرانيا دون أي احتمال بالفوز. وبالتالي حسمت القيادة الأوكرانية أمرها باتجاه القبول بحيادية أوكرانيا، والموافقة على عدم الانضمام لحلف الناتو، وإيقاف برنامج التسلح النووي.

أما قضيتا القرم والدونباس فما زالتا قيد التفاوض، مع أن روسيا ترفض التفاوض على قضية القرم، وهذا يعني أن روسيا حققت أهم أهدافها المعلنة، ما يقربنا خطوة نحو نهاية الحرب، وانتقالها إلى جبهات جديدة قد تستعر مجدداً على الصعد السياسية والاقتصادية والإعلامية والاستخباراتية، وغيرها من مجالات الصراع على النظام العالمي الجديد ومعالمه الرئيسة.

ومع ذلك، لن يسلّم الغرب بسهولة بأن مشروعه قد فشل، كما لن تتوقف روسيا عن مواجهة هذه المخططات بمجرد وقف إطلاق النار على الأراضي الأوكرانية، وذلك لأن الحرب على مرحلة ما بعد أوكرانيا هي الحرب الأصلية وهي جوهر الصراع، وهي أصل اللعبة وفصلها الرئيسي.

فالاستنزاف العسكري لروسيا، لا يقارن من حيث أهميته بالاستنزاف الاقتصادي الذي ترمي إليه الولايات المتحدة. والحرب لمرحلة ما بعد أوكرانيا هي حرب الاصطفافات الدولية، وحرب التحالفات، وحرب الأمن الدولي ومنظوماته السيبرانية والإلكترونية، وفي مجالات التسلح وتموضعات الجيوش، وضوابط الأمن النووي، والنفوذ الأميركي على أوروبا، وحربها التجارية مع الصين، والحرب على الجبهة المالية، وعلى دور الدولار، وعلى الطاقة ومصادرها وممرات عبورها وعلى أسعارها، أيضاً.

على ضوء ما سبق، يمكن القول أن الحرب ستضع أوزارها قريبا، وسيحاول الغرب إعاقة الوصول إلى اتفاق سياسي، وحرمان روسيا من إحراز انتصار، لكن الحرب الاقتصادية والإعلامية والأمنية غير المباشرة ستفقد زخمها، وسيتم إعادة تنظيم العلاقات الدولية في إطار نظام عالمي جديد، وإذا ما خرجت روسيا منتصرة كليا، أو جزئيا، سيكون ترتيب المنطقة ضمن التوقعات التالية:

بالنسبة لإيران؛ سيتم إنجاز الاتفاق حول برنامجها النووي، وربما إخراج الحرس الثوري من قائمة الإرهاب، وسيتم تخفيض العقوبات بشكل متدرج، وهذا يعطي إيران وضعا مريحا، وبالتالي فإن الملفات التي تمسك بها في الشرق الأوسط ستبدأ بالتفكك، وربما تنتهي الحرب في اليمن لأن إيران لم تعد معنية باستمرارها، والحل السياسي حول سورية سيغدو أقرب من أيّ وقتٍ سابق، وبالتالي من الممكن أن تجد الاستعصاءات في لبنان طريقها إلى الحل، وستشمل الانفراجات العراق بعد

إعادة ترتيب البيت الشيعي، ودور إيران هناك. وبالطبع لن تمر كل هذه «الانفراجات» بسهولة، بل سنشهد موجات من الصراع السياسي المحتدم بين الأطراف المتنازعة بهدف تحسين مواقع كل طرف، دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير جذري في المعادلات القائمة.

أما تركيا؛ التي حاولت تبني موقف معتدل، أقرب إلى الغرب، فقد بدأت تطور علاقاتها مع إسرائيل، ومع دول الخليج، وهذا يتطلب منها التضحية بالإخوان المسلمين، وبحماس، لتصبح قطر الدولة المعتمدة الوحيدة من الولايات المتحدة لإعادة ترويض الإخوان لمراحل لاحقة، أي أن تركيا ستخرج من دائرة «السطوة» السياسية على بعض دول الإقليم لكي تعيد بناء أوضاعها أو تكيّفها وفق التطورات العالمية والإقليمية الجديدة، وعنوان سياستها سيكون الانكفاء الإقليمي.

أما إسرائيل؛ فسيتحول دوهار الإقليمي من دائرة الدولة المقبولة واقعيا، إلى دائرة الدولة التي تسعى الدول العربية للتطبيع معها، بل وستحلّ تدريجياً محل الولايات المتحدة، في «تأمين» الحماية الأمنية لمعظم دول الخليج، حتى لو تبيّن لاحقاً أن دورها الأمني ليس جدياً، بل هو مجرد خداع ووهم.

وإسرائيل بهذا المعنى «أمّنت» لنفسها تجاوز القضية الفلسطينية، مدعومة ومتقوية بالتوافق مع تركيا، وبالاصطفافات العربية الجديدة معها على أساس التطبيع. بما يشجعها على مواصلة العمل على تصفية القضية الفلسطينية بكل السبل والإمكانيات، لكن جهودها تلك ستمنى بالفشل، ببساطة لأن صراعها مع الفلسطينيين يهدم دورها الأمني المزعوم في الإقليم، ولأن القضية الفلسطينية أثبتت بالتجارب والبراهين العملية أنها جوهر الصراع في المنطقة، وحلها هو المفتاح الوحيد للسلام والاستقرار العالمي.

فيما يتعلق بالعرب؛ فمن الواضح أنه لا مكانة لهم في خارطة الإقليم، على الأقل ضمن المعطيات الحالية، ولن يكون لهم أي دور حقيقي وفاعل من دون الخروج من الدائرة الإسرائيلية، ومن دون إجراء مصالحة مع إيران، وحتى مع تركيا، ومن دون موقف عربي موحد قادر على فرض إرادته على أميركا.

وخلاف ذلك، كل ما ينتظر العرب هو المزيد من التمحورات الثانوية الصغيرة والمؤقتة، لأن التمحورات الأكبر في الإقليم هي تلك التي تتعلق بالسيطرة على العرب، والعرب حتى الآن يعتبرون التمحورات الصغيرة هي عالمهم وهمومهم وأقصى طموحهم وأولوياتهم المطلقة.

في ظل هذا المشهد، فإن فلسطين هي الضحية الأولى لواقع الإقليم ولواقع العرب فيه. بما يثبت للمرة الألف أن الحالة العربية بسبب ضعفها وتفككها كانت وما زالت الخاصرة الرخوة لفلسطين، وبالعكس، إذا ما تصلبت الجبهة العربية، وقوي موقفها ستكون الداعم الأهمّ والأقوى.

خاتمة، الحرب من زاوية أخرى

منذ اللحظات الأولى للحرب، خرج رؤساء أميركا وفرنسا وبريطانيا على الإعلام يتحدثون عن القانون الدولي، وعن العدالة والإنسانية! متناسين ماضيهم الاستعماري، ومتناسين أن أميركا دعمت ومولت عشرات الانقلابات، وغزت، واحتلت، واستباحت وهدمت دولا، وقتلت وشردت الملايين.. ومن قبلها بريطانيا وفرنسا، ومعظم دول أوروبا..

وهذه الممارسات الإجرامية ما زالت حتى اللحظة، وما زال هذا المجتمع الدولي المنافق يشاهد إسرائيل وهي تحتل الأرض، وتنتهك حقوق الإنسان، وتنتهك القانون الدولي كل يوم، ولم يفعل معها واحد بالألف ما فعله مع روسيا!

على أية حال، رغم كراهيتنا للحرب، وتعاطفنا الإنساني مع الضحايا، إلا أنها فرصة للقيادة الفلسطينية، وللإعلام الفلسطيني والعربي والحر أن يطالب المجتمع الدولي معاملة إسرائيل، وكل دولة تعتدي على القانون الدولي بنفس المعايير، ولا نريد أكثر من ذلك.

الحرب الروسية الأوكرانية لم تكشف فقط ازدواجية المعايير الأميركية والأوروبية، وغياب العدالة عن منطقها وسلوكها وسياساتها، بل كشفت أيضا إلى أي مدى تلك الدول متورطة في نزعة عنصرية مقيتة.. وهو ما ظهر في التعامل مع اللاجئين، وظهر حتى في الخطاب الإعلامي، فقد خرست كل الألسن (من قادة ومسؤولين وصحافيين) حين كان الغازي أميركا وحلفاؤها، وحين كانت الضحايا من شعوب العالم الثالث!

قد نتفهم حق روسيا في الدفاع عن أمنها القومي، وحق شعب أوكرانيا في الأمن والسلام، لكننا دوما وأبدا نظل نرفض الحرب وندينها من حيث المبدأ، لأن الحرب أغبى ما اخترعه الإنسان، وأكثره وحشية.. وهذه الحرب ضحاياها مدنيون وأبرياء، وحتى الجنود الروس الذين دُفعوا لها دفعا هم أيضا بشر، ولهم عائلات وأطفال ولهم الحق بالحياة..

وإذا كانت للحرب الروسية الأوكرانية حسنة، فهي أنها أيقظت الشعور بالظلم لدى شعوب العالم الثالث، وفضحت ازدواجية المعايير التي يتبعها قادة الدول الغربية، وفضحت التمييز والعنصرية في السياسات الأوروبية والأميركية.. وهذه الصورة أخذت تتضح أكثر فأكثر، حتى في داخل الدول الغربية، إذ بدأت أصوات عديدة تعلو من داخل تلك الدول، لسياسيين، ومفكرين، ومشاهير، وإعلاميين، وبرلمانيين.. يتحدثون بوضوح، وبنبرة عالية عن الظلم الذي مارسه الغرب الاستعماري، والذي ما زال يمارسه بنفس العقلية الاستعمارية، وينتقدون ازدواجية الخطاب الغربي وعنصريته وتعاليه..

لعل ذلك كله يشكل إرهاصات لثورة عالمية ضد الظلم والطغيان..

الهوامش:

1. روسيا وأوكرانيا: تاريخ متشابك وقرون من الصراعات والحروب، BBC News، 10-3-2022. https://www.bbc.com/arabic/world-60683368
2. روسيا وأوكرانيا: مصدر سبق ذكره.
3. روسيا وأوكرانيا: مصدر سبق ذكره.
4. روسيا وأوكرانيا: مصدر سبق ذكره.
5. روسيا وأوكرانيا: مصدر سبق ذكره.
6. روسيا وأوكرانيا. مصدر سبق ذكره.
7. بول كيربي، ماذا يريد بوتين؟ BBC news، 21-3-2022، https://www.bbc.com/arabic/world-59450489
8. حسين سليمان، العقوبات الاقتصادية على روسيا ومخاطر التصعيد المتبادل، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية. 16-3-2022.
9. يحيى عالم، حرب روسيا على أوكرانيا وانعكاساتها على العالم العربي، الجزيرة نت، 13-3-2022. https://www.aljazeera.net/opinions/2022/13/3/
10. أحمد جميل عزم، النظام الدولي عام 2009، صحيفة الاتحاد الإماراتية، 25-12-2008.
11. عبد المجيد سويلم، هل سيقبل الغرب الهزيمة؟ الأيام، 32-3-2022.
12. عبد المجيد سويلم، هل سيقبل الغرب الهزيمة؟ نفس المصدر السابق.
13. عبد المجيد سويلم، المشهد الإقليمي ما بعد الحرب في أوكرانيا، الأيام، 04-04-2022
14. عبد المجيد سويلم، المشهد الإقليمي ما بعد الحرب في أوكرانيا، الأيام، 04-04-2022

العائدون إلى أوطانهم

عليان الهندي *

أكد اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إسحاق رابين أن المجتمع الإسرائيلي غير جاهز ومستعد للسلام مع الفلسطينيين، وأن توحيد المجتمع الإسرائيلي حول رواية موحدة ومحددة، يتطلب من النخب الحاكمة في دولة الاحتلال العمل على القضاء أولا على مسيرة السلام وعلى الأمال الفلسطينية بتحقيق ذلك. وفي نفس الوقت، العمل على القضاء على النخب السياسية والاجتماعية اليسارية ،بكل مكوناتها، خاصة تلك التي نمت في حزب العمل الإسرائيلي وحركة ميرتس، التي أفرزت نخبا ومؤسسات حقوقية مختلفة، وآمنت في نفس الوقت بضرورة ايجاد دولة فلسطينية بجانب دولة إسرائيل للمحافظة على ما يسمى بيهودية الدولة.

واعتقدت النخب الحاكمة، خاصة رؤساء وزراء إسرائيل السابقين إيهود براك وأريئيل شارون وبنيامين نتنياهو، أن إخراج اليسار الصهيوني من دوائر النخب الحاكمة، لا يكفي وحده لتوحيد المجتمع الإسرائيلي، ما دفع لبدء حملة إعلامية وقضائية وقانونية وتهديدات ،ما زالت متواصلة حتى هذا اليوم، من أجل اجتثاث بقايا اليسار الصهيوني في الجامعات ومراكز الأبحاث والجمعيات الحقوقية، التي ظلت تدافع عن حقوق الإنسان الفلسطيني مثل منظمات «يكسرون الصمت وبيتسيلم وجمعية زوخروت وبمكوم والسلام الان»، ما دفع بالكثير من مسؤوليها إلى ترك إسرائيل والعودة إلى أوطانهم أو إلى الغرب خاصة الولايات المتحدة الأميركية أمثال نيف غوردون وأريئيلة أزولاي وإيتان برونشتاين.

لذلك، تحاول المقالة الحالية تسليط الضوء على أسباب اختفاء هذه النخب، وتأثير ذلك على الشعب الفلسطيني، الذي لم يعد حاضرا في جدول الأعمال الإسرائيلي سوى بالقتل وسرقة أراضيه، وبالدعم الذي توفره بقايا المراكز الحقوقية الإسرائيلية، الممولة من الخارج لفضح السياسات الإسرائيلية العنصرية المعادية للشعب الفلسطيني وحقوقه الشرعية.

---

* باحث فلسطيني

انهاء الأدوار السياسية

لم ينه رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود براك وهم السلام الذي عاشه الفلسطينيون بعد التوقيع على اتفاقيات أوسلو المختلفة فقط، حين صرح أنه ذاهب إلى مفاوضات كامب ديفيد الثانية، لكشف النوايا الحقيقية للمرحوم ياسر عرفات. بل أنهى معها قوى السلام المختلفة داخل المجتمع الإسرائيلي التي دعمته سياسيا، وساعدته ليصل إلى سدة الحكم، حيث اعتقدت تلك القوى أن براك هو الشخص الوحيد القادر على إعادة الحكم لليسار، ووراثة إسحاق رابين، في التوصل إلى تسوية سلمية مع الشعب الفلسطيني قائمة على حل «دولتين لشعبين».

ولم يتوقف الأمر على توجيه الضربة القاصمة لقوى السلام المتطلعة لاتفاق مع الفلسطينيين، بل نجح ومعه كل قوى اليمين ،على مختلف مستوياتهم ومعتقداتهم، في إضعاف التوجهات الشعبية -الضعيفة أصلا- من خلال استعادة رواية «عدم وجود شريك فلسطيني» التي منحت النخب الإسرائيلية الحاكمة ممارسة كافة أنواع الإرهاب والعدوان على الشعب الفلسطيني في كل أماكن تواجده في فلسطين التاريخية حتى هذا اليوم.

واستكمل أريئيل شارون المهمة التي بدأ بها براك، باستبعاد كلي لهذه القوى من الساحة السياسية التي مثلتها في ذلك الوقت بعض قيادات اليسار الصهيوني مثل يوسي ساريد وشولميت ألوني من حزب راتس (ميرتس حاليا)، ولوبي ١٧ في الكنيست الذي ضم الأعضاء المؤيدين لحل مع الفلسطينيين في حزب العمل الإسرائيلي، الذين كان من بينهم يوسي بيلين الذي اعتزل الحياة السياسية وعوزي برعام وشلومو بن عامي وأبراهام بورغ، الذي نحي من رئاسة حزب العمل بعد فوزه مباشرة في الانتخابات الداخلية للحزب لصالح بنيامين بن اليعازر ،قائد مذبحة مخيم تل الزعتر في لبنان، الذي شغل منصب وزير الدفاع في حكومة أريئيل شارون، وساهم في شق حزب العمل والانضمام مع بعض أعضاء حزب الليكود، إلى الحزب الجديد «كديما»، الذي فضل الحلول أحادية الجانب مع الفلسطينيين، التي بدأها بالانفصال عن قطاع غزة نهاية عام ٢٠٠٥.

وظهرت نتائج سياسات الاقصاء بوضوح في الانتخابات الإسرائيلية المتلاحقة، حين نجح حزب ميرتس في انتخابات عام ٢٠١٩ بفضل أصوات العرب، في حين تراجعت قوة حزب العمل، وأصبح من الاحزاب الهامشية في إسرائيل، حيث لم ينجح الحزب في الحصول خلال أخر ثلاثة دورات انتخابية على أكثر من ٧ أعضاء كنيست.

القوائم السوداء

إثر ذلك، شنت حركات ومنظمات وجمعيات يمينية متطرفة مدعومة من اليمين الصهيوني-المسيحي في الولايات المتحدة، مثل حركة «إم ترتسو» التي يترأسها متان بيلغ والجمعية الاكاديمة الإسرائيلية التي شارك في تأسيسها الدكتور إيلي بوليك ومردخاي كيدار، المدعومة من رجل الأعمال الروسي ميخائيل تشيرنوي (المقرب من وزير المالية الإسرائيلي الحالي أفيغدور ليبرمان)، هجوما على الشخصيات من ذوي التوجهات اليسارية المؤيدة، العاملة في المؤسسات التربوية (جامعات وكليات ومراكز أبحاث) والثقافية والاجتماعية والفنية، بهدف منعها من إدخال السياسية إلى المؤسسات المذكورة، خاصة حل القضية الفلسطينية وفق مبدأ دولتين لشعبين، ومحاربة التوجهات غير الصهيونية فيها. كما تضمن البحث، كشف هذه الشخصيات ووضعها في قوائم سوداء، باعتبارهم شخصيات أجرمت بحق اليهود بتبنيها مواقف داعمة للحل مع الفلسطينيين. وكان من بين هذه الشخصيات، ممن يحملون درجة بروفيسور مثل أورن يفتحئيل وبانيا عوز زلتسبرغر وإييار غروس. الذين اتهموا مع غيرهم من قبل حركة «إم ترتسو» بأنهم طابور خامس يحارب إسرائيل بينما تحارب هي «المخربين» ووصفوا بأنهم جواسيس يجب طردهم إلى غزة لأنهم أخطر من «المخربين» الفلسطينيين.

ولم يتوقف الأمر على البحث عن الأكاديميين فقط، فكل من وجه أو انتقد الأكاديميين من ذوي التوجهات اليمينية ألصقت به التهمة الجاهزة بأنه يساري مثل البروفيسور رفقة كرمي رئيسة جامعة بن غوريون في النقب.

على نفس السياق، تمت شيطنة كل منظمات ومؤسسات حقوق الانسان الإسرائيلية العاملة في مجال حقوق الانسان الفلسطيني، التي اتهمت جميعها بأنها منظمات لا تقل «إرهابا» عن التنظيمات الفلسطينية مثل اللجنة العامة لمناهضة التعذيب، التي تدافع عن الأشخاص الذين يتعرضون للتعذيب بما في ذلك الفلسطينيين، وجمعية تعايش العربية-اليهودية المعنية بالتعاون المشترك بين اليهود والعرب داخل دولة إسرائيل، التي يشمل نشاطها الدفاع عن حقوق الفلسطينيين الخاضعين لسلطة الاحتلال، ومركز الدفاع عن الفرد المعني بالدفاع عن حقوق الفلسطينيين، وجمعية زخوروت التي تعترف بالنكبة الفلسطينية وتطالب بحق العودة لهم، ومنظمة يكسرون الصمت، التي تدون الجرائم التي ارتكبها الجنود الإسرائيليين النادمين في موقعها الاليكتروني، والذين تطوعوا لرواية ما جرى معهم خلال الخدمة العسكرية في الجيش الإسرائيلي بالضفة الغربية ومدينة القدس المحتلتين، التي اعترفت رئيسته السابقة يولي نوبك بهزيمتها ومؤسستها، أمام النخب العنصرية الحاكمة في دولة إسرائيل، في محاولتهم تغيير الرأي العام الإسرائيلي العنصري اتجاه الفلسطينيين.

ولم يكن المجال الثقافي والفني أفضل حالا، فقد تعرض الكثير من المثقفين والكتاب والفنانين اليهود مثل المؤرخ إيلان بابيه والأديب عاموس عوز والممثلة غيلا ألمغور والفنانين يهوشع سوبول وشئنان ستريت والمطربة حافة البرشتاين إلى هجمات غير مسبوقة حتى من قبل الجهات الرسمية، في مقدمتهم وزيرة الثقافة والرياضة السابقة ميري ريغيف، التي طرحت قانوناً على الكنيست يمنع تمويل أي نشاط ثقافي لا يتضمن إخلاصا لدولة إسرائيل أو إيمانا بالثقافة الصهيونية أو يمس برموز الدولة. وقد وصل بها الأمر حدا، حاولت فيه فرض غرامة على سينما تيك في تل أبيب لعرضها فيلما عن النكبة الفلسطينية.

ولم يتوقف الأمر على ذلك، بل قامت سلطات الاحتلال بزرع عناصر المخابرات في صفوف منظمات حقوق الانسان وغيرها من المؤسسات، ما دفع بالكثير من العاملين فيها إلى التشكيك بولاء بعضهم ببعض، وإلى زرع عدم الثقة في صفوفهم. ما أثر على عمل هذه المؤسسات وعرقل نشاطها.

على نفس الصعيد، شنت حملة في مختلف الأوساط الرسمية إن كانت قضائية أو تشريعية بهدف الكشف عن مصادر التمويل لهذه المؤسسات، خاصة ضد الصندوق الجديد لإسرائيل ،الذي يرفض محاكمة مسؤولي دولة الاحتلال في المحاكم الدولية، ويقع مقره في الولايات المتحدة وله أفرع مختلفة في دول كثيرة مثل كندا وسويسرا ولندن، ويجمع كل عام عشرات ملايين الدولارات من أثرياء اليهود من ذوي التوجهات اليسارية لتوزيعها على الجمعيات والمؤسسات المعنية بالصراع مع الفلسطينيين.

كذلك وضعت قائمة سوداء لمن اسمتهم بالكارهين انفسهم ،ضمت مئات اليهود، الذين كان منهم البروفيسور عادي أوفير وزوجته الدكتورة أريئيلة أزولاي ، التي رفضت جامعة بار إيلان في تل أبيب تثبيتها وترقيتها على مدار ١١ عاماً بسبب مواقفها السياسية، اللذان أسسا جمعية «العام ٢١»، في حين رفض الزوج أوفير الخدمة العسكرية في المناطق المحتلة، والبروفيسور عنات بيلتسكي رئيسة مجلس إدارة «بيتسيلم» وزوجها إليكس بيلتسكي رئيس حملة حزب ميرتس في عدة جولات انتخابية، ودنا غولان مدير عام جمعية «يكسرون الصمت» والبروفيسور حاييم يعقوبي الذي أنشأ جمعية «بمكوم» المعنية بكسر العنصرية في التخطيط العمراني بين اليهود والفلسطينيين ويوناتان شبيرا الطيار السابق في سلاح الجو الإسرائيلي الذي بادر إلى صياغة عريضة الطيارين ضد قصف قطاع غزة، وشارك في مسارات كسر الحصار عن قطاع غزة، والبروفيسور نيف غوردون مدير عام «أطباء لحقوق الانسان» ومن نشطاء جمعية تعايش، وياعيل لرر التي شاركت حركة «بلد»، وصاحبة دار النشر «الأندلس» والدكتور يوناتان بن ارتسي ، حفيد رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إسحاق رابين، الذي سجن لمدة عامين لرفضه الخدمة في الجيش الإسرائيلي، والبروفيسور

حاييم برشيت من مؤسسي حركة BDS، المطالبة بمقاطعة دولة الاحتلال، ويغيئال أرنس ابن وزير الدفاع الإسرائيلي السابق موشيه أرنس ومن نشطاء حركة «ميتسبين»، وساعر وروزين بشارات (فلسطينية) اللذان حاولا إقامة ساحة ترفيه وثقافة مشتركة لليهود والفلسطينيين بواسطة إنشاء «بار أنا لولو»، وغيرهم الكثير.

نتيجة للحملة المذكورة، نجحت الجهات الرسمية وشبه الرسمية، بنزع الشرعية عن هذه الشخصيات والمؤسسات، ما تسبب في فشل مهمتها الرئيسية، الداعية إلى إعادة الروح للقوى اليهودية المتطلعة للسلام مع الشعب الفلسطيني. ولم يتوقف الأمر على ذلك، فقد أصبحت هذه الشخصيات تتعرض بشكل يومي إلى تهديدات بالقتل ومضايقات في أماكن العمل والشارع، ما دفع بالكثيرين منهم إلى اختيار العودة إلى أوطانهم الأصلية، أو اختيار الغرب كمحطة عيش نهائية لهم.

روايات «العائدون»

بهدوء ومن دون ضجيج إعلامي أو رد فعل حكومي، وبخطوة يائسة من إمكانية إحداث أي تغيير في المجتمع الإسرائيلي، قررت عشرات الشخصيات المشهورة الذين وصفتهم وسائل الاعلام الإسرائيلية بأنهم من اليسار المتطرف العودة إلى أوطانهم الأصلية أو التوجه نحو الغرب، الذين كان من أخرهم اليهودي المولود في الأرجنتين إيتان برونشتاين وزوجته إيلينور مرزا ،من مواليد فرنسا وهي من أم يهودية وأب شركسي، اللذان أسسا قبل ٢٠ عاما جمعية «زخوروت» لتعميق معرفة اليهود بما جرى للفلسطينيين في نكبة عام ١٩٤٨، وألفا كتابا في هذا الموضوع، طالبوا خلاله بحق العودة للشعب الفلسطيني. وخلال عودتهما إلى محطتهما النهائية بروكسل، ومصطحبين طفلهما الصغير ،البالغ من العمر ٤ أعوام، عبر برونشتاين عن سروره في الهرب معه خوفا من التعليم القومي المتطرف في إسرائيل.

وأضاف برونشتاين، الذي يعتبر نفسه إسرائيليا عاديا، أن بقائه في الدولة أشغله، أكثر من أصدقائه الذين لم يتحملوا وسافروا. وقال إن الناس الذين مثله شعروا بالهزيمة ولم يعودوا يُؤثرون في الشارع الإسرائيلي بشكل كبير. وصرح بمفاهيم عميقة أنه وغيره لا يَرَون أفقا للإصلاح والتوجه نحو السلام مع الفلسطينيين أو المساواة مع العرب في داخل الدولة. وأشار أن الكثير من الناس فهمت أن عليها العيش في مكان أخر وليس في الدولة التي تشهد جنونا.

في حين أدرك الدكتور مرسيلو سبيرسكي، أنه لا يستطيع الاستمرار بعمله الاكاديمي في إسرائيل، ما دفعه وعائلته إلى السفر لاستراليا والاستقرار هناك، حيث يشارك في حركة مقاطعة إسرائيل

(BDS)، وهو النشاط الذي اعتبره التزاما بالنضال الفلسطيني. وما زال الدكتور، الذي يرأس اليوم دائرة العلوم السياسية والدولية وتاريخ وسياسة إسرائيل وفلسطين في إحدى الجامعات الاسترالية، الذي أسس «جمعية صوت واحد للجليل» التي اهتمت بتطور القرى العربية في المنطقة، يعتقد أنه لم ينجح بالحصول على الوظيفة المناسبة له في دولة إسرائيل، ويئس من إمكانية العيش في دولة تظلم الأخرين، ما دفعه للبحث عن فرصة أخرى في دول ثانية.

على نفس المنوال سار البروفيسور نيف غوردون الضابط السابق في سلاح المظليين، الذي أصيب بجراح خطيرة، وهو الذي بدأ حياته متظاهرا بسن الخامسة عشر عاما في حركة السلام الان، وتولى خلال الانتفاضة الأولى منصب أول مدير عام لـ «جمعية أطباء لحقوق الانسان»، وكان في الانتفاضة الثانية من دعاة رفض الخدمة في الجيش الإسرائيلي.

اشتهر غورودن عام ٢٠٠٩، بعد نشره مقالا في صحيفة لوس أنجلوس تايمز الأميركية، أيد فيه حركة مقاطعة إسرائيل (BDS)، وطالب بتعريف دولة إسرائيل بأنها دولة تمييز عنصري، ما أثار انتقاد الكثيرين له، وتسبب بموجة تهديدات بالقتل، دفعته مع يأسه من إمكانية إحداث تغيير في المجتمع الإسرائيلي إلى الهجرة إلى المملكة المتحدة.

ومن هناك صرح غورودن، أن الوضع في إسرائيل يزداد تطرفا، وخلال وجودنا فيها شعرنا أن مشاركة أبنائنا في المظاهرات أصبحت خطرة عليهم، حيث انتشرت العنصرية اليومية وأنتجت مكانا لا نستطيع العيش فيه، وبات من المستحيل الحديث بحرية عن الواقع العنصري. بالمختصر أصبحنا غير شرعيين.

الرواية الأخيرة في هذا المقال التي تستحق الذكر، هي رواية الدكتور هاجر كوتيف الناشطة في منظمة «مراقبة الحواجز» وبعض الحركات اليسارية، التي وجدت نفسها أمام وضع مزعج عندما شنت جمعية يمينية حملة عليها وعلى الجامعة التي أرادت إعادتها إلى دولة إسرائيل ضمن حملة إعادة العلماء إلى الجامعة، لتدريس مادة الفلسفة التي اختصت بها.

ونتيجة للحملة، وضعت شروط توقيع عقد العمل في الجامعة كان من بينها : التزام منها بعدم التطرق إلى المواضيع السياسية، أو الحديث في أي موضوع خارج البحث العلمي، وعدم التوقيع على أية عريضة سياسية أو المشاركة في المظاهرات. وعندما اندلع عدوان إسرائيل على قطاع غزة عام ٢٠١٤، وقعت هاجر على عريضة الكترونية تطالب بالتفاوض مع حركة حماس، ألغي على أثرها بشكل كلي مفاوضات عقد تشغيلها في الجامعة. وذكرت هاجر لصحيفة هأرتس أن إلغاء عقد تشغيلها والحرب والعنف في شوارع دولة إسرائيل، والخوف من التعبير عن الرأي والعنصرية

والكراهية المتفشية في صفوفنا دفعتني وزوجي إلى العودة.

إجمالا يمكن القول، أن كل الذين أجريت معهم اللقاءات يتفقون في الرأي أنهم فقدوا الأمل في التغيير السياسي بدولة إسرائيل، معتقدين أن أي تغيير في المجتمع الإسرائيلي لن يأتي من الداخل المغرق بالأيدولوجية الصهيونية، بل من الخارج بعد سلسلة من العقوبات والمقاطعة التي ستدفع إسرائيل في نهاية الأمر إلى التغيير، وربما التوصل إلى حل للصراع مع الفلسطينيين.

خلاصة

خلال الحرب العالمية الثانية، طلب من مسؤول مالية الحركة الصهيونية في بولندا، أن يفتدي بعض اليهود المتدينين المتزمتين بالمال، مقابل الافراج عنهم من معتقل أوشفيتس في بولندا. فرد عليهم قائلا، وبماذا يفيد ذلك الحركة الصهيونية. المقصد هنا، أن ما انطبق على اليهود المعتقلين في ذلك الحين، ينطبق اليوم على اليسار الصهيوني الذي تعرض للتصفية خلال العقدين الماضيين، لتبني أفراده رواية وموقفاً ورأياً، يختلفون فيه عن الرواية الإسرائيلية الصهيونية الرسمية المزورة، في كل ما يتعلق بالصراع مع الفلسطينيين، بدءا من رفضهم الحلول السلمية التي طرحت عليهم في كامب ديفيد وطابا وآنا بوليس، ما حولهم إلى المصطلح الدارج في دولة إسرائيل "عدم وجود شريك" فلسطيني يمكن التفاوض معه للتوصل إلى حل سلمي، وانتهاء بوصمهم بالارهابيين والمخربين، وهما الصفتان المرافقتان للفلسطينيين حتى اليوم، لتبرير عملية قمعهم وقتلهم وسرقة أراضيهم وتوفير بيئة طاردة لهم خارج وطنهم التاريخي.

وأهم عبرة لنا مما حدث مع اليسار الصهيوني، هي ضرورة التخلي عن وهم السلام القائم على حل دولتين لشعبين، الذي نعيشه منذ ما يقارب من ثلاثة عقود، وعدم التسليم بجدول الأعمال الإسرائيلي القائم على العنصرية كحل مرحلي، وعلى طردنا من بلادنا كحل نهائي للقضية الفلسطينية. لذلك علينا أولا توحيد صفوفنا، والاتفاق على برنامج وطني نضالي موحد قائم على الصمود في هذه البلاد ثانيا، إلى حين توفر ظروف إقليمية ودولية تمكننا من الحصول على حقوقنا في كل فلسطين.

الهوامش

1. حسب تفسير رئيس مركز الأبحاث الاستراتيجية «جافة سنتر» ونائب رئيس الموساد سابقا يوسي أليفر، اليسار في إسرائيل لا يملك مفاهيم محددة ولا برامج نظرية، اسوة بأحزاب اليسار في مختلف أنحاء العالم، والوصف متعلق بالتعامل مع الفلسطينيين فقط. وحسب تفسيره كلما كان التعامل معهم لينا أصبح الإسرائيلي أكثر يسارية.
2. أمنون هراري، الناخبين العرب أنقذوا ميرتس في انتخابات 2019 وستحتاجهم هذه المرة، هأرتس، 15\2\2021.
3. التحريض والتوجيه والخداع المعادي للصهيونية في الجامعات، ص 7، تقرير صادر عن حركة «إم ترتسو» عام 2010
4. أوري بلاو، القائمة السوداء: هكذا يتابع اليمين المحاضرين المعادين للصهيونية، صحيفة هأرتس، 12\4\2012
5. شيني ليتمن، يولي نوبك تحولت لعدو الدولة وهربت إلى مكان بعيد، الرابط الاليكتروني للمقال على صحيفة هأرتس www.haaretz.co.il/magazine/.premium.HIGHLIGHT-MAGAZINE-1.10550299، 19\1\2022.
6. يئير إشكنازي ويوناتان ليس، تعمل ريغيف على منح المخصصات والميزانيات للمؤسسات الثقافية، وفق معيار الاخلاص لقوانين الدولة، صحيفة هأرتس، 26\1\2016.
7. تقرير صادر عن جمعية NGO Monitor المناهضة للمنظمات اليهودية اليسارية العاملة لصالح الفلسطينيين، 23\10\2019.
8. شيني ليتمن، قادوا حركات اليسار، لكنهم يأسوا واضطروا إلى الهجرة، قصص المهاجرين الجدد، ملحق هأرتس الاسبوعي، 21\4\2020.
9. نفس المصدر.
10. نفس المصدر.
11. نفس المصدر.

مقبرة باب الرحمة:
معلم مقدسّي إسلاميّ بين مطرقة وسندان التهويد

عزيز محمود العصا*

مقدمة

منذ استلام الخليفة عمر بن الخطاب مفاتيح بيت المقدس، وفتحها سلمًا، أخذت جحافل من العلماء والقادة والرّحّالة تأتي إلى القدس ويقيمون فيها حتى وفاتهم، وهناك من كان يتعمد البقاء في القدس لينال مكرمة الدفن في مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعراجه؛ الأمر الذي تطلب، عبر مئات السنين، توفير قبور، ومدافن، وترب، ومقابر. وكانت هذه، في غالبيتها العظمى، عبارة عن أوقاف ووقفيات وقفها القادة والأمراء والأثرياء. وهناك عدد من المقابر التي يذكرها مؤرخ القدس «مجير الدين الحنبلي»، بقوله:

«وأما ما بظاهر بيت المقدس من المقابر المعدة لدفن أموات المسلمين، فأولها مقبرة باب الرحمة، وهي بجوار سور المسجد الشرقي فوق واد جهنم، ومقبرة الساهرة، وهي شمالي البلد، ومقبرة الشهداء وهي بالقرب من مقبرة الساهرة إلى جهة الشرق()، ومقبرة مامِلّا" (الحنبلي، ج٢ ١٩٧٣: ٦٣-٦٤).

ويرى العسلي في كتابه «أجدادنا....» أن هناك ثلاث مقابر رئيسة في القدس يثوى فيها الآلاف من الأعيان والعلماء والصالحين والمجاهدين، وهي: مقبرة مامِلّا، ومقبرة باب الرحمة، ومقبرة الساهرة (العسلي ١٩٨١: ١١٧-١٤٥).

ويستطرد الحنبلي (ج٢ ١٩٧٣: ٦٤) بذكر مقبرة القلندرية، وبوسط هذه المقبرة زاوية تسمى

* باحث فلسطيني

القلندرية بها أبنية عظيمة، وكانت هذه الزاوية كنيسة، وهي من بناء الروم، وتعرف بالدير الأحمر.

من جانب آخر، يذكر العارف (١٩٩٩: ٥١٠) "المقبرة اليوسفية» بأن من عمرها هو «قانصوه اليحياوي» سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م)(). وهناك جدل بين الباحثين حول هذه المقبرة: فالحنبلي وصف ذلك بأن اليحياوي جدد تربة في أول باب الرحمة من الشمال، بأن عمّر مدفنًا له ولأولاده، ويعزز عرامين (٢٠١٣: ١٥٣-١٥٤) ذلك بترجيحه أن «اليوسفية» أقيمت في العهد الأيوبي نسبة إلى يوسف بن شادي -أي صلاح الدين الأيوبي. ويذكر عارف العارف ثلاث مقابر لآل الدجاني في حي النبي داود على جبل صهيون (العارف ١٩٩٩: ٥١٠). يضاف إلى ذلك الترب المنتشرة في القدس، ومن تلك الترب ما هو في المدارس.

سنتناول، فيما يأتي، «مقبرة باب الرحمة» للتعرف عليها منذ نشأتها حتى تاريخه، وهي تتعرض الآن لاعتداءات من مختلف الأنواع والأشكال، على أيدي الاحتلال الإسرائيلي.

مقبرة باب الرحمة- نبذة تاريخية:

تقع مقبرة باب الرحمة تحت السور الشرقي، والمسافة شرق بغرب بينها وبين المدرسة التنكزية (٤٠٦) أذرع بذراع العمل غير عرض السوريْن (الحنبلي، ج٢ ١٩٧٣: ٢٤). وتعد مقبرة باب الرحمة معلمًا بارزًا ومرجعيًّا من معالم القدس؛ إذ يقول الحنبلي (ج٢، ١٩٧٣: ٩٠): (...) وفي أيامه جدد عمل فصوص الصخرة الشريفة وجدد عمارة السور الشرقي المطل على مقبرة باب الرحمة في شهور سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٦م).

وقد ذُكرت مقبرة باب الرحمة في مواضع عديدة في كتاب الأنس الجليل لمجير الدين الحنبلي، ويبدأ ذكرها بقوله: توفي «شداد بن أوس» سنة (٥٨هـ/٦٧٨م)، وقبره ظاهر ببيت المقدس يزار في مقبرة باب الرحمة (الحنبلي، ج١ ١٩٧٣: ٢٦٣).

مقبرة باب الرحمة- الموقع والحدود والمساحة:

تقع مقبرة باب الرحمة عند المدخل الشمالي الواقع على يمين الخارج من باب الأسباط، وهي ملاصقة للسور الشرقي للمسجد الأقصى المبارك وتطل على وادي جهنم -يسمى وادي النار حاليًّا (يوسف ٢٠١٠: ٤٣٢).

مقبرة باب الرحمة الملاصقة للجانب الغربي من سور المسجد الأقصى المبارك
بعدسة المصور المقدسي المحترف «محمد الفاتح» بتاريخ ٢٠٢٢/٠٣/١٤م

وهي على تلة مرتفعة من أقصى شمالها إلى جنوبها، وتنحدر إلى جهة الشرق، وهي بصورة عامة تبدو مستطيلة الشكل (غير منتظم): طولها شمال-جنوب حوالى ٢٣٠ مترًا، عرضها في الجزء الشمالي بين (٧٠-٨) مترًا، ثم يضيقّ مقابل بابيّ الرحمة والتوبة لحوالي (٥٠-٦٠) مترًا، ثم يتسع قليلًا، ليضيقّ مرة أخرى ليصبح بين (٢٠-٣٠) مترًا. وقدر مساحتها بـ (٢٣) دونمًا. وهناك طريق تقطع المقبرة إلى نصفين وهي طريق الدخول إلى باب الأسباط -أحد أبواب المسجد الأقصى المبارك- والخروج منه (عرامين ٢٠١٣: ١٠١-١٠٢؛ حسن ٢٠١٨).

يُصعد إليها بست درجات حجرية بعرض مترين تقريبًا، وعلى بوابتها لوحة حجرية مزخرفة (١,٥م × ١م)، ومما هو منقوش عليها: «مقبرة إسلامية منذ الفتح العمريّ ١٥هـ/٦٣٦م»، وعلى يمين البوابة لوحة (٦٠ سم × ١٥٠ سم) نقش عليها أسماء شهداء المسجد الأقصى المبارك وأعمارهم -وعدد ١٧ شهيدًا- وهناك لوحات حجرية أخرى تحمل نقوشًا مختلفة، توثق لساكنيها من موتى المسلمين (عرامين ٢٠١٣: ٩٢-١٠٠).

أهمية مقبرة باب الرحمة عند المسلمين:

قال تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء: ٧). إن في هذه الآية الكريمة شهادة إلهية ممنوحة لبني البشر

بأنهم مكرّمون على كثير من المخلوقات، وأن الله سبحانه قد جعل ما في الأرض من الطيبات لهم دون غيرهم من المخلوقات. وبالقياس على ذلك التفضيل، فإن النفس البشرية يجب أن تصان، في حياة المرء أو في مماته، وأن للقبر، وبالتالي للمقبرة، حرمة عند كل الديانات، ولا يحقّ لأيّ كان المساس بها. وأن الإسلام يرفع من مكانة المقبرة ويضع لها حرمات تتعلق بالتعامل مع القبور، حتى عند الجلوس في المقبرة أو السير بين القبور، بما يحفظ للمقبرة هيبتها ورهبتها في نفس المرء.

تعتبر المقابر كنزًا دفينًا لأي شخص يريد البحث والتحري عن حياة المجتمع وخصائصه في زمان ومكان محددين (Mahmoud and Veeder ٢٠١٦: ٢). أما مقابر القدس، ووفقًا لما ذكرنا أعلاه، فلها مكانة دينية وأثرية خاصة؛ فهي قديمة جدا، بل إنها تراث من الجلال والقِدم، وورد ذكر بعض المواقع القائمة عليها في القرآن الكريم، كما أنها طوت أجداث الشهداء الذين سقطوا دفاعًا عن القدس، وأجداث ملوك وأمراء وعلماء وفقهاء واولياء، مما لا يقع تحت حصر (العسلي ١٩٨١: ١١٧).

وأما مقبرة باب الرحمة، فإنها تتمتع بأهمية خاصة؛ فهي أول ما بظاهر بيت المقدس من المقابر والمغائر المعدة لدفن أموات المسلمين، وهي مأنوسة لقربها من المسجد، وهي أقرب الترب إلى المدينة. وفيها قبر شداد بن أوس الأنصاري، كما تضم قبر الصحابي عبادة بن الصامت (٣٨ ق.هـ/٥٨٦م-٣٤هـ/٦٥٤م)() وغيرهما من العلماء والصالحين والشهداء (الحنبلي، ج٢ ١٩٧٣: ٦٣؛ الزحيلي ١٩٨٨: ٣٣؛ حسن ٢٠١٨)، منها:

دفن في مقبرة باب الرحمة شيخ الإسلام صلاح الدين العلائي المقدسي الإمام البارع المحقق بقية الحفاظ، وصاحب عدد من التصانيف النفيسة، عندما توفي سنة (٧٦١هـ/١٣٥٩م) (الحنبلي، ج٢ ١٩٧٣: ١٠٦-١٠٧). وفي سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٤م) توفي الشيخ المعمر شهاب الدين أبو العباس الشافعي، الذي يعود نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدفن فيها وكانت جنازته حافلة (الحنبلي، ج٢ ١٩٧٣: ٢١٦).

وبقرب الصحابي شداد بن أوس دفن فيها قاضي القضاة شيخ الإسلام، سراج الدين أبو حفص عمر بن موسى بن محمد الحمصي المخزومي الشافعي، المتوفى سنة (٨٦١هـ/١٤٥٧م) (الحنبلي، ج٢ ١٩٧٣: ١١٤).

ومن النساء دفن فيها المسندة غزال عتيقة الشيخ تقي الدين إسماعيل القرقشندي سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م) (الحنبلي، ج٢ ١٩٧٣: ١٦٦). كما دفن في مقبرة باب الرحمة القاضي تاج الدين أبو الانفاق أبو بكر بن علي بن أحمد بن كمال الدين محمد الأموي المقدسي الشافعي، المتوفى سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م) (الحنبلي، ج٢ ١٩٩٩: ٢١٢).

وهناك قضاة وأعلام كثر دفنوا فيها، قام الباحث بتتبع تواريخ دفنهم في مقبرة باب الرحمة، كما وردت في (الحنبلي، ج٢ ١٩٧٣)، فجاءت كما في الجدول الآتي (١).

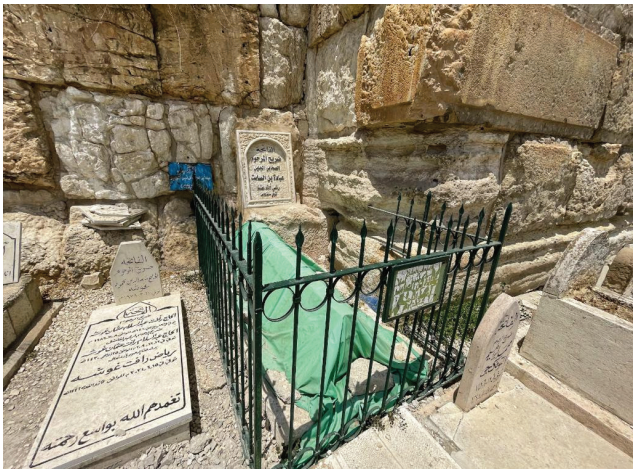

ضريح المرحوم الصحابيّ عبادة بن الصامت في مقبرة باب الرحمة ملاصق للجدار الخارجي من السور الشرقي للمسجد الأقصى المبارك. بعدسة المصور المقدسي المحترف «محمد الفاتح» بتاريخ ٢٠٢١/٧/٥م

جدول رقم (١)

السنوات التي شهدت دفن أعلام المسلمين في مقبرة باب الرحمة بالقدس

الرقم	السنة		رقم الصفحة في الحنبلي (١٩٧٣ ج٢)	الرقم	السنة		رقم الصفحة في الحنبلي (١٩٧٣ ج٢)
	هجري	ميلادي			هجري	ميلادي	
١	٨٨٦	١٤٨١	١٣٢	١٦	٨٩٠	١٤٨٥	٢٠٤
٢	٧٣٩	١٣٣٨	١٥٤	١٧	٨٩٣	١٤٨٨	٢٠٩
٣	٧٦٢	١٣٦١	١٥٧	١٨	٨٩٥	١٤٨٩	٢١٠
٤	٧٧٦	١٣٧٥	١٥٩	١٩	٨٩٧	١٤٩٢	٢١٤
٥	٨٠٢	١٣٩٩	١٦٥	٢٠	٨٦٩	١٤٦٤	٢٢٩
٦	٨٠٢	١٣٩٩	١٩٨	٢١	٨٧٧	١٤٧٢	٢٣١
٧	٨٣٢	١٤٢٩	١٦٩	٢٢	٨٠٨	١٤٠٥	٢٣٣
٨	٨٥٤	١٤٥٠	١٨٣	٢٣	٨٨٤	١٤٧٩	٢٣٥
٩	٨٥٦	١٤٥٢	١٨٤	٢٤	٨٨٥	١٤٨٠	٢٣٦
١٠	٨٥٥	١٤٥١	١٨٥	٢٥	٨٨٧	١٤٨٢	٢٣٨
١١	٨٥٩	١٤٥٥	١٨٥	٢٦	٨٧٨	١٤٧٣	٢٥١
١٢	٨٦٧	١٤٦٣	١٩٠	٢٧	٨٩٢	١٤٨٧	٢٥٣
١٣	٨٧٤	١٤٧٠	١٩٣	٢٨	٧٧٥	١٣٧٣	٢٥٩
١٤	٨٧٨	١٤٧٣	١٩٦	٢٩	٨٣٨	١٤٣٥	٢٦١
١٥	٨٨٧	١٤٨٢	٢٠١				

يلاحظ من الجدول رقم (١) أن القدس ازدحمت بالعلماء والقضاة والأعيان في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي. وهي الفترة التي شهدت تراجع قوة المماليك، وضعف سيطرتهم على مصر وبلاد الشام، وقابل ذلك تنامي قوة العثمانيين وانتشارهم في المنطقة، وصولًا إلى مصر وبلاد الشام.

واستمر الدفن في هذه المقبرة، ففيها قبور عثمانية، وفيها قبر جماعي لنحو (١٣٠) شهيداً مصرياً ارتقوا في حرب العام ١٩٤٨ (حسن ٢٠١٨). وعلى مستوى المجتمع المقدسي، فإن علاقة الأفراد والعائلات والجماعات، والقرى المحيطة، ذات صلة بمقبرة باب الرحمة، وللغالبية العظمى من أبناء القدس وعائلاتها صلة مباشرة بها. إذ أن معظم القبور والأضرحة الملاصقة للسور، هي الأقدم، ومعظمها لعائلات مقدسية. وتعاني تلك القبور من أوضاع سيئة. وهناك قبور تعود لعائلات تقطن خارج القدس. وتزدحم المقبرة بالأضرحة والمدافن والقبور (عرامين ٢٠١٣: ١٠٣-١٠٥).

معالم مقبرة باب الرحمة:

لا شك في اهتمام العالم بالمقبرة، أي مقبرة، في القبور، والأضرحة، والمدافن، والترب... الخ. وأما المقابر الكبرى والمشهورة، والتي تحاط بهالة من القدسية والتبجيل من قبل المجمع والدولة، فتتمتع باهتمام زائد عن المقابر العادية، ليضاف لها معالم أخرى كالقبب والمباني والمنشآت والأسوار.

وفي العصور الوسطى كانت بعض المقابر الإسلامية تحظى بوجود مكتبات فيها؛ كتربة أم خليفة في بغداد، وتربة ابن البزوري في دمشق، والقبة المنصورية في القاهرة، وتربة أحمد باشا الكوبري في اسطنبول (ساعاتي، يحيى؛ ١٩٩٦: ١١٤-١١٥).

أما مقبرة باب الرحمة، وهي واحدة من أهم وأكبر ثلاث مقابر في القدس، فإنها، بالإضافة إلى قبري الصحابيين شداد بن أوس وعبادة بن الصامت، وقبور الشهداء والأعيان والعلماء، منذ الفتح العمري حتى تاريخه، تشتهر بالتصاقها بالسور الشرقي للمسجد الأقصى المبارك، ومجاورتها لباب الأسباط، والتصاقها ببابي الرحمة والتوبة –من أبواب المسجد الأقصى المبارك.

مدخل مقبرة باب الرحمة ويظهر عليه أسماء الشهداء المدفونين فيها
بعدسة المصور المقدسي المحترف «محمد الفاتح» بتاريخ ٢٠٢١/٧/٥م

وتضم هذه المقبرة معلمًا تاريخيًّا مهمًّا بحاجة إلى تسليط الضوء عليه، وهو «قبة الأردبيلي». ففي سنة (٨٣٢هـ/١٤٢٩م) توفي بالقدس الشريف الشيخ الصالح العابد علاء الدين أبو الحسن (...) صفي الدين الأردبيلي العجمي الزاهد العابد الحجة شيخ الصوفية وابن شيخهم، ويقال أنه «شريف علوي»، فدفن بباب الرحمة بلصق سور المسجد. كان لعلاء ووالده كرامات ظاهرة، وبنى أصحابه على قبره قبة كبيرة وهي مشهورة للزيارة (الحنبلي، ج٢ ١٩٧٣: ١٦٩).

والقبة حاليًّا عبارة عن بناء قديم، أبعاده: (٨) أمتار طولًا شمال-جنوب، و(٤) أمتار عرضًا غرب-شرق، و(٣) أمتار ارتفاعًا. يرتكز البناء من الناحية الغربية على السور الشرقي للمسجد الأقصى المبارك. وله أربعة أبواب مفتوحة على شكل أقواس حجرية: اثنان باتجاه الشرق، وواحد باتجاه الشمال، وآخر باتجاه الجنوب. تعلو البناء قبتان قصيرتان، وقد تهدم جزء من القبة الجنوبية مع السقف، وبداخل البناء خمسة قبور دارسة، باستثناء قبر يقع تحت القوس الشمالي غير معروف صاحبه (عرامين ٢٠١٣: ١١٠-١١٣).

استهدافات الاحتلال لمقبرة باب الرحمة:

بعد (١٩) عامًا من النكبة كانت النكسة عام ١٩٦٧م، فوقعت مدينة القدس «الشرقية» في قبضة الاحتلال، فكان أول إجراء عمليّ شهدته القدس أن توجهت قوات الاحتلال لاحتلال حائط البراق، وفي ١١ و١٢ حزيران من العام ١٩٦٧م تم التدمير الكامل لحارة المغاربة، وتهجير سكانها بالكامل، حتى لا يبقى هنالك مطالب بحقوق هذه الجالية (العصا ٢٠٢١). أما مقبرة باب الرحمة، فقد تعرضت، هي وامتدادها في الشمال –المقبرة اليوسفية- لمسلسل مستمر من اعتداءات الاحتلال، يمكن إيجازها في الآتي (بكيرات ٢٠٢٢):

سنة ١٩٧١م تم توسيع الشارع المحاذي للمقبرة من الشرق، فاقتطع من المقبرة ما يزيد على ٣ دونمات (عرض ١٠ أمتار على طول المقبرة)، شمل ممر للمشاة وأقواس حجرية. فاعترضت دائرة الأوقاف الإسلامية، إلا أن بلدية الاحتلال لم تلق بالًا لذلك الاحتجاج.

سنة ١٩٨٥م رفع مستوطن إسرائيلي قضية على الأوقاف الإسلامية مدعيًا أن قبر عبادة بن الصامت هو قبر جده، وطالب الأوقاف بالسماح له بعمل شيء لهذا القبر، فواجهته دائرة الأوقاف، ففشل المستوطن في ذلك؛ لعدم وجود أي دليل لديه.

استمرت بلدية الاحتلال في محاولات الانقضاض على هذه المقبرة كما فعلت في مقبرة مأمن الله (مامِلّا). وفي سنة ١٩٩٠م منعت سلطات الاحتلال دائرة الأوقاف من إقامة مظلة في المقبرة، وفي عام ١٩٩٨م منعت عمل ممر في المقبرة، إلا أنه تم في ذلك العام، ومن خلال إصرار دائرة الأوقاف، إقامة المظلة وممر ضيق، إضافة إلى تركيب بوابة للمقبرة من جهة سلوان (جنوب المقبرة)، وعمل بوابة من الجهة الشمالية، فقامت شرطة الاحتلال بكسر قفل هذا الباب؛ لضمان عدم إغلاق أي من البابيْن والإبقاء على ممر عام داخل المقبرة.

خلال التسعينات جرت محاولات احتلالية لمنع عائلات سلوان من دفن موتاهم في الزاوية الجنوبية للمقبرة، كما اعتادوا منذ مئات السنين، فكانوا يراوغون الاحتلال، بشكل أو بآخر، ويدفنون في ذلك الجزء من المقبرة.

إلا أنه في سنة ٢٠٠٣م أحكمت سلطات الاحتلال قبضتها على المكان، فطوقته بكاميرات المراقبة من كل جانب، وأصبحت تلاحق الأهالي وتمنعهم من الدفن، وإذا تم الدفن بالفعل، أصبحت الشرطة تمارس القوة لإجبار أهل المتوفى المدفون على إخراج جثمانه، ودفنه في مكان آخر. وتم اقتطاع نحو الدونم في هذه المنطقة، ومنع الدفن فيها، سوى ما كان قد تم دفنهم قبل هذا التاريخ.

في عاميّ ٢٠١٧م و٢٠١٨م بدأت محاولة خطيرة جدًّا لاقتطاع جزء من مقبرة باب الرحمة من أجل القطار الهوائي، فأحاطت سلطات الاحتلال المقبرة بأسلاك شائكة، ومنعت امتداد القبور، وبقيت التلة الخالية من القبور محظور الدفن فيها.

بهذا، تكون دولة الاحتلال قد حاصرت المقبرة، وحاصرت المشهد الحضاري الذي يحيط بالمسجد الأقصى المبارك.

ختامًا،

هذه هي مقبرة باب الرحمة في القدس، الملاصقة للسور الشرقي للمسجد الأقصى المبارك، وهو

أيضًا السور الشرقي للبلدة القديمة من القدس. وقد تبيّن لنا من الشرح أعلاه أن هذه المقبرة معلم إسلاميّ الهوية؛ وذلك لما تحتويه من قبور علماء المسلمين وشهدائهم وأعلامهم وكبار قادتهم... كما ارتبطت بالعائلات المقدسية، عبر التاريخ، لوجود قبور الأجداد والآباء، واستمرار الدفن فيها دون توقف.

وعليه، فإن ممارسات الاحتلال بحق هذه المقبرة، ومحاولاته «اليائسة» من أجل السيطرة عليها، تواجَه بصمود المقدسيين، وتفانيهم في الدفاع عن رفات الأجداد، وما يمثله من كرامة الأمة الإسلامية قاطبة؛ إذ أنه ما من بلد إلا وقدم منه من دُفن في هذه المقبرة، عبر التاريخ الطويل، الممتد من الفتح العمري (١٥هـ/٦٣٨م) حتى تاريخه. وقد جاءت هذه المقالة لتسليط الضوء على هذه المقبرة كمعلم إسلاميّ علينا بذل الجهود كافة في الحفاظ عليه، وفضح ممارسات الاحتلال وأفعاله العدوانية، من أجل الإبقاء عليها كمكان لدفن الموتى كما كانت عليه منذ مئات السنين!

المراجع

الحنبلي، مجير الدين. الأنس الجليل بتارخ القدس والخليل. جزآن. عمان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣.

—. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. ج٢. تحرير محمود عودة الكعابنة. مكتبة دنديس، ١٩٩٩.

الزحيلي، وهبة مصطفى. عبادة بن الصامت: صحابي كبير وفاتح مجاهد. دمشق: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨.

العارف، عارف. المفصل في تاريخ القدس. الجزء الأول. المجلد الخامس. القدس: فوزي يوسف صاحب مكتبة الأندلس في القدس، ١٩٩٩.

العسلي، كامل جميل. اجدادنا في ثرى بيت المقدس - دراسة اثرية تاريخية لمقابر القدس وتربها واثبات باسماء الاعيان المدفونين فيها. عمان: مؤسسة آل البيت، ١٩٨١.

العصا، عزيز محمود. «حارة المغاربة في القدس: أنشأها صلاح الدين الأيوبي.. ومحاها الاحتلال الإسرائيلي.» مجلة أوراق فلسطينية، صيف ٢٠٢١، الإصدار العدد (٢٧): ٢٧-٣٨.

حسن، محمد؛. «مقبرة باب الرحمة: تاريخ حافل من الاعتداءات الإسرائيلية.» العربي الجديد. ٢٠١٨/٠٦/٢٧: https://www.alaraby.co.uk (accessed at ٢٠٢٢/٠٣/٠١)

ساعاتي، يحيى؛. الوَقْفُ وَبِنْيَةُ المَكْتَبَةِ العَرَبِيَّةِ: اسْتِبْطانٌ لِلْمَوْروثِ الثَّقافِيِّ. المجلد ٢. الرياض: مَرْكَزُ المَلِكِ فَيْصَلٍ لِلْبُحوثِ وَالدِّراساتِ الإِسْلامِيَّةِ، ١٩٩٦.

عرامين، محمد بحيص؛. المقابر الإسلامية في بيت المقدس. القدس: دار الجندي للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

ناجح بكيرات، أجرى المقابلة عزيز محمود العصا. مسلسل الاعتداءات الاسرائيلية على مقبرة باب الرحمة، القدس، ٢٠٢٢/٠٣/١٠.

يوسف، حمد أحمد. من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس. القدس: وزارة الإعلام - فلسطين، ٢٠١٠.

Veeder، Anna . Hidden Heritage: A Guide to the Mamilla Cemetery، ؛Mahmoud، Ahmad .٢٠١٦ .Jerusalem. Edeting: Jessica Bonn. Translation: Noa Granot. Jerusalem: Emek Shaveh

الهوامش:

١ يؤكد عرامين (2013: 290) أن هذه المقبرة اندثرت.
٢ في ذلك تناقض مع التاريخ الذي ذكره الحنبلي (895هـ/1490م).
٣ هناك من يقول بأنه دفن في الرملة، أو في قبرص ببلاد الشام... الخ، وأضعف الروايات تقول أنه توفي بالمدينة (الزحيلي 1988: 33-34).

ملف منظمة التحرير:
المخاض، الميلاد، التأسيس والأصداء
(٢-٢)

الأصداء في الدول الغربية

رباب يحيى

كان العام ١٩٦٤ نقطة تحوّل هامة في تاريخ فلسطين، من الناحيتيْن: السياسية والعسكرية؛ إذ انعقد المؤتمر الفلسطيني الأول، في القدس، صيف ١٩٦٤، معلنًا قيام» منظمة التحرير الفلسطينية»، برئاسة أحمد الشقيري.

تمثّل «منظمة التحرير الفلسطينية» إحدى حركات التحرر الوطني المعاصرة، إذ إنها نشأت خارج أرضها المحتلة؛ ما جعلها فريدة متميِّزة، بين حركات التحرر الوطني، في الوطن العربي خاصةً، والعالم عامة (١).

ينبع الاهتمام بمواقف الدول الغربية الكبرى (الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا)، تجاه منظمة التحرير الفلسطينية، من عدة اعتبارات، وحقائق تاريخية، حيث كان لمواقف هذه الدول أثر حاسم في وجود مشكلة فلسطين، فهي القوى التي انشغلت بالمسألة الشرقية (تركة الدولة العثمانية)، وباستعمار المنطقة العربية، وبالمشكلة اليهودية، والحركة الصهيونية؛ وهي ذات القوى التي أقرت صيغة الانتداب البريطاني، الذي اشتمل على ضرورة تنفيذ «وعد بلفور» في فلسطين، إبان زعامة هذه الدول لعصبة الأمم، وتحكُّمها - إلى حد كبير - في النظام الدولي، كما شكلت مجموعة الدول الغربية، مصدر الدعم الاقتصادي، والسياسي، والعسكري لإسرائيل. وقد كانت تلك الدول، إلى حد كبير، مسؤولة عن إنشاء الكيان الصهيوني، كما ظلت السبب الرئيسي وراء استمرار هذا الكيان.

أولاً: الولايات المتحدة الأميركية

التي تتزعم هذه المجموعة، فيما لم يكن لها، حتى الحرب العالمية الأولى، سياسة واضحة، أو موقف

محدد، بشأن مشاكل الشرق الأوسط، والقضية الفلسطينية، فقد اقتصر اهتمامها بالمنطقة، حتى ذلك الوقت، على الروابط الثقافية، والتبشيرية، والتجارية المحدودة.

غير أنه، بعد الحرب العالمية الأولى، تغيرت طبيعة الاهتمام الأميركي بفلسطين، والشرق الأوسط، وتمثَّل هذا التغيير في تأييد الرئيس الأميركي، ودرو ويلسون لـ «وعد بلفور»، في آب /أغسطس عام ١٩١٨، وموافقة الولايات المتحدة على الانتداب البريطاني على فلسطين،العام ١٩٢٤، وبعد ذلك، وقفت الولايات المتحدة موقفًا عدائيًا من حقوق الشعب الفلسطيني، وأسهمت، إسهامًا كبيرًا، في صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١، في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، بشأن تقسيم فلسطين، كما كانت الولايات المتحدة أول دولة تعترف بإسرائيل، حتى قبل إعلانها، بنحو أربع وعشرين ساعة!

خرجت منظمة التحرير إلى الوجود، في وقت توثقت العلاقات الأميركية – الإسرائيلية، بصورة متميِّزة، عن الأعوام السابقة؛ لكون العام ١٩٦٤، بالذات، كان عام انتخابات الرئاسة الأميركية؛ ولسعي الحزب الديمقراطي، والرئيس ليندون جونسون، لكسب الأصوات اليهودية في الولايات المتحدة الأميركية، بالتقرُّب من إسرائيل، والصهيونية(٢)؛فضلاً عن اقتراب الجيش المصري من منابع البترول في الجزيرة العربية، عند انتقال هذا الجيش إلى اليمن، دعمًا لثورته (خريف ١٩٦٢). حتى أن جونسون، أكد بأن «إسرائيل وُجدت لتبقى»، حسب كلمة ألقاها، نيابة عن جونسون، مستشاره الخاص، ماير فولمان، أمام مؤتمر «المنظمة الصهيونية الأميركية".(٣)

في آيار/مايو ١٩٦٤، أعلنت الحكومة الإسرائيلية، رسميًا، بدء «تجربة» ضخ مياه نهر الأردن، من بحيرة طبريا. وفي آخر الشهر نفسه، قام ليفي أشكول، رئيس الوزراء الإسرائيلي، بزيارة رسمية للولايات المتحدة؛ وفي البيان المشترك، في ختام الزيارة، أكدت الإدارة الأميركية عزمها على المحافظة على الحدود الراهنة في الشرق الأوسط.(٤) وكأن إسرائيل مهددة من جيرانها العرب! فيما تأكد، لاحقًا، أن زيارة أشكول هذه، إنما جاءت في سياق التحضير للعدوان الإسرائيلي، على مصر، وسوريا، والأردن.(٥)

في العام ١٩٦٥، استمرت واشنطن في النهج نفسه، وقد عيَّنت القاضي آرثور غولدبرغ، المعروف بميوله الصهيونية، مندوبًا لها في منظمة الأمم المتحدة، الأمر الذي انتقده ممثل م.ت.ف. في نيويورك.(٦)

أما بالنسبة للدول الرئيسية الأخرى، في مجموعة الدول الغربية، فقد استمرت، بدورها، في منح التأييد الخالص لإسرائيل.

ثانيًا: بريطانيا

من يتعرض لموقف بريطانيا من منظمة التحرير، عليه أن يقاوم الرغبة في الإفاضة بالدور التاريخي للسياسة البريطانية في فلسطين، والتي تركت أكبر الأثر في ترسيخ المشروع الصهيوني، ومن ثم، في خلق المشكلة الفلسطينية؛ فبريطانيا هي التي أصدرت «وعد بلفور»، خريف العام ١٩١٧، وهي التي انتُدبت على فلسطين، بين العامين ١٩٢٢ و١٩٤٨، وهي المرحلة التي شهدت، في آخرها، قيام إسرائيل، على أشلاء فلسطين.

انطلقت الدبلوماسية البريطانية، بعد ذلك، بغرض إكساب «وعد بلفور» الشرعية الدولية، ومباركة الدول الغربية الكبرى له، بعد أن ألحقته في «صك الانتداب» (الاستعمار) البريطاني على فلسطين، تمهيدًا لإنشاء «وطن قومي يهودي في فلسطين»، وقد تحقق هذا الهدف، حين عزَّز الوجود البريطاني الاستعماري المد اليهودي الصهيوني في فلسطين؛ سكانيًا، بتشجيع الهجرة؛ وعسكريًا، بالمساعدة في قيام التنظيمات العسكرية اليهودية؛ وسياسيًا، باعتماد «الوكالة اليهودية»، كهيئة تمثيلية للصهيونية اليهودية في فلسطين؛ واقتصاديًا، بالدعم المالي للصهاينة، وقهر الفلسطينيين، اقتصاديًا، وتجريدهم من وسائل الدفاع عن أراضيهم.(٧)

بعد العام ١٩٥٦، حاولت السياسة البريطانية في الشرق الأوسط أن تظهر بمظهر من يحاول تعديل الصورة، التي عمل «العدوان الثلاثي» على تثبيتها في أذهان العرب، بأنها «الحليف» لإسرائيل، إلى صورة الدولة التي تنتهج نهجًا «مستقلاً»، في سياستها الشرق أوسطية؛ فعمدت، من جهة، إلى ترك زمام المبادرة الغربية في المنطقة للولايات المتحدة؛ ومن جهة أخرى، حاولت تركيز سياستها في الشرق على أساس «البيان الثلاثي"*.(٨)

حرص «حزب العمال البريطاني»، الذي تسلّم الحكم، العام ١٩٦٤، على ترطيب العلاقات مع الدول العربية، واقترن ذلك بالاعتراف بإسرائيل، والقبول بالوجود الإسرائيلي. ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤، وقبل تسلم الحزب مقاليد الحكم، أعلن ووكر ـــ وزير الخارجية في حكومة الظل العمالية ـــ أن حزبه «يرغب في المحافظة على أوثق العلاقات الممكنة مع العالم العربي»، شرط «الاعتراف، والقبول بالوجود الإسرائيلي». وبعد أن تسلَّم حزب العمال مقاليد الحكم، كرر غوردون ووكر، بصفته وزير الخارجية في الحكومة العمالية، تصريحه الأول، فأكد أن حكومة العمال «ليست حكومة السويس، ولا تحمل على كتفيها أثقالاً كبيرة، بالنسبة للعلاقات مع الدول العربية». وأوضح أنه، في محادثاته مع الزعماء العرب، كان، دومًا، يؤكد أن لحزبه علاقات وطيدة مع إسرائيل، وأنه «سوف يحافظ على هذه العلاقات، التي يعتبرها هامة جدًا".(٩)

قد يكون تقرُّب «حزب العمال» من العرب، ضمن حدود الاعتراف بالوجود الإسرائيلي، غايته الحد من دعم الجمهورية العربية المتحدة للحركات الاستقلالية في الوطن العربي، ومن حملة القاهرة على القواعد البريطانية، في بعض الدول العربية.

ثالثًا: فرنسا

كانت فرنسا من أوائل الدول الأوروبية التي دعت إلى توطين اليهود في فلسطين، في إطار الطموحات الامبراطورية لنابليون، صاحب الدعوة. فقد دعا، في رسالة، وجهها إلى يهود فرنسا، وأوروبا، العام ١٧٩٩، إلى إقامة دولة لهم في فلسطين، تحت الحماية الفرنسية.(١٠)

عندما صدر «وعد بلفور»، لم تبد فرنسا تعاطفها السريع معه، ولم يكن ذلك إلا انعكاسًا للمحاولة الفرنسية، الهادفة إلى تطويق النفوذ البريطاني، في مقابل ما رأته فرنسا من مصالح ومطامح استعمارية لبريطانيا في سوريا، والتي كانت فلسطين تقع ضمن كيانها، في ذلك الحين، بل كانت فرنسا تطمع في مشاركة بريطانيا في الإدارة المدنية لفلسطين، بدلاً عن الإدارة البريطانية المنفردة، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وهو ما دعا لندن إلى وضع فلسطين، بعد احتلالها، تحت الحكم العسكري البريطاني المنفرد. (١١)

صوتت فرنسا إلى جانب قرار تقسيم فلسطين، في تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٤٧، ثم كانت فرنسا في مقدمة الدول التي كفلت الوجود الإسرائيلي، باشتراكها في «البيان الثلاثي»، الذي صدر العام ١٩٥٠ (مع بريطانيا، والولايات المتحدة)، كما ساعدت، بقوة، برنامج الأبحاث النووية الإسرائيلي، حيث تم بناء أول مفاعل نووي إسرائيلي، في ديمونة، بصحراء النقب، بمساعدة فرنسية أساسية(١٢)؛ ووصل التحالف الفرنسي - الإسرائيلي إلى مداه، بمؤامرة «العدوان الثلاثي» على مصر؛ وقد ساهم في تدعيم العلاقات الفرنسية _ الإسرائيلية، على حساب العلاقات الفرنسية _ العربية، في تلك الفترة، عدة اعتبارات، إقليمية وعالمية؛ فمن ناحية، وبالرغم من استمرار احتفاظ فرنسا بوجود اقتصادي، وثقافي، في الأقطار العربية، فإن وضعها السياسي كان في انهيار تام، في المشرق والمغرب، على حد سواء؛ لأنها فقدت سوريا ولبنان، وكانت تلقى صعوبات شديدة في شمال أفريقيا، وبخاصة بعد اندلاع الثورة الجزائرية (خريف ١٩٥٤)، وكانت مساندة بعض الأقطار العربية، وبخاصة مصر، لهذه الثورة الجزائرية، يمثل مصدر توتر شديد في العلاقات الفرنسية-العربية، ونظرًا للعداء المشترك بين فرنسا وإسرائيل للاتجاهات القومية العربية، فقد سادت القطيعة بين فرنسا والدول العربية، ومصر بصفة خاصة، ثم رجحت كفة التقارب الفرنسي مع إسرائيل، على كفة التقارب مع العرب.(١٣)

حافظت فرنسا على علاقات صداقة وثيقة مع إسرائيل، بلغت، العام ١٩٥٨، حد التحالف العسكري(١٤)، واستمرت على الحال ذاته، بعد زوال الجمهورية الفرنسية الرابعة، وتسلُّم الجنرال شارل ديغول مقاليد الحكم في فرنسا؛ وقد هيأ التضامن العربي، مع ثورة الجزائر الاستقلالية، مناخًا مواتيًا لنمو الصداقة الفرنسية _الإسرائيلية، في مواجهة «الخطر المشترك» على مصالح الدولتين.

في العام ١٩٦٤، بدأت بوادر تقارب جديد في العلاقات الفرنسية - العربية، مهَّد له لدى الجانب العربي، استقلال الجزائر، ولدى الجانب الفرنسي، اتجاه ديغول نحو سياسة «أوروبية»،أقل ارتباطًا بالحلف الأطلسي، وأكثر اقترابًا بدول العالم الثالث، انعكست آثارها في تفهم الجانب الفرنسي المتزايد لبعض وجهات النظر العربية، وفي البعثات التمهيدية الفرنسية إلى عدد من الدول العربية، وفي الرغبة الفرنسية المعلنة لإعادة «الوجود الفرنسي» إلى الشرق الأوسط، كرادع للنفوذ الأميركي.

أثار هذا التطور المستجد على العلاقات العربية - الفرنسية قلق الدبلوماسية الإسرائيلية، وكان الحافز الرئيسي لزيارة ليفي أشكول، رئيس الوزراء الإسرائيلي «الخاصة»،لفرنسا، في حزيران/يونيو - تموز/يوليو ١٩٦٤. وقد حرصت تل أبيب، طوال العامين ١٩٦٤، و١٩٦٥، على إبقاء العلاقات الإسرائيلية - الفرنسية ضمن أبعاد ثلاثة، أساسية(١٥):

(١) على الصعيد السياسي الدولي، تشكل فرنسا إحدى دعامات تثبيت الوضع الراهن في الشرق الأوسط، بالنسبة لالتزاماتها نحو إسرائيل، بموجب «البيان الثلاثي»؛

(٢) على الصعيد العسكري، تلعب فرنسا دور المورِّد الرئيسي للسلاح الجوي الإسرائيلي؛

(٣) على الصعيد الاقتصادي، تعتمد إسرائيل،بصورة خاصة، على الدعم الفرنسي، في ترشيحها لعضوية «السوق الأوروبية المشتركة".

منذ العام ١٩٦٥، بدأ التقارب الفرنسي الحقيقي مع العرب، خاصة مع مصر؛ حقيقة لم تستعد فرنسا مكانتها السابقة، حيث ظل الوجود الفرنسي محدودًا جدًا، مقارنة بالوجود الألماني الغربي، الذي استغل فترة القطيعة المصرية - الفرنسية، ليرسي دعائمه في مصر؛ ولكن عبد الناصر أبدى اهتمامًا ببعض جوانب السياسة الخارجية الفرنسية، التي رفعت شعار الاستقلال بين الكتلتين، وكان من أبرز صور التقارب المصري - الفرنسي، بعد عودة العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين، العام ١٩٦٣، زيارة وزير الدفاع المصري، المشير عبد الحكيم عامر، إلى باريس، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥، التي أعقبها توالي مظاهر التقارب بين البلدين، على الصعيدين، الثقافي والاقتصادي، أساسًا. (١٦)

بعد أن عادت العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا وكل من سوريا، والأردن، والمملكة العربية السعودية، العام ١٩٦٢؛ ومع العراق، العام ١٩٦٤، تنوَّعت مظاهر الوجود الفرنسي في الوطن العربي: بيع طائرات فرنسية لسوريا، والأردن؛ قيام مؤسسات فرنسية بتوسيع مطارات دمشق، وبيروت، وعمان؛ شراء لبنان لبعض طائرات الميراج الفرنسية؛ وفي المقابل، لم يقم أي مسؤول فرنسي بزيارة إسرائيل، ما بين العامين ١٩٦٣، و ١٩٦٦؛ وفي الوقت نفسه، أخذت أهمية إسرائيل، كسوق للسلاح الفرنسي، تنخفض، نظرًا لبداية فتح سوق السلاح الأميركي أمام إسرائيل.(١٧)

رابعًا: ألمانيا الغربية

في العام ١٨٧٠، سعى القائد الألماني «مولتكه»،لجعل فلسطين مستعمرة ألمانية؛ وفي سبيل ذلك، تأسست عدة مستعمرات ألمانية، بجوار بعض المدن الفلسطينية الكبيرة (حيفا، والقدس، ويافا)، وقد قام المموِّل الألماني اليهودي،موريس دي هيرش (١٨٣١ ـ ١٨٩٦)، بجهد كبير في تأسيس «الاتحاد الإسرائيلي العالمي»، وأصبحت برلين، في ذلك الوقت، العاصمة المالية للصهيونية الأوروبية، كما كان الكُتَّاب اليهود الألمان من أبرز زعماء الحركة الصهيونية، وكانت الألمانية هي لغة المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧).(١٨)

رحب تيودور هيرتزل بالحماية الألمانية لمشروع الدولة اليهودية في فلسطين، وكان يفضِّلها على الحماية البريطانية، حفزه على ذلك، العلاقات القوية بين ألمانيا، والامبراطورية العثمانية، صاحبة اليد العليا في فلسطين، أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين؛ وكانت الهزيمة الألمانية، في الحرب العالمية الأولى، إيذانًا ببدء التحول الصهيوني عن ألمانيا، لصالح توجهها نحو بريطانيا.(١٩)

عقب اندلاع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ -١٩٤٥)، وفي أثنائها، جرت اتصالات ألمانية - فلسطينية، باعتبار أن بريطانيا كانت عدوًا مشتركًا للطرفين؛ وعلى عكس ما يُشاع، استبشرت الحركة الصهيونية بقدوم أدولف هتلر إلى الحكم في ألمانيا، مطلع ١٩٣٣؛ ففي مرحلة حكمه، تمكَّن عدد كبير من اليهود الألمان، وغيرهم في أوروبا، من الحصول على التسهيلات الاقتصادية اللازمة، لتحويلهم إلى فلسطين، ما يفسر الضرر الذي لحق بالقضية الفلسطينية، نتيجة لتزايد الهجرة اليهودية، في تلك المرحلة.

منذ العام ١٩٤٨ (عندما ظهرت ألمانيا الغربية، كدولة)، لعب كل من موقع ألمانيا الجديد في التحالف الغربي، وحاجتها للمساعدات الأميركية، وما سمى بعقدة الذنب تجاه اليهود، أثره في تحديد الموقف الألماني من قضية فلسطين.

اتسمت سياسة جمهورية ألمانيا الاتحادية في الشرق الأوسط بتردد ظاهر، تجاه الصراع العربي ـ الإسرائيلي، هذا التردد أملاه، إلى حد ما، الواقع الألماني الغربي، في تلك المرحلة؛ فبعد عشرين سنة، تقريبًا، من الهزيمة الألمانية في الحرب العالمية الثانية، بقيت ألمانيا خارج الأمم المتحدة، مجزَّأة إلى دولتيْن متنافرتيْن، تسعى لوحدة شقيْها، وإن اصطدمت، في سعيها هذا، بعوامل عقائدية، وسياسية متضاربة، أسهمت في تكريس تجزئتها، كما أنها عانت، على الصعيد الرسمي، حساسية ظاهرة تجاه ماضيها الهتلري، «عوَّضت» عنه،ماديًا،لإسرائيل، بالإضافة إلى وضعها الدولي، الذي جعلها موضعًا للضغوط الأميركية، عقب العام ١٩٤٨، بسبب اضطلاع الولايات المتحدة بإحياء الاقتصاد الألماني، من خلال «مشروع مارشال».(٢٠) لذلك تأرجحت ألمانيا الغربية، بالنسبة لمصالحها الاقتصادية، وظروفها السياسية، واحتياجاتها الدفاعية، بين السياسة الديغولية «الاستقلالية»، والسياسة الأميركية «الأطلسية»؛

لهذه الاعتبارات، اجتهدت الدبلوماسية الألمانية الغربية، طيلة العام ١٩٦٤، في «موازنة» المصالح الألمانية لدى الدول العربية، مع الضغوط الأميركية، والإسرائيلية؛ فتعمدت، قدر الإمكان، تحاشي اتخاذ مواقف تقريرية محددة، بالنسبة للعديد من المشاكل المتعلقة بالصراع العربي - الإسرائيلي، ما زاد في غموض السياسة الألمانية الخارجية؛ إلى أن اضطرها كشف النقاب عن صفقة الأسلحة الألمانية لإسرائيل، العام ١٩٦٥، إلى فقدان عنصر «الموازنة»، وبالتالي، فقدان غموضها المتعمد.(٢١)

*البيان الثلاثي: أصدرته كل من الولايات المتحدة الأميركية، وبريطانيا، وفرنسا، في ١٩٥٠/٥/٢٥، وفيه تعهدت الدول الثلاث بمنع دول الشرق الأوسط من استخدام السلاح المصدَّر إليها، لأية أغراض عدوانية.كما تعهدت الدول الثلاث بالتصدي لأي اعتداء على «الحدود، أو خطوط الهدنة ".

الهوامش:

١. إيهاب فراونة، منظمة التحرير الفلسطينية.. الأحزاب والفصائل الفلسطينية، موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني (وفا)، دراسات وتقارير، ٢٠٠٩.

٢. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٦، ص ٢٥٥.

٣. عبد القادر ياسين (محررًا)، أربعون عامًا من حياة منظمة التحرير الفلسطينية،ط١، بيروت، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات، حزيران (يونيو) ٢٠٠٦، (انظر: عبد القادر ياسين: الأصداء الدولية، ص ٢١١).

٤. الكتاب السنوي...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٨.

٥. ياسين، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٢.

٦. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٧، ص ٤٩٠، و٥١٥.

٧. محمد خالد الأزعر، الجماعة الأوروبية والقضية الفلسطينية، ط١، عمان، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفسطينية، ١٩٩١، ص ٥٧.

٨. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٣.

٩. المرجع نفسه، ص ٢٧٤.

١٠. الأزعر، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.

١١. محمد عبد الرؤوف سليم، تاريخ الحركة الصهيونية (القسم الثاني)، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٤، ص ٨٤.

١٢. د. نادية محمود محمد مصطفى، أوروبا والوطن العربي، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص ٥٨.

١٣. المرجع نفسه، ص ٥٩.

١٤. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٨.

١٥. المرجع نفسه، ص ٢٦٨.

١٦. مصطفى، مرجع سبق ذكره، ص ٦٤.

١٧. المرجع نفسه، ص ٦٤.

١٨. رفيق شاكر النتشة، الاستعمار وفلسطين، عمان، دار الجليل للنشر، ١٩٨٤، ص ١٢٥.

١٩. المرجع نفسه، ص ١٣٢.

٢٠. الأزعر، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥.

٢١. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦١.

الأصداء في دول العالم الثالث

حمدين محمد

لم يكن لما يُعرف بالعالم الثالث، الآن، وجود، أصلاً، على خريطة العلاقات الدولية، قبل الحرب العالمية الثانية. حيث انقسم عالم ما بعد الحرب، مباشرة، إلى عالمين: عالم أول رأسمالي، تتزعمه الولايات المتحدة الأميركية، وعالم ثان اشتراكي، يتزعمه الاتحاد السوفياتي. أما العالم، الذي نطلق عليه اليوم اصطلاح «العالم الثالث»، والذي يشمل، تقريبًا، كل أقطار القارات الثلاث: أفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، فقد كان واقعًا تحت الهيمنة المطلقة للعالم الأول، سواء بالاستعمار المباشر (كما فى حالة أفريقيا، وآسيا)، أو بالاستعمار غير المباشر (كما فى حالة أميركا اللاتينية).

لم يتشكل «العالم الثالث» هكذا، مرة واحدة، وإنما ظهر إلى حيّز الوجود، وتبلور، تدريجيًا من خلال النضال ضد الاستعمار التقليدي، ثم ضد كافة أشكال التبعية، السياسية، أو الاقتصادية، أو الثقافية، وكان مؤتمر التضامن الأفريقي ـ الآسيوي فى باندونغ، بمثابة البوتقة التي خرجت منها الأفكار المحورية، التي مكّنت العالم الثالث من اكتشاف هويته، ومهدت السبيل أمامه، لكي يحدد لنفسه دورًا في النظام الدولي، بعد أن بدأت أميركا اللاتينية مسيرتها نحوه. فبعد مؤتمر باندونغ، بدأت تظهر المجموعة الأفروآسيوية، وتنسق مواقفها، داخل منظمة الأمم المتحدة، ثم ظهرت مجموعة «عدم الانحياز»، وبدأت تنسق، هي الأخرى، مواقفها، وفقًا لتوصيات مؤتمرات عدم الانحياز المتتالية، والتي أكدت، دومًا، على ضرورة هذا التنسيق.

كان من المفترض أن تكون مواقف دول العالم الثالث، في آسيا، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية، أكثر تميُّزًا، وتفهُّمًا لحقوق الشعب الفلسطيني، ولقيام «منظمة التحرير الفلسطينية»، وذلك على اعتبار أن عددًا كبيرًا من هذه الدول قد نال استقلاله، على يد حركات التحرير الوطنية، إلا أن الواقع شهد بغير ذلك، لأن إسرائيل كانت تقيم علاقات دبلوماسية مع معظم الدول الأفرو ــ آسيوية، غير

العربية، واحتفظت بعلاقات دبلوماسية مع جميع دول أميركا اللاتينية، على مستوى سفارة، في حين كان لها في كوبا مفوضية فحسب.

ومنذ بداية الصراع العربي – الإسرائيلي، ودول أميركا اللاتينية تلعب دوًرا على جانب كبير من الأهمية،فيما يتعلق بقضية فلسطين. وقد تجلى هذا الدور، بصورة خاصة، في أروقة الأمم المتحدة، حيث كان للثقل العددي، الذي تتمتع به هذه الكتلة، أثر واضح في تطور القضية، على الصعيد الدولي، منذ العام ١٩٤٧. ثم إن بُعد هذه القارة عن الوطن العربي، وعدم وجود صلات، اقتصادية، أو سياسية وثيقة، بين المنطقتين، جعلا من الأمم المتحدة المجال الذي تستطيع فيه دول أميركا اللاتينية أن تؤثر على مجرى القضية الفلسطينية، وتطوراتها.

وقد قدمت دول أميركا اللاتينية ـــ باستثناء كوبا ـــ تأييدًا، سياسيًا ودبلوماسيًا، مستمرًا لإسرائيل، فبفضل هذه الدول، أمكن للجمعية العامة إصدار قرارها بشأن تقسيم فلسطين، الذي مهد الطريق لقيام دولة إسرائيل، في آيار/مايو ١٩٤٨. حيث أعلنت ١٣ دولة، من دول أميركا اللاتينية، تأييدها المطلق لقرار تقسيم فلسطين،في جلسات هيئة الأمم المتحدة،في ١٩٤٧/١١/٢٩. ومثلت هذه الدول ٤٠٪ من مجموع الأصوات، التي صوّتت على القرار،في حين عارضته كوبا، وامتنعت عن التصويت كل من الأرجنتين، والتشيلي،وكولومبيا، وهندوراس، والسلفادور،والمكسيك.(١)

وأثناء اندلاع حرب ١٩٤٨ العربية ـ الإسرائيلية، طالبت دول أميركا اللاتينية بانسحاب القوات العربية، كما حثّت هيئة الأمم على دعم "استقلال إسرائيل"، واعترفت دول أميركا اللاتينية (بدولة إسرائيل)، بعد قيامها، مباشرة، بشكل واقعي، ثم تبع ذلك، في شباط/فبراير ١٩٤٩، اعتراف قانوني، ورسمي. وكان من نتيجة ذلك، أن تقدمت إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة،في ١٩٤٩/٥/١٠. سبع دول،كانت أربع منها أميركية لاتينية (غواتيمالا، وبنما، وهايتي، وأوروغواي)، بمشروع قرار نص على قبول (إسرائيل) في عضوية الأمم المتحدة. وعندما جرى التصويت،في اليوم ذاته، على المشروع، صوتت إلى جانبه ١٨ دولة أميركية لاتينية. وامتنعت اثنتان (البرازيل،والسلفادور) عن التصويت. وكانت دول أميركا اللاتينية في مقدمة الدول التي تبادلت مع الكيان الصهيوني التمثيل القنصلي، والدبلوماسي.(٢)

عند صدور قرار التقسيم، لم يكن للدول الأفريقية، عمومًا، دور بارز في القضية العربية، في المراحل الأولى من الصراع العربي ـ الإسرائيلي، فأثناء التصويت على تقسيم فلسطين، عام ١٩٤٧، لم تكن لأفريقيا من دول أعضاء في الجمعية العامة للأمم المتحدة، إلا ثلاث دول، هي: مصر، وأثيوبيا، وليبريا، أما باقي القارة، فقد كانت كلها تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي، وقد كان موقف ليبريا مؤيدًا للتقسيم، بينما امتنعت أثيوبيا عن التصويت.

بدأت علاقة الدول الأفريقية بالقضية الفلسطينية في الأمم المتحدة، قبل أن تبدأ في «منظمة الوحدة الأفريقية»، ولذلك تأثرت الدول الأفريقية بالمفهوم الذي كانت تُطرح به القضية الفلسطينية في المنظمة الدولية، باعتبارها «قضية لاجئين".

كان «مؤتمر باندونغ» هو الإرهاصة الأولى نحو عملية تنظيم دول العالم الثالث، والخطوة الأولى على طريق الألف ميل، وجاء صرخة مدوِّية لم تكف أصداؤها عن التردد، في جنبات القارات الثلاث،مؤكدة أن شعوب العالم الجديد لن تبقى مسلوبة الإرادة، والثروة،إلى الأبد، وأنه قد آن الأوان، لكي تحتل مكانها اللائق بين الأمم.

مثل مؤتمر باندونغ الأفرو-آسيوي (المنعقد في الفترة ٨-٢٤ نيسان/أبريل ١٩٥٥)، اللقاء الأول بين الدول العربية، والدول الأفريقية، حيث حضرته من الدول العربية كل من: سوريا،والعراق،والأردن،ولبنان، واليمن،والمملكة العربية السعودية، (من قارة آسيا)، ومصر، والسودان (من أفريقيا)، ومن الدول الأفريقية غير العربية، حضرت أثيوبيا، وليبريا، وغانا، كما حضره ممثلون عن حركات التحرر، من كلتا القارتيْن، بصفة مراقبيْن، من بينها وفد «الهيئة العربية العليا لفلسطين»، الذي مثلها في المؤتمر الحاج أمين الحسيني، بالإضافة إلى حضور أحمد الشقيري،عندما كان عضوًا في الوفد السوري، وقد ضم هذا المؤتمر ٢٩ دولة.(٣)

نجحت مصر، والدول العربية المشاركة في المؤتمر، في طرح القضية الفلسطينية، بكافة أبعادها، والخروج بقرار يدعم القضية الفلسطينية، جاء فيه: «إنه نظرًا للتوتر السائد في الشرق الأوسط،بسبب الحالة في فلسطين، ونظرًا لما ينطوي عليه ذلك من خطر على السلام العالمي، فيعلن المؤتمر الأفرو-آسيوي تأييده الكامل لحقوق شعب فلسطين العربي، ويدعو إلى تنفيذ قرارات الأمم المتحدة، وإيجاد تسوية سلمية لمسألة فلسطين». لم يكن اتخاذ المؤتمر لقرار دعم القضية الفلسطينية هو النجاح الوحيد، بل تعدى النجاح العربي ذلك، إلى عزل إسرائيل، وحرمانها من المشاركة في المؤتمر، فلم توجه الدعوة لها، على الرغم من محاولاتها المستمرة، لدى الدول المشاركة.(٤)

كان هذا بداية التعامل الأفروآسيوي مع قضية فلسطين، ومنها امتد هذا التعامل إلى المؤتمرات الأخرى، مثل مؤتمرات تضامن الشعوب الأفرو- آسيوية،منذ انعقاده الأول، العام ١٩٥٧، ومنظمة الوحدة الأفريقية، وحركة عدم الانحياز.

موقف منظمة الوحدة الأفريقية

تطرق عدد من الرؤساء العرب، في خطاباتهم، أمام مؤتمر القمة الأفريقي الثاني،الذي عُقد

بالقاهرة،العام ١٩٦٤، إلى القضية الفلسطينية، وركزوا اهتمامهم على عقد مقارنات بين ممارسات إسرائيل، وجنوب أفريقيا، كما سعوا إلى مقارنة الدور الذي يقوم به «جيش التحرير الفلسطيني» بالدور الذي تقوم به حركات التحرر الأفريقية، ليثيروا بذلك الضمير الأفريقي؛ وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم تصدر قرارات عن المؤتمر بشأن القضية الفلسطينية،بسبب قوة العلاقات الإسرائيلية-الأفريقية. وعندما انعقدت الدورة الثالثة لمؤتمر القمة الأفريقي، في أكرا، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥، ظلت قضية فلسطين بعيدة عن جلساته، ما دفع أبا أيبان، وزير الخارجية الإسرائيلية للقول: «إن رفض زعماء الدول الأفريقية تبني اقتراحات مضادة لإسرائيل، في مؤتمر أكرا، يعكس مدى التقدم الذي أحرزته إسرائيل،في دائرة مهمة من سياستها الدولية".(٥)

هنا، يتضح أن «منظمة الوحدة الأفريقية»، منذ نشأتها وحتى عدوان ١٩٦٧، كانت تتجاهل القضية الفلسطينية، وذلك بسبب عدم رغبة الدول العربية في الضغط على المنظمة، لاتخاذ قرار مساند للقضية الفلسطينية، خشية حدوث انقسام في هذه المنظمة الوليدة، بالإضافة إلى عدم الوعي الأفريقي بطبيعة الصراع العربي ــ الإسرائيلي، ونجاح سياسة إسرائيل في أفريقيا، والدعم الذي وجدته من الدول الاستعمارية الكبرى، في ربط مستعمراتها السابقة في أفريقيا بإسرائيل.

حركة عدم الانحياز:

شغلت قضية فلسطين مؤتمرات «حركة عدم الانحياز»، منذ مؤتمر قمتها الأول (٢٥ دولة)، في بلغراد، العام ١٩٦١، سواء ما انعقد منها على مستوى القمة، أو على مستوى وزراء الخارجية، أو على مستوى مكتب التنسيق. وصدر عن هذه الاجتماعات كلها مقررات، وتوصيات، وبيانات، أيدت حقوق الشعب الفلسطيني،مع تصاعد ملحوظ لصالح هذه الحقوق، في مضامين هذه المقررات،والتوصيات، والبيانات، ولهجتها، عامًا بعد عام:

١) مؤتمر القمة الأول لحركة عدم الانحياز (١٩٦١): ففي قمة بلغراد، ناقش قادة عدم الانحياز المشكلة الفلسطينية، كواحدة من المشكلات الدولية الدقيقة، التي تحتاج إلى عمل سريع،يقوم على المسئولية،والواقعية. وفي حين أعلنوا، في القسم الثالث من بيانهم الختامي،أنهم لن يقدموا اقتراحات تفصيلية لحل هذه المشاكل، فإنهم أيدوا "الاستعادة الكاملة لجميع الحقوق الخاصة بالشعب العربي في فلسطين، وفق أحكام ميثاق،وقرارات الأمم المتحدة". (٦)

تأتي أهمية هذا التأييد، من أنه صدر، في وقت كانت القضية الفلسطينية قد طويت، عمليًا، من جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة، ليحل محلها موضوع تقرير المفوض العام للأونروا،

وفي حين كان العالم كله،تقريبًا،لا يتحدث إلا عن حقوق "اللاجئين الفلسطينيين"، في العودة،أو التعويض، وفق حكم الفقرة ١١ من القرار ١٩٤، الصادر عن الجمعية العامة، العام ١٩٤٩، ودون أن يكون للشعب الفلسطيني ممثل شرعي، ينطق باسمه، ويعبِّر عن رغباته.

٢) مؤتمر القمة الثاني (١٩٦٤): شهدت مؤتمرات دول عدم الانحياز، في هذه الفترة، بداية تأييد دول العالم الثالث للقضية الفلسطينية. حيث نوقشت قضية فلسطين، ضمن البند الخاص "بتحرير البلاد المستعمَرة، واستئصال الاستعمار، بشكليه، القديم والجديد، وكذلك الامبريالية". فقد تضمنت قرارات المؤتمر الثاني لرؤساء دول عدم الانحياز، الذي انعقد في القاهرة، ما بين ٥ - ١٠ تشرين الأول /أكتوبر ١٩٦٤، أي بعد قيام م.ت.ف. بأشهر قليلة، القرار التالي، بخصوص قضية فلسطين: "إن المؤتمر، إذ يندد بالسياسة الاستعمارية، يُقرر:(٧)

١. تأييد استعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه، استعادة كاملة، وكذلك حقه الطبيعي في تقرير المصير.

٢. إعلان تأييده التام للشعب العربي في فلسطين،في كفاحه للتحرر من الاستعمار،والصهيونية.

بينما كان حضور» منظمة التحرير الفلسطينية» للمؤتمر، وإن بصفة ضيف، بمثابة أول اعتراف من محفل عالمي بها. (٨)

يتضح من هذا القرار، أن قادة عدم الانحياز كانوا سباقين،دوليًا، في عدد من الأمور، أهمها ربط المشكلة الفلسطينية بالمسألة الاستعمارية، ودعم حقوق الشعب الفلسطيني، ووصم الصهيونية،المغتصِبة، بلاده، بالعنصرية.

يرجع عدم ذكر م.ت.ف.، صراحة،في هذه القرارات، إلى علاقات الصداقة التي كانت تربط إسرائيل بمعظم دول آسيا، وأفريقيا،وأميركا اللاتينية. ولم يكن مستغربًا، لهذا السبب، أن تقف هذه الدول موقف المترقب،والمحايد من «منظمة التحرير الفلسطينية»، في سنوات حياتها الأولى. غير أننا نجد، مع ذلك، أن إحدى الدول الآسيوية، وهي الصين الشعبية، قد انفردت بتأييد م.ت.ف.، وهي في مهدها، و قد رمت الصين بكل ثقلها، خلال هذه الفترة، وراء» منظمة التحرير الفلسطينية».ويعود الاستثناء الصيني هنا، إلى المبادئ الماركسية ـاللينينية، التي حملتها الصين، وليس بسبب موقع الصين الجغرافي في آسيا.

حاولت بعض حكومات دول أميركا اللاتينية التقرُّب من الدول العربية. ففي آب/أغسطس ١٩٦٥، قام وفد أرجنتيني،برئاسة نائب رئيس جمهورية الأرجنتين، بزيارة لعدة دول عربية. وقد صرح رئيس الوفد بأن للشعب الفلسطيني حقًا في أرضه، لأن قضيته قضية حق؛ وطالب رئيس الوفد بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة في هذا الشأن.

حين زار أرنستو تشي غيفارا القاهرة، في آذار/مارس ١٩٦٥،قال إن "إسرائيل صنيعة إمبريالية". كما دعت كوبا دول أميركا اللاتينية إلى تفهُّم أفضل لقضايا العرب العادلة. وفي تموز/يوليو ١٩٦٥، قام وفد من» منظمة التحرير الفلسطينية» بزيارة لدول أميركا اللاتينية، شرح خلالها وجهة النظر العربية، ونسق مع الجاليات العربية هناك. وقد عُقد المؤتمر الأول للمغتربين الفلسطينيين في أميركا اللاتينية،في عاصمة تشيلي (سنتياغو)،بحضور ممثلين عن الجاليات الفلسطينية، في كافة دول أميركا اللاتينية، ووفد من «منظمة التحرير الفلسطينية»؛ وقد تحدث في المؤتمر سلفادور ياتين، رئيس اللجنة المركزية الفلسطينية_ التشيلية،حيث طالب بدعم نضال شعب فلسطين. وقرر المؤتمر إنشاء لجنة مركزية،تمثل كافة العرب الفلسطينيين في دول أميركا اللاتينية، يكون مقرها سنتياغو.(٩)

إذا كانت المواقف الجماعية للعالم الأفروـآسيوي بالنسبة لقضية فلسطين، قد برزت،خلال العام ١٩٦٤، من خلال المؤتمر الثاني لدول عدم الانحياز، الذي عُقد في القاهرة، في الفترة من ٥ -١٠ تشرين الثاني/أكتوبر، فإن هذه المواقف قد برزت،خلال العام١٩٦٤، وتأكدت، العام ١٩٦٥، من خلال المؤتمرات غير الرسمية، التي عُقدت في أماكن مختلفة من القارتين.

على الصعيد غير الرسمي، وجَّه مجلس منظمة تضامن شعوب القارتيْن الآسيوية والأفريقية، وهي منظمة مثلت التيارات التقدمية الشعبية في القارتيْن، نداءً، في ٢٧ آذار/مارس ١٩٦٤، من مكان انعقاد المجلس،في الجزائر، دعت فيه شعوب القارتيْن، وعمال العالم أجمع «لتأييد الشعب الفلسطيني، في قضيته الكبرى،ونضاله الباسل، من أجل حقوقه المشروعة». وأعلن المجلس أنه أصبح من المؤكد لدى جميع شعوب آسيا، وأفريقيا، وعلى كافة المستويات، أن إسرائيل هي قاعدة للاستعمار،بشتى أنواعه، وأنه من الواجب اتخاذ إجراءات حاسمة، للحد من نشاطها".(١٠)

تضمنت قرارات المؤتمر الرابع لمنظمة تضامن الشعوب الأفروـآسيوية، المنعقد في غانا، خلال ٩-١٦ آيار/مايو ١٩٦٥، تأكيد المؤتمر على جميع القرارات السابقة، لمؤتمرات تضامن الشعوب الأفريقية _ الآسيوية،بتأييد حقوق الشعب الفلسطيني،في تحرير وطنه، واعتبار إسرائيل قاعدة عدوانية للاستعمار، القديم والجديد، تهدد تقدم، وأمن، وسلامة الشرق الأوسط، والسلام العالمي. كما أدان المؤتمر، الذي حضرته وفود من سبعين دولة، قيام إسرائيل،في الجزء المحتل من فلسطين العربية، وأعلن عن تأييده لمنظمة التحرير الفلسطينية، في كفاحها العادل لتحرير فلسطين، وناشد الهيئات الوطنية،في القارتيْن، مكافحة التسلل الصهيوني إليها،والضغط على حكوماتها،لإلغاء الاتفاقات المعقودة بينها وبين إسرائيل، ومقاطعة إسرائيل، اقتصاديًا وسياسيًا، والعمل على طردها من الأمم المتحدة.(١١)

لكن قضية فلسطين لم تحظ بهذا القدر من التأييد، على الصعيد الرسمي، وليس أدل على ذلك، من أن البيان، الذي صدر في أعقاب مؤتمر القمة الأفريقي الثاني، الذي انعقد في القاهرة،خلال ١٧ ــ ٢١ تموز/يوليو ١٩٦٤، قد خلا من أية إشارة للقضية الفلسطينية.(١٢)

بالإضافة إلى أن أميركا اللاتينية تُعتبر منطقة نفوذ تقليدية للولايات المتحدة الأميركية؛ وقد تحددت الملامح الأساسية للسياسة الأميركية تجاهها، طبقًا لمبدأ مونرو، الذي كان أصدره الرئيس الأمريكى جيمس مونرو،وقضى باعتبار أي تدخل من القوى الأوروبية،في نصف الكرة الغربي، بمثابة تهديد لأمن الولايات المتحدة،وقد أدخلت الإدارات الأميركية المتعاقبة، تعديلات متتالية على هذا المبدأ، زادته وضوحًا، ورسوخًا. وعلى سبيل المثال، فقد أدخل الرئيس تيودور روزفلت إضافة جديدة،العام ١٩٠٤، أعطت الولايات المتحدة، بموجبها لنفسها حق التدخل العسكري ــ كقوة بوليس دولية ــ فى دول نصف الكرة الغربي، وذلك لإجبار حكوماتها على دفع الديون، وتجنُّب تدخل القوى الأوروبية؛ بيد أن جوهر المبدأ ظل ثابتًا، وهو اعتبار نصف الكرة الغربى، وبالذات أميركا اللاتينية، منطقة نفوذ للولايات المتحدة؛التي سعت إلى تحويل «مبدأ مونرو»، من مجرد مبدأ، صادر بإرادة منفردة من الولايات المتحدة، إلى مبدأ عام للتعامل الدولي، مع أميركا اللاتينية،مقبول من المجتمع الدولي؛ ومن ثم،فقد قبلت»عصبة الأمم» مبدأ مونرو، حينما نصّت المادة ٥٤ من عهد «العصبة» على المبدأ،كتفاهم إقليمي(١٣). وتحفَّظت الولايات المتحدة،صراحة،على أنها لن تقبل أي تحكيم، أو استقصاء دولي من العصبة، في أي شأن تراه الولايات المتحدة متعلقا بمبدأ مونرو. ومن ناحية أخرى، تمكنت الحركة الصهيونية من «صهينة» جزء كبير من الجاليات اليهودية في دول أميركا اللاتينية، واستطاعت إسرائيل أن تتغلب على البُعد الجغرافي، والتباين الحضاري، بأن تقيم علاقات وثيقة، مع دول أميركا اللاتينية جميعها، فعمدت إسرائيل، منذ قيامها،إلى تقديم المساعدات الفنية للتنمية، وأرسلت الخبراء، والمستشارين، وعقدت دورات، لتدريب المبعوثين من دول القارة، في مجاليْ الصناعة، والتنظيم النقابي. وضمنت، بالتالي، ولاء اليهود هناك لأهداف الحركة الصهيونية، بشكل كبير؛ فكان من الطبيعي أن يعكس الترابط الصهيوني – الأميركي نفسه على مواقف دول أميركا اللاتينية، تجاه الصراع العربي -الإسرائيلي، مع غياب إعلام عربي نشط، في تلك المنطقة. ولذلك،درجت أكثر دول أميركا اللاتينية، في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، على تأييد إسرائيل في الأمم المتحدة،في ركاب الولايات المتحدة الأميركية، أسوة بالأخيرة.

الهوامش:

١. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس، بيروت ١٩٩٠.(انظر: محمد عزيز شكري، أمريكا اللاتينية والقضية الفلسطينية، ص ٧٨).

٢. المرجع نفسه، ص ٧٩.

٣. أحمد باسم أحمد بارود، منظمة التحرير الفلسطينية والدول الأفريقية جنوب الصحراء ١٩٦٤ ـ ١٩٨٨، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في الدراسات التاريخية، معهد البحوث والدراسات العربية، مخطوط، القاهرة، ٣٠٠٥، ص ١٢.

٤. المرجع نفسه، ص ١٢.

٥. المرجع نفسه، ص ٣١.

٦. الموسوعة الفلسطينية، مرجع سبق ذكره، (انظر: د. محمد عزيز شكري، حركة عدم الانحياز والقضية الفلسطينية، ص ٩٠).

٧. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٦، ص ٣٢٤.

٨. المرجع نفسه، ص ٨٧.

٩. د. محمد عزيز شكري، أمريكا اللاتينية...، مرجع سبق ذكره.

١٠. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٣.

١١. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٧، ص ٤٩٠، ص ٥٧٩.

١٢. الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٢.

١٣. محمد السيد سليم، أمريكا اللاتينية. الواقع والمتغيرات: الوجود الأمريكى والسياسة السوفيتية، القاهرة، السياسة الدولية (القاهرة)، يناير/كانون الثاني ١٩٨٢.

الأصداء الصهيونية

د. خالد سعيد

ستجد أول ما تجد، عند البحث في دوائر المعارف الصهيونية، أو وسائل الإعلام الإسرائيلية، الصادرة باللغة العبرية، عن «منظمة التحرير الفلسطينية»، وصمها بـ « الإرهاب «، واعتبار نضالها، وغيرها من الفصائل الفلسطينية، ضد الكيان الصهيوني، تدميرًا للدولة « الصهيونية «، مع إجراء تغييرات كبيرة في العسكرية الصهيونية، عند الإعلان عن تشكيلها!

رهنت تل أبيب إنشاء «منظمة التحرير الفلسطينية» باندلاع عمليات فدائية، بطول وعرض الأراضي الفلسطينية المحتلة، وكذا اعتبارها خطرًا على الأمن القومي « الإسرائيلي «، خاصة مع تبني المنظمة، و غيرها من المنظمات والحركات والفصائل الفلسطينية، للمبادىء القومية.

ارتبطت الصورة الذهنية الصهيونية لمنظمة التحرير الفلسطينية بالتوجه القومي والعلماني، مقارنة بفصائل وحركات فلسطينية أخرى، اتبعت النهج المقاوم، والتوجُّه الإسلامي، لاحقًا، مثل «حركة الجهاد الإسلامي»، التي ربطتها تلك الصورة بالانتفاضة الفلسطينية الأولى (انتفاضة الحجارة)، وحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، التي انبثقت عن «جماعة الإخوان المسلمين»، فما ذُكر أحدهما إلا و ارتبط بالآخر.

من هنا، يمكننا وضع صورة ذهنية صهيونية عن منظمة التحرير الفلسطينية، بعد قراءة عدد من وسائل الإعلام « الإسرائيلية «، الصادرة باللغة العبرية، ومن خلالها نطرح تساؤلنا المهم، والمتعلق بكيفية استقبال الكيان الصهيوني لتلك المنظمة، كالتالي:

" دُشِّنت (منظمة التحرير الفلسطينية)، في كانون الثاني/يناير من العام ١٩٦٤، في مصر، بهدف توحيد المنظمات الفلسطينية، التي عملت منفردة، منذ العام ١٩٤٨، وتبنيها العمل (الإرهابي) ضد إسرائيل، آنذاك، وتحولت إلى القوة المركزية للشعب الفلسطيني، في الأساس، منذ «حرب الأيام

الستة» (حزيران/يونيو١٩٦٧)، وباتت، في مرحلة مهمة من الصراع الإسرائيلي – العربي، تُمثل خطرًا حقيقيًا على (إسرائيل)، لتبنيها العمليات الإرهابية، ضد أهداف عسكرية،ومدنية (إسرائيلية) « (١). وعدَّتها « إسرائيل « منظمة « إرهابية «، لدعوتها الصريحة، والمباشرة،إلى تدميرها،وهلاكها، خاصة وأن تلك المنظمة لاقت من سوريا دعمًا جارفًا، للقيام بعمليات فدائية، عند إنشائها(٢).

فكان بديهيًا أن نجد، في أغلب الكتابات الصهيونية،أن الأعوام ١٩٦٥- ١٩٦٧، مثلت أعواماً صعبة على « إسرائيل «؛ إذ خرجت فيها عشرات العمليات الفدائية من الأراضي السورية، واللبنانية، وربما كان ذلك سببًا في « حرب الأيام الستة « مع سوريا.

لذلك، عمدت الدول العربية الثلاث الكبرى، مصر، وسوريا، والعراق، في ستينات القرن الماضي، إلى تحويل القضية الفلسطينية إلى القضية الرئيسية للصراع العربي ـ الصهيوني، بيد أن المملكة الأردنية الهاشمية لم تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، إلا بعد التأكد من أن المنظمة لن تقوِّض أركان المملكة، ولن تقطع تواصل الضفة الغربية عن الضفة الشرقية (٣).

بدعوى أن الضفتيْن، الشرقية والغربية، تضمان بين دفتيهما شعباً فلسطينياً واحداً، فقد أشير في الاجتماع التأسيسي للمنظمة « المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول / في القدس»، في آيار/مايو ١٩٦٤، إلى توحد الشعب الفلسطيني، باعتبار أن له الحق الكامل في إقامة دولة فلسطين، وأن المواطنين الفلسطينيين هم مواطنون عرب، ولا حقوق لليهود عامة،سوى لليهود الذين كانوا يقيمون على أرض فلسطين، حتى «وعد بلفور»، في العام ١٩١٧؛ مع التشديد على أنه ليس لليهود أية علاقة تاريخية بفلسطين؛ لأن اليهود ليسوا شعبًا، وإنما جماعات متفرقة، ومشتتة. ومن بين ما جاء في الاجتماع التأسيسي، أيضًا، أن إقامة دولة « إسرائيل «، وتقسيم فلسطين، منذ العام ١٩٤٧، باطل، وإقامتها مجرد إقامة لإمبريالية صهيونية، وكان من بين أهداف المنظمة، إنشاء دولة عربية فلسطينية مستقلة، ديمقراطية، وعلمانية؛ وبعد عام من هذا الاجتماع،تم تأسيس « جيش التحرير الفلسطيني " (٤).

تزامنًا مع ظهور « منظمة التحرير الفلسطينية «، صيف العام ١٩٦٤، صاغ مؤسسو حركة « الأرض"، في فلسطين المحتلة، مذكرة سرية، بعثوا بها إلى الأمم المتحدة، تحدثوا فيها عن القوانين الجائرة، والسياسة التي يتبعها الكيان الصهيوني ضد العرب، هناك، آنذاك، وذاع أمر المذكرة، والتقطت السلطات الصهيونية الرسالة، فأدركت بأن مجرد خروج « منظمة التحرير الفلسطينية « إلى الوجود، قد أعطى دفعة قوية للاتجاه العربي القومي في « إسرائيل «، فشنَّت تلك السلطات حملة اعتقالات، في كل قرى الجليل، والمثلث، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٤، ووجهت إلى المعتقلين

تهمة الاتصال بالدول العربية، والخطر على أمن الدولة، وإقامة علاقات مع الفدائيين، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وإنشاء حركة سرية في الأرض المحتلة؛ وبعد أسبوع من الاعتقال، أصدر رئيس الوزراء الصهيوني، آنذاك، ليفي أشكول، قرارًا، قضى بحل شركة الأرض، وحركة الأرض، باعتبارهما خارجتين على القانون! ويُذكر أن رجال الأمن « الإسرائيلي « لم يحققوا مع أعضاء (حركة الأرض)، حيال التهم الموجهه إليهم، بقدر ما كانوا يناقشونهم في السياسة: القومية العربية، والوحدة، والشعب الفلسطيني، وحقوقه (٥).

قامت منظمة التحرير، في الوقت الذي بدأت الأزمة في الحزب الشيوعي « الإسرائيلي « (١٩٦٤-١٩٦٥)، وسرعان ما انقسم الحزب إلى جماعتين: « ماكي « وجميعهم من اليهود، و « ركاح « وأغلبيتهم من العرب. ويُعزى سبب الانقسام الرئيسي إلى موقف الحزب من الحركة القومية العربية، حيث أخذ الحزب موقفًا مغايرًا لمبادئه المعلنة، تجاه قيام منظمة التحرير الفلسطينية، فقد اعتبر الحزب نشوء « الكيان الفلسطيني « عائقًا أمام وجود « الكيان الإسرائيلي «، في حين اعترض الأعضاء العرب على هذا الموقف، وانحازوا إلى « المنظمة «،فكان الانشقاق، صيف العام ١٩٦٥ (٦).

هنا، يمكن القول إن الكيان الصهيوني أحبط كل محاولة لظهور الكيان الفلسطيني، أو لتكوين حزب عربي مستقل عن الأحزاب « الإسرائيلية «، آنذاك، يدافع عن حقوق شعبه، إذ رأت تل أبيب في ذلك عائقاً رئيسياً أمام أهداف الحركة الصهيونية، وخطرًا مؤكدًا على « دولة إسرائيل «، كما أن « حركة الأرض «، خاصة، اشتركت مع منظمة التحرير في تبنيها للمبادىء القومية، الأمر الذي أفزع الكيان الصهيوني(٧).

لقد تأثرت السياسة العسكرية الصهيونية، خلال العام ١٩٦٥، بعدة أحداث مهمة، كان في مقدمتها انعقاد مؤتمرات القمة العربية (الأول والثاني، في العام ١٩٦٤)، والثالث، في العام ١٩٦٥، وما أسفرت عنها من مقررات تتعلق بالتصدي لمحاولات « إسرائيل « تحويل روافد نهر الأردن في سوريا، ولبنان، والأردن، وتسليح هذه الدول بأسلحة حديثة، لمواجهة أي محاولات من جانب الكيان الصهيوني، لعرقلة تنفيذ مشاريع التحويل، وقيام «منظمة التحرير الفلسطينية»، و»جيش التحرير الفلسطيني»، و»القيادة العربية الموحدة». فأدت هذه المقررات إلى استحداث موجة من القلق داخل المؤسسة العسكرية الصهيونية، رافقتها تصريحات « إسرائيلية «، شديدة اللهجة، غايتها إظهار الكيان الصهيوني بمظهر الضعيف، أمام النوايا العربية، وبالتالي استدرار عطف الدول الغربية، والحصول على المزيد من الأسلحة الحديثة (٨). فقام المسؤولون الصهاينة، سياسيون وعسكريون، بجولات مكوكية، إلى كل من الولايات المتحدة، وفرنسا، وألمانيا، وبريطانيا، بهدف كسب تعاطفها، ونجحوا، بالفعل، في الحصول على امتيازات تسليحية،ومادية عدة.

بالرغم من ذلك، فإن منظمة التحرير الفلسطينية نجحت، خلال الأعوام الأولى لتأسيسها، في العمل على تحقيق رغبات الشعب الفلسطيني، وفي القمة العربية (الرباط، ١٩٧٤)، اعترفت الدول العربية كافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، باعتبارها «الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني»، وبحق هذا الشعب في إقامة أساس للوطن، أو الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية، وقطاع غزة.

يبدو أنه، من وقتها، كان الرئيس الفلسطيني الراحل، ياسر عرفات، يقابل في غالبية دول العالم،كرئيس دولة رسمي، وكانت تقام له طقوس الاحتفال، والاستقبال الرسمية، حتى أنه قَبِل دعوة من الأمم المتحدة، لإلقاء خطاب عن الشعب الفلسطيني، أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، خريف العام ١٩٧٤ (٩).

ذهب الكتاب الصهيوني « سنوات من الرعب والأمل «، للبروفيسور أفيالي طبيبيان، إلى أن قادة، وزعماء الدول العربية اعترفوا بمنظمة التحرير الفلسطينية، وأقاموا فروعًا لها في بلادهم، وساعدوا المنظمة بكميات كبيرة من الأموال، خاصة من دول الخليج العربي، وعلى رأسها المملكة العربية السعودية. وقامت المنظمة بعمليات استشهادية، ضد أهداف « إسرائيلية «، من خارج الأراضي الفلسطينية المحتلة، وفي الأساس من مطارات دولية، وكان الاستشهاديون، في الأغلب، يخرجون من الأردن، ولبنان، وسوريا، وتحديدًا من مخيمات اللاجئين هناك، حيث وصفها الكتاب الصهيوني بأنها مخيمات شكَّلت دولة داخل الدولة، إذ أفرزت « إرهابيين « فلسطينيين، نافيًا التنسيق مع قادة أي من دولتيْ الأردن،أو لبنان، أو جيشيهما(١٠).

"تولى أحمد الشقيري، رئاسة المنظمة، الذي كان يتبع النهج المتشدد، لتحرير كل فلسطين، واغتيال دولة إسرائيل، وأقام مجلساً وطنياً فلسطينياً، لتفعيل عمل المنظمة، لإقامة (جيش التحرير الفلسطيني)، وهو جزء من الجيوش العربية (سوريا، ومصر، والأردن)؛ وفلسطين، من وجهة نظره، هي ملهمة الشعب الفلسطيني، وأنه لابد من العودة إلى حدود ١٩٤٧، ومع ذلك، أشار الشقيري إلى حق اليهود، الذين كانوا قبل (وعد بلفور) فحسب، بأن يمكثوا في فلسطين " (١١).

لاحقًا، انضمت إلى « منظمة التحرير الفلسطينية « فصائل، ومنظمات، وحركات أخرى، منها « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين «، بقيادة جورج حبش، و « الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين «، بقيادة نايف حواتمه، و « جبهة التحرير العربية «، و « قوات الصاعقة «، و « الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة «، و « جبهة النضال الشعبي «، وكلها انضوت تحت لواء «منظمة التحرير الفلسطينية». وكان الهدف منها تقويض دولة الكيان الصهيوني، وإقامة دولة فلسطينية علمانية ـ ديمقراطية، على كل الأراضي الفلسطينية، وذلك كله بالرغم من أن ثمة تباين بين تلك الفصائل

وبعضها البعض، فبينما حبش وحواتمه يتبعان التيار الماركسي، فإن عرفات اتبع الخط المحافظ للتوجه الإسلامي، مثلاً(١٢).

بعد صراعات داخلية صعبة، بين المنظمات المكوِّنة لمنظمة التحرير الفلسطينية، أهمها حركة (فتح)، بالطبع، وبعد ضغوط من جانب الحكم الأردني، استقال الشقيري من منصبه، في نهاية العام ١٩٦٧، وتولى مكانه يحيى حموده، الذي تولى، لفترة قصيرة. فيما اختير ياسر عرفات، في بداية العام ١٩٦٩، رئيسًا للمنظمة، وكان قائدًا لمنظمة « فتح «، آنذاك، وقد تولى قيادة المنظمة، حتى استشهاده، في العام ٢٠٠٤.

"بمساعدة الدول العربية الغنية، استطاع عرفات أن يقيم دولة داخل الدولة، حيث أصبح لمنظمة التحرير الفلسطينية أذرع عسكرية، وتنظيمية، واقتصادية، وصحية، وثقافية، وغيرها من المجالات الحياتية الأخرى. فيما قررت المنظمة، في الدورة الثانية عشرة لمجلسها الوطني (١٩٧٤)، إقامة سلطة وطنية فلسطينية، في أي أرض تخليها إسرائيل من الأراضي الفلسطينية المحتلة، مع ضرورة إقامة دولة فلسطينية،في حدود العام ١٩٦٧؛ وهدفت المنظمة من هذا القرار تقويض دولة «إسرائيل"(١٣).

من الواضح، عند البحث عن نشأة منظمة التحرير الفلسطينية، في دوائر البحث الصهيونية، تكرار جملة « تقويض أركان دولة إسرائيل «، فقد تكررت هذه المقولة كثيرًا، ليتأكد من هذا التكرار أن الكيان الصهيوني هش، من الممكن أن ترتعش فرائصه، كلما ذكرنا مقولة « تحرير الأراضي الفلسطينية "!

لذلك رأى الكتاب الصهيوني « سنوات من الرعب والأمل «، أن العاهل الأردني السابق، الملك حسين الثاني، في سبتمبر/أيلول ١٩٧٠، حرر أراضيه من منظمة التحرير الفلسطينية، بسبب الحرب الأهلية، سواء قادة المنظمة، أو المواطنين الفلسطينيين، ولكن الصحيح في الأمر هو طرد المنظمة، وأعضائها، وليس تحرير الأردن منهم»؛ في إشارة واضحة إلى الاختلاف في المعنى، وهؤلاء جميعهم قد تم انتقالهم من الأردن إلى لبنان. وفي يونيو/حزيران ١٩٨٢، وقع الاجتياح الصهيوني الشهير للبنان، ومن خلاله احتل الجيش الصهيوني الجنوب اللبناني، ولبعض الوقت العاصمة بيروت، ما أجبر قادة المنظمة على الانتقال من بيروت إلى تونس(١٤).

" في صيف ١٩٨٣، أدار عرفات مفاوضات مع الملك حسين، بشأن إقامة كونفدرالية بين الدولة الفلسطينية القديمة، والأردن، فضلاً عن انضمام المنظمة لمفاوضات عامة، وشاملة،بين العرب وإسرائيل. وهو ما قوبل باعتراضات جمَّة، من أعضاء المنظمة، وكان أحد الأسباب الأساسية لثورة

فتح، في العام نفسه (المقصود فتح الانتفاضة) "(١٥).

"في الدورة ال١٩ للمجلس الوطني الفلسطيني، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨، بالجزائر، اعترفت المنظمة بقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨، وهما القراران اللذان يعنيان الاعتراف بدولة إسرائيل، وأمنها القومي؛ وذلك كشرط أميركي للدخول في مفاوضات مع المنظمة، التي بدأت بوساطة السفير الأميركي بتونس، آنذاك، ولم يستمر الحوار طويلاً، ولم تخرج عنه نتائج مرجوة؛ وتبين أنه، في صيف العام ١٩٩٠، أوقفت الحكومة الأميركية هذا الحوار، بعد أن اتضح لها أنه ليس باستطاعة عرفات تحويل هذا الإعلان إلى أرض الواقع؛ وفي آب/أغسطس ١٩٩٠، أيدت المنظمة العراق في غزوها للكويت، وهي الخطوة التي أضعفت التأييد، الدولي والعربي، للمنظمة، وبعد حرب العراق الثانية، في فبراير/شباط ١٩٩١، حاولت المنظمة استعادة هيبتها، مرة ثانية، دون جدوى " (١٦).

" عد توقيع (اتفاق أوسلو)، في العام ١٩٩٣، اعترفت إسرائيل بالمنظمة، كممثل شرعي للفلسطينيين، وسمحت إسرائيل لها بالعودة الى قطاع غزة، وبعدها استمرت المنظمة في الانتشار في الشارع الفلسطيني، وتولت مقاليد أمور الشعب الفلسطيني ".

توقف الحديث عن « منظمة التحرير الفلسطينية «،عند توقيع اتفاق أوسلو، وكأن دوائر البحث الصهيونية، قد تعمدت هذا الأمر، في إشارة واضحة الى تضاؤل دور المنظمة في الشارع الفلسطيني، مقارنة بفترات سابقة، وحتى توقيع الاتفاق، على الضد من الحركات، والفصائل الفلسطينية الأخرى، التي تتخذ من العمليات الاستشهادية والفدائية منهاجًا، وأسلوبًا، مثل « الجهاد الاسلامي «، و» حركة المقاومة الإسلامية (حماس)".

من هنا، يبدو أن فلسطين كانت تتعطش لوجود كيان فلسطيني واحد، يجمع من حوله كافة الفصائل، والحركات،والمنظمات الفلسطينية، التي اتخذت من العمل الفدائي، ومقاومة الكيان الصهيوني، منهاجًا، وأسلوبًا؛ وحينما ظهرت « منظمة التحرير الفلسطينية «، حصلت على تأييد واسع النطاق من الفلسطينيين، ككل، حيث نجحت المنظمة في تحرير الإرادة السياسية الفلسطينية من قبضة الحكومات العربية، إلى حد ما،واستطاعت المنظمة إبراز القضية والهوية الفلسطينيتين، كقضية تحرير وطني، على مستوى العالم، بعد أن كان يجهلها الكثيرون، وربما بات، من وقتها،للفلسطينيين هوية واحدة، تجمعهم.

رأى الكيان الصهيوني في خروج «منظمة التحرير الفلسطينية» خطرًا محدقًا بالأمن القومي لـ « إسرائيل «، خاصة مع تبني المنظمة للمبادىء القومية، والنهج الناصري، كما أحبطت تل أبيب كل محاولة لظهور كيان فلسطيني، أو لتكوين حزب عربي مستقل عن الأحزاب « الإسرائيلية "!

الهوامش:

(١) منظمة التحرير الفلسطينية، موسوعة صحيفة يديعوت أحرونوت، تل أبيب، ٢٠١٤/٧/٢٣.

(٢) حرب الستة أيام، يالون، تل أبيب، ٢٠١٤/٧/٢٣.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) دكتور أفيالي طبيبيان، سنوات من الرعب والأمل، المركز التعليمي التكنولوجي، تل أبيب، ٢٠١١.

(٥) عبد القادر ياسين وآخرون، أربعون عاماً من حياة منظمة التحرير الفلسطينية، ط١، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات ـ ملف، سلسلة كتاب ملف، العدد الأول، دمشق ـ بيروت، ٢٠٠٦(أنظر: رضوى عبد القادر: زلزال في إسرائيل، ص ١٨٣- ٢٠١).

(٦) المرجع نفسه.

(٧) المرجع نفسه.

(٨) منذر عنبتاوي وآخرون، الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية للعام ١٩٦٥، ج٢، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٦، ص٤١٢.

(٩) طبيبيان، مرجع سبق ذكره.

(١٠) مفهوم السياسة والأيديولوجيا الكامنة وراء شبكات علاقة فلسطينية ـ أوربية مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.. إيطاليا أنموذجًا، الإرهاب إنفو، ٢٠١٣/٢/٢٧.

(١١) منظمة التحرير الفلسطينية، موسوعة صحيفة يديعوت أحرونوت، مرجع سبق ذكره.

(١٢) المرجع نفسه.

(١٣) طبيبيان، مرجع سبق ذكره.

(١٤) يعقوب شمعوني، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، القاموس السياسي للعالم العربي، فريش، تل أبيب، ٢٠٠٦/٢/٢٥.

(١٥) المرجع نفسه.

(١٦) طبيبيان، مرجع سبق ذكره.

الاتحاد العام لطلبة فلسطين درع منظمة التحرير الفلسطينية «فرع الجزائر نموذجاً»

أ.حسام أبو النصر

قبل انطلاق الثورة الفلسطينية، تأسس الاتحاد العام لطلبة فلسطين، المنبثق عن رابطة طلاب فلسطين، التي شارك في تأسيسها، كل من سليمان أبو ستة (رئيس الرابطة)، وفتحي البلعاوي (سكرتير الرابطة)، وسليم الزعنون، عبد المحسن أبو ميزر، وصلاح خلف وآخرون، وصولاً لياسر عرفات الذي ترأس الرابطة منتصف الخمسينات من القرن الماضي، حتى تأسس الاتحاد العام لطلبة فلسطين، وترأس أول هيئة تنفيذية فيه زهير الخطيب عام ١٩٥٩م، وكانت القاهرة مقراً ومولداً لهذا الصرح العظيم، والذي أصبح فيما بعد أحد أُذرع منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٤م، وبعد انطلاق الثورة الفلسطينية في الفاتح من يناير عام ١٩٦٥م، ساهم جزء كبير من أعضائه في وضع اللبنة الأولى لانطلاقة الثورة، ومن أبرزهم ياسر عرفات، والذي كان مدركاً أن كوادر الاتحاد هم الشعلة التي يرتكز عليها العمل الوطني، والتنظيمي، والفكري، بل ان أغلب من ساهم في تأسيس الحركة الوطنية فيما بعد كانوا أعضاء في الاتحاد، ولأن تجربة اتحاد الطلبة طويلة وكبيرة ارتأيت أن أتناول أحد أهم تجاربها ومسيرتها التي كانت الجزائر مسرحاً لها، ليكون هذا المقال فاتحة لعدد من المقالات التي تتناول التجارب الأخرى للاتحاد في عواصم أخرى لما تركه من أثر كبير في القضية الفلسطينية، وفي الساحة العربية خاصة والدولية عامة، ونستطيع القول، أنه حين أوعزت قيادة الثورة بفتح أول مكتب لتمثيلها في الجزائر وأشرف على ذلك الشهيد خليل الوزير (أبو جهاد)، لما تمثله الساحة الجزائرية من أهمية ودعمها اللامتناهي للقضية الفلسطينية، خاصة أنها كانت خارجة للتو من معركة استمرت ١٣٢ عاماً من الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي، ومنذ ذلك الحين

تعتبر الجزائر أن استقلالها منقوص مالم تتحرر فلسطين، وكانت أول بلد عربي يفتح أبوابه للقيادة الفلسطينية، وشكلت ظهيراً مهماً وداعماً رئيسياً، ولأنني أنحاز لكتابة التاريخ الاجتماعي كان لابد من تسليط الضوء على تجربة الاتحاد في الجزائر وجنودها المجهولين لسنوات طويلة، حيث لم يُذكروا سابقاً، رغم أنهم كرسوا حياتهم لهذا العطاء وكانوا دافع استمرارية، وسيرورة الاتحاد، للحفاظ على الشعلة متقدة، لكي لا تنطفىء، لتسلم جيلاً بعد جيل، إيماناً بالثورة والحرية، وقد كانت الجزائر وفية وسهلت ذلك في كافة المجالات وهذا ما سنراه لاحقاً.

وحقيقة كانت رحلتي شاقة في البحث عن المؤسسين لفرع الجزائر خاصة في خضم ذكرنا الدائم لمؤسسي الاتحاد ككل، وقد تم تناول ذلك في عدد من المذكرات والكتب، والمراجع، لكن حين نتحدث عن الأفرع في الدول العربية والغربية يتطلب ذلك دقة في المعلومات التي كانت موجودة لدى كثيرين ممن رحلوا، لذا توجب علي أن تناول كل تجربة على حدة لأن كل فلسطيني في شتاته أدرى بشعابه، وبالتأكيد لو سألنا عدداً من القيادات الموجودة حالياً مثلاً عن أسماء في أفرع بيروت أو صنعاء أو تونس أو غيرها، لا يتبادر لذهنهم إسم أو إسمين، وقد يكونوا في حقبة زمنية معينة، ولن يستطيع بالمطلق أحدهم أن يستذكر كل التجربة، لذلك كان يجب عليَ هنا أن أتناول كل تجربة بشكل منفصل، وأن أستعين بالذاكرة الشفوية لمن عاشوا في الجزائر بحقب متلاحقة ومتتالية وصولاً إلى جيلي على الأقل، وقد حاولت الاجتهاد قدر الإمكان الوصول إلى كل الأسماء، وأعتذر مسبقاً إن سقط أي اسم سهواً ويمكن تداركه في مقالات أخرى، ولكن كان المهم أن نبدأ بتسجيل التجربة لنفتح هذا الباب نحو تأريخ كل الحالة الفلسطينية لتشمل كل أفرع الاتحاد، بل وتشمل باقي الاتحادات التي شكلت رافداً من روافد المنظمة، ورافعة لديمومة الثورة منها: الاتحاد العام للمرأة، والاتحاد العام للكتاب والصحافيين، اللذان انفصلا عن بعضهما فيما بعد كل في اتحاد، وانبثقت اتحادات ونقابات أخرى شملت المهندسين، والمحامين، والحقوقيين، والمعلمين، والفنانين ... الخ.

وسأحاول في هذا المقال ذكر رؤساء الفرع والهيئات الادارية المتعاقبة لاتحاد الطلبة، وما تيسر لدي من معلومات عن رؤساء الوحدات خاصة الفاعلين منهم على أن يكون ذكرهم في إطار المثال لا الحصر، لأن مرحلة الجزائر كانت طويلة وحافلة بالعطاء، وأعداد الفاعلين فيها كبيرة.

*مرحلة تأسيس الفرع في ستينات وسبعينات القرن الماضي:

بعد افتتاح مقرات حركة فتح ثم منظمة التحرير في الجزائر، كان الأخ أحمد وافي (أبو خليل)، أول ممثل لحركة فتح، بعد الأخ أبو جهاد، ولاحقاً ممثلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية حتى العام

١٩٧٦م، ولعب دوراً واضحاً ولا يمكن تجاوزه لجهوده الكبيرة، وكان له الدور الفاعل في الإشراف على تأسيس فروع الاتحادات في العاصمة الجزائرية وكان الاتحاد العام لطلبة فلسطين أولها، فأسس مكتب الاتحاد وأشرف على انتخاباته، وقد تكونت مرحلة تأسيس الاتحاد من البعثة الأولى التي وصلت الجزائر عام ١٩٦٣م، وضمت ٥٠ طالباً، منهم القادة الشهداء (محمود الهمشري، وعز الدين قلق)، وسلمان الهرفي اطال الله عمره.

في الفترة اللاحقة، أو الثانية، نذكر منها: هاشم حجي، غسان مكاوي، زياد الصوراني، جمال طه، محمد ابراهيم الشبعان(ترأس الفرع في وقت مبكر)، سعيد الشدفان، صالح صالح، نبيل محمد فارس، حلمي عاشور، مفيد دواس، وآخرين.

ممن شكلوا هيئاته الادارية الأولى، عبد الشكور الفرا الذي كان سكرتير الفرع وذلك أواخر ستينات القرن الماضي، وتحديداً بعد عام ١٩٦٧م، وأوجه في عام ١٩٦٩م وكان في الهيئة الإدارية عايش حرب، علي أبو مهادي، أحمد المغاري، سامي أبو مهادي، وكمال اسماعيل وحسن ساري، وصبري شعث، وخالد الشوبكي، ونستطيع القول أن هؤلاء ترددت أسماؤهم كلبنة أولى في تأسيس فرع الجزائر آنذاك.

في المرحلة التي أسسوا فيها فرع الجزائر كانت فلسطين خارجة للتو من نكسة ١٩٦٧م، حاول هؤلاء الشباب استجماع قواهم، رغم الحالة السلبية التي سادت المنطقة العربية بأكملها آنذاك، فيما التحقت مجموعة من الطلاب والفلسطينيين بالساحة الجزائرية بعد أيلول الأسود، في أوائل السبعينات، وشكلت أحداثها انتكاسة أخرى على صعيد الثورة الفلسطينية، حيث كان من الضرورة إيجاد قواعد عربية بديلة.

في المرحلة اللاحقة في منتصف السبعينات، ترأس الاتحاد من عام ١٩٧٥ حتى ١٩٨١م، (حاتم رشيد)، وكان معه في عضوية الهيئة الإدارية كل من: الأخ يحيى العطاري، نايف جراد، يوسف علقم، محمود علي، هشام أبو الهيجا، وآخرون، وكان يوسف خليل رئيساً لوحدة وهران ومعه الأخ إبراهيم الناطور وأسماء أخرى، وفي آخر فترة رئاسة الأخ حاتم للاتحاد، ترأس الأخ عبد القادر فارس وحدة عنابة عامي ١٩٧٨ – ١٩٧٩م، وكان معه في الوحدة الأخ سامي عنيس، ماجد عثمان، محمد حيدر، فتح الله الريماوي، عبد الباسط إبراهيم (وجميعهم عن حركة فتح) ومحمود العثماني عن الجبهة الشعبية، وآخر عن الجبهة الديمقراطية. وكان ذلك أثناء فترة وجود الأخ فاروق أبو الرب (أبو حسان) سفير فلسطين في الجزائر في تلك الفترة ما بين ١٩٧٦ حتى ١٩٨٣م.

ومنذ تأسس الفرع اتخذ الاتحاد، السفارة الفلسطينية مقراً له والتي تقع في شارع (ميلود بلهوشات)، الذي يتفرع من شارع (فيكتور هيجو) في العاصمة الجزائرية، وهو نفسه الذي أصبح مقراً لباقي الاتحادات فيما بعد، وقد ظهرت أسماء بارزة أخرى في الاتحاد في نفس الفترة منها صالح

عبد الخالق، وحسين أبو العلا، وشاهر عبوني، وقد غادرا لاحقاً بعد خلافات مع أبو خليل، وكان الشهيد بسام الشحرور ناشطاً في اتحاد الطلبة في الجزائر منتصف السبعينات ولكن لم يكن ضمن هيئاتها الادارية، حيث كان يدرس هندسة الطبوغرافيا.

وكانت تصدر عن الاتحاد العام نشرة أو مجلة تسمى (الكرامة) أشرف عليها غازي موسى أحد الأسماء المهمة في تاريخ الاتحاد في فترة السبعينات، فيما كانت حركة فتح هي من يمول المجلة، وهذا كان فاتحة لأن تصدر الأفرع الأخرى في العالم مجلات موازية منها في الولايات المتحدة ولبنان وغيرها فيما بعد، وكانت المجلة توزع على الجاليات الفلسطينية في الشتات بالأعداد المتاحة، أما «الكرامة» فكانت توزع على مقرات منظمة التحرير وإقليم فتح ومكتب ٥٤ في العاصمة، والإعلام الموحد ومقرات الأحزاب الجزائرية، وفي مقدمتها الحزب الحاكم جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وعلى الجامعات والطلبة، وقد ساهمت مثل هذه الإصدارات في زيادة الوعي وشحذ الهمم والإدراك الأكبر بالقضية الفلسطينية إلى جانب الكثير من إصدارات الثورة الفلسطينية التي كانت لا تقل أهمية عن مثل هذه الأعمال، ومنها تجربة الإعلام الموحد خاصة.

*فرع الجزائر فترة الثمانينات:

نشرت مجلة فلسطين الثورة العديد من اللقاءات والتقارير حول عمل الاتحاد العام لطلبة فلسطين ومنها فرع الجزائر وكافة المؤتمرات التي عقدت هناك في أعدادها فترة الثمانينات. وفي العام ١٩٨١ فاز الأخ عيسى حجو برئاسة الاتحاد، وكان معه في الهيئة الإدارية للفرع من وحدة العاصمة كل من: إبراهيم أبو شرار، وموسى الشيخ، وعباس عبيد، وعوني صقر، وسامي عنيس عن (وحدة عنابة)، وهشام أبو عكر عن (وحدة قسنطينة)، وأحمد فسفوس عن (وحدة وهران)(وجميعهم من فتح)، وممثل عن الديمقراطية محمد سالم، وممثل آخر عن الجبهة الشعبية.

في مارس ١٩٨٤م انعقد المؤتمر العام التاسع للاتحاد في قاعة (الموقار) بالجزائر العاصمة، وقد انتخب فيه عيسى حجو عضواً في المجلس المركزي(الاداري)، وانتقل بعدها للعمل في تونس، وفي شهر نوفمبر ١٩٨٤م، جرت انتخابات الفرع، وتقدمت لانتخابات الاتحاد لائحتان، لائحة برئاسة الأخ حاتم رشيد، ولائحة برئاسة الأخ إبراهيم أبو حليوة، وفازت قائمة أبو حليوة، وكان من بين أعضائها: عبد القادر فارس، راتب الحمدني، ومحمد سالم طميزة، وحسن اصليح، من وحدة العاصمة، وباسم الهباش من وحدة وهران، وعبد الله الحروب من وحدة باتنة، وعبد الباسط إبراهيم من وحدة عنابة (عن حركة فتح)، وعصام أبو دقة عن الجبهة الديمقراطية، وشاكر الهنداوي ممثلاً عن الديمقراطية أيضاً.

في العام ١٩٨٧م، عقدت انتخابات جديدة لمؤتمر الفرع، وقد فاز برئاستها الأخ (حمدي الريفي) ومعه في الهيئة الإدارية: عبد القادر فارس (أمين السر)، والأخ إياد أبو الرب (نائب الرئيس)، أسامة وافي، سعيد الطهراوي، عصام أبو دقة، وعمار التكروري، وطلال عبود، وضمت ممثلين عن وحدات عنابة، وقسنطينة، وباتنة، وسطيف في الشرق الجزائري ووهران، وتلمسان، ومستغانم، وسيدي بلعباس عن الغرب الجزائري.

في هذه الفترة كانت وحدة وهران من أكبر الوحدات من حيث عدد الطلاب، والنشاطات، وكان يرأس الوحدة الأخ باسم الهباش، ومن الأعضاء المرحوم مروان عابد، الذي ترأس الوحدة فيما بعد، والأخ نبيل مقداد، والأخ محمد البلبيسي، الذي ترأس الوحدة أيضاً لفترة قصيرة، وكان كل من باسم الهباش، ومروان عابد، أعضاء هيئة إدارية لفترات في نهاية الثمانينات.

وفي بداية العام ١٩٨٩م، جرت انتخابات لأعضاء المؤتمر العام العاشر، وقد حضر الأخ ماجد الكفارنة (عضو الهيئة التنفيذية للاتحاد) قادماً من تونس للإشراف على الانتخابات الفرع والوحدات، ورافقه الأخ عبد القادر فارس، إلى وحدتي عنابة ومستغانم، ثم أكمل (فارس) لوحدتي تلمسان وسيدي بلعباس، وأسفرت الانتخابات عن فوز كل من: حمدي الريفي، سامي عيسى، عبد القادر فارس، لعضوية المؤتمر العاشر في بغداد أوائل مايو ١٩٨٩م, وانتخب حمدي الريفي عضواً في الهيئة التنفيذية وهي الجهة العليا في الاتحاد، وكان في فترته ابراهيم صبيحات رئيساً للهيئة التنفيذية، ومعه ابراهيم خريشة، جمال البرغوثي (رحمه الله) والأخ عيسى حجو بعضوية المجلس المركزي (الاداري) للاتحاد، عن فرع الجزائر، وقد كان كايد الغول أيضاً عضو هيئة تنفيذية في احدى الفترات، ويذكر أن هذه الحقبة - الثمانينات- وما بعد ذلك كان السفير الفلسطيني فيها منذر الدجاني (أبو العز)، وحقيقة أقول أنها كانت الفترة الذهبية للجالية الفلسطينية واستقرار الأوضاع والعلاقات الجزائرية الفلسطينية، وتعزيز التعاون، فيما خفت الخلافات البينية، حيث كان له دور كبير كشخصية وطنية جامعة، لها كلمتها، في الساحة، بهدوئه ورصانته وحكمته، ووطنيته، وكان يتوجب ذكره في هذه المرحلة بإعتباره أهم شخصية فيها ورسمت ملامحها.

*فرع الجزائر في تسعينات القرن الماضي:

غادر الريفي إلى تونس، وقدمت الهيئة الإدارية استقالتها، وجرت انتخابات نهاية العام ١٩٨٩م، وفاز برئاسة الفرع فيها(طلال عبود)، وكان معه في الهيئة الإدارية عبد السلام الحلو نائباً لرئيس الفرع، وناصر أبو بكر(أصبح نقيب الصحافيين الفلسطينيين فيما بعد)، أمين الاخرس، محمد

عبد الفتاح، سهيل كشكو، وحسن أبو الموت وغيرهم. واستمرت الهيئة في العمل حتى منتصف التسعينات تقريباً. بعدها ترأس الفرع من عام ١٩٩٥ حتى عام ١٩٩٧م (نزار الأخرس) ومعه مها صلاح (التي نشطت في لقاءات طلابية على مستوى افريقيا)، وعاصف تميم، ومحمد الفرا، واخت من عائلة المشهراوي، والحجار وسحر محمد وغيرهم، بعدها حدثت انتخابات الفرع وترأسه من عام ١٩٩٧م، حتى ١٩٩٨م، رمزي الهندي (والذي توفي لاحقاً إثر اختناقه بالغاز وشكل رحيله فاجعة أليمة لما تركه من أثر طيب)، وكان معه في الهيئة الإدارية حازم الاسطل، محمد حرز الله، يوسف الاخرس، هيثم وافي، سهام أبو سعدة، عدلي أبو طه، (استشهد خلال استهدافه في رفح من طائرة احتلال)، سليم العمور وكان رئيس وحدة قسنطينة، محمد الفرا (والذي توفي فور عودته للوطن إثر حدث أليم)، ورائد أبو دقة عن الديمقراطية، وموسى عاشور. بعد رحيل الهندي استلم مهام رئيس الفرع من جديد نزار الأخرس، ورئيساً للجنة التحضيرية لانتخابات الهيئة الإدارية، ومعه في الهيئة الإدارية جهاد الغرام، محمود أبو عنزة، خليل أبو خليل، وذلك من عام ١٩٩٨م حتى ١٩٩٩م وكانت هناك أسماء نشيطة في فترته منهم: مضيوف شعث، فدوى العجرمي، أسامة عبد العال، وجمال صافي، وغيرهم، فيما الراحل مروان عابد، كان رئيساً لوحدة وهران، وكان له دور كبير في النهوض بالاتحاد وأعتقد أنه ترأس الفرع لفترة.

وهناك أسماء فاعلة في الاتحاد لم تكن بالضرورة في الهيئة الإدارية للفرع، لكن منهم من كان رئيس وحدة أو مكلف بمهام أذكرهم من باب الذكر لا الحصر: سامي عبد العال (استشهد في رفح بعد عودته لأرض الوطن خلال الانتفاضة الثانية)، عصام شعث، راتب شعث، أكرم أبو دلال، عز الدين عبد العال (كلهم وحدة العاصمة)، محمد رشوان، عزام فروانة وكان له دور فاعل، رامي أبو دقة عضو هيئة إدارية (وحدة باتنة ثم العاصمة) ومعتصم شحادة وهشام أبو النصر(وحدة عنابة) ولبنى أبو دقة،ومحمد صويلح عضو الهيئة الادارية عن (وحدة قسنطينة) الذي كان له الدور في تفعيل المكتب الطلابي لحركة فتح، مما أدى لإعادة تفعيل نشاط الاتحاد، وجمع الشباب من جديد وجاب أغلب ولايات الجزائر خدمة للطلبة الفلسطينيين، وكان آخرون معه، وهي الفترة التي تواجدت فيها في الجزائر منذ عام ١٩٩٧م، حين كنت أدرس الأدب العربي واللغة الفرنسية في جامعة عباس فرحات في سطيف وكلفت فترتها بوحدة سطيف، ثم مسؤولاً للاعلام والثقافة لفرع الجزائر ولم أشغل عضوية أي هيئة إدارية، لكن بحكم مهامي كنت متواجداً بشكل دائم في وحدة العاصمة وكلفت بعدة مهام في ولايات جزائرية منها عنابة، سطيف، باتنة، وهران، البليدة وغيرها، وهذا سمح لي التعرف على الوحدات بشكل واسع، والتعرف على كل هؤلاء الرفاق، وكان ذلك تحديداً في فترة نزار الأخرس.

وفي أواخر عام ١٩٩٩م بداية ٢٠٠٠م زار وفد اللجنة التنفيذية للاتحاد الجزائر، وضم محمود

الهبيل، وجمال أبو نحل، وأجريت انتخابات ممثلي فرع الجزائر في المؤتمر العام وتم انتخاب نزار الاخرس ومحمد صويلح، ورامي أبو دقة، وقد ترأس الفرع من عام١٩٩٩م، حتى ٢٠٠٠م، محمد أبوجامع، وقد قاد المرحلة الانتقالية واللجنة التحضيرية، وكنت قد غادرت الجزائر في تلك الفترة.

***فرع الجزائر بعد عام ٢٠٠٠:**

ترأس الفرع (خليل أبو خليل) من عام ٢٠٠٠ حتى ٢٠٠٢م، وفي تلك الفترة حدثت خلافات وعلى إثرها تم إتخاذ مقر الاتحاد مقراً للأمن الخارجي، والذي كان في الطابق الأرضي للسفارة، فيما أصبح مقر الاتحاد في مدخل السفارة الرئيسي.

ومن عام٢٠٠٢م حتى ٢٠٠٤م، ترأس الفرع (محمود أبوعنزة) ومعه كل من أسعد قادري، هالة أبو بكر، ومحمود العايدي نائب الرئيس، وأنس عمران أمين السر(الذي رحل غرقاً في بحر الجزائر)، وأنس عطاطرة، من وحدة العاصمة، وغيرهم، فيما كان وسام أبو زيد (رئيس وحدة العاصمة) وآخرون في الوحدة منهم يوسف فياض وعطا الشيخ، وشادي أبو دقة، عمر أبو رجيلة، عمار أبو طه.

بعدها ترأس الفرع جهاد الغرام من عام٢٠٠٤م حتى٢٠١١م، وكانت هيئته الإدارية مكونة من: محمود العايدي، وسام أبو زيد (نائب الرئيس)، محمد الحمامي (جبهة ديمقراطية)، كرم الزويدي (جبهة شعبية)، هلا أبوبكر (جبهة التحرير)، أسعد قادري (فتح)، حسام خلف الله مكلف بالشرق الجزائري، شادي عاشور مكلف بالغرب الجزائري، علماً بأن الهيئة تغيرت خلال الفترة المذكورة، وجاء حكيم أبو كرش هيئة إدارية عن وحدة العاصمة والبليدة، ومحمود الهور عن وحدة العاصمة، هلا أبو بكر، كرم الزويدي عن الجبهة الشعبية، وبقي محمود العايدي.

***مؤتمرات الاتحاد:**

بعد ذلك عانى الاتحاد في السنوات الأخيرة من الإهمال الكبير، وتراجع حضوره على مستوى الساحة الجزائرية كغيره من الاتحادات، وهذا راجع إلى غياب متابعة الهيئة التنفيذية لأمورهم، حيث أن آخر انتخابات حدثت عام ١٩٩٠م في المؤتمر العاشر ببغداد، ومن حينها كانت هناك محاولات كثيرة لإجراء انتخابات على مستوى المؤتمر العام لكن دون نتيجة، ولغياب القرار السياسي الذي عطل اجتماع المؤتمر العام، ورغم ان هناك عدد من الاجتماعات عقدت في غزة بعد العام ١٩٩٤م، بعد العودة للوطن وقيام السلطة الوطنية، لكن بقيت في إطار المشاورات ولم ترقَ لمستوى إحداث انتخابات عامة للمؤتمر، فيما كانت آخر هيئة تنفيذية داخل الوطن، ضمت كل من: إبراهيم

خريشة (رئيساً)، ناصر أبو عزيز نائب رئيس الاتحاد (الجبهة الشعبية)، جمال أبو نحل (فدا)، صلاح عبد العاطي (مسؤول جبهة العمل الطلابي)، هيثم الحلبي، رائد ابو السعود، وهاشم قاسم (رحمه الله)، فهمي الزعارير (أمين سر المجلس الوطني وعضو المجلس الثوري حالياً)، عبد الحكيم عوض، نبيل الكتري، شفيق التلولي وغازي لطفي، ومحمود الهبيل (وأغلبهم عن فتح والشبيبة الطلابية) وغيرهم، وقد انتخبوا في آخر اجتماع مجلس اداري انعقد عام ١٩٩٦ في فندق البيتش بغزة، حيث لم ينعقد المؤتمر العام بعد عام ١٩٩٠م.

عادة جرى التقليد أن يحضر بعض أعضاء الهيئة التنفيذية للاتحاد انتخابات الفرع في الجزائر لذلك كانوا يأتون خصيصاً من الدول المقيمين فيها للاشراف على الانتخابات وقد كان من ضمن من يتردد على العاصمة الجزائرية لؤي عيسى، ونظمي الحزوري، فريز مهداوي، إبراهيم صبيحات الذي ترأس الهيئة التنفيذية لفترة، وابراهيم خريشة عضو الهيئة التنفيذية والذي أصبح رئيساً للهيئة التنفيذية فيما بعد. ومن بين عشرة مؤتمرات منذ تأسيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين ثلاثة منها عقدت في الجزائر أي نصيب الأسد، لتسجل أعلى رقم مؤتمرات في تاريخ الاتحاد حيث أن القاهرة مقر التأسيس عقد فيها فقط مؤتمران، وأعتقد أن ذلك يعود لعدة أسباب منها:

١ ـ أن الساحة الجزائرية كانت آمنة للعمل الوطني الفلسطيني.

٢ـ تسهيل الجزائر مهمة عقد المؤتمرات الدورية في وقت كانت دول أخرى تتحسس سياسياً، أمنياً، وادارياً من ذلك، أو تمانع أو تعيقها الاجراءات البيروقراطية.

٣ ـ قرب الجزائر من مركز قرار منظمة التحرير في تونس، ودعم القيادة الجزائرية للثورة الفلسطينية، لذلك اعتبرت الجزائر أهم ساحة لهذا النشاط.

وقد جاء ترتيب المؤتمرات على النحو التالي :

١ـ المؤتمر الوطني الأول	القاهرة	١٩٥٩/١١/٢٩
٢ـ المؤتمر الوطني الثاني	غزة	١٩٦٢/١٠/٢٨
٣ـ المؤتمر الوطني الثالث	غزة	١٩٦٣
٤ـ المؤتمر الوطني الرابع	القاهرة	١٩٦٥/١٢/٦
٥ـ المؤتمر الوطني الخامس	عمان	١٩٦٩/٧/٣١
٦ـ المؤتمر الوطني السادس	الجزائر	١٩٧١/٨/١٥
٧ـ المؤتمر الوطني السابع	الجزائر	١٩٧٤/٨/١٦
٨ـ المؤتمر الوطني الثامن	بيروت	١٨-١٩٧٨/١٢/٢٦
٩ـ المؤتمر الوطني التاسع	الجزائر	١٢-١٩٨٤/٢/١٧
١٠ـ المؤتمر الوطني العاشر	بغداد	٣-١٩٩٠/٥/٨

وقد حضر المؤتمرين السادس والسابع في الجزائر، ممثلو الفروع العديدة في الوطن العربي وفي العالم. وقد تم فيهما انتخاب المجلس الإداري من ٢٧ عضوًا وكان هذا المجلس ينتخب الهيئة التنفيذية الجديدة في كل مرة.

وقد جاء انعقاد المؤتمر السادس بعد أحداث أيلول ١٩٧٠م، وأحداث جرش وعجلون في الأردن ١٩٧١م، وافتتح بحضور ممثل الرئيس الجزائري هواري بو مدين، والأخ صلاح خلف (أبو إياد)، وذلك في الجزائر العاصمة، مما أعطى ثقلاً كبيراً لأعمال المؤتمر وما يمثله من أهمية، واهتمام القيادة الجزائرية بالاتحاد وكذلك ما أولته القيادة الفلسطينية من اهتمام وتعويل كبير على مخرجات المؤتمر، لأن الهدف ليس فقط هو انتخاب هيئة تنفيذية أو أفرع ووحدات بقدر ما توجه أعمال المؤتمر من رسائل للعالم حول القضية الفلسطينية وتطورها في كل مرة ينعقد فيها، وقد عقد المؤتمر السابع بعد أقل من عام على حرب تشرين أكتوبر ١٩٧٣م، في ظل الصراعات السياسية الحادة حول فهم حرب تشرين، وقرار الأمم المتحدة ٣٣٨، ومؤتمر جنيف ومواقف الأنظمة العربية، وتشكل جبهة الرفض الفلسطينية وفي ظل هذه الظروف خاضت (فتح) الانتخابات بقائمتين تحالفت إحداها مع الجبهة الشعبية، وانتخب المجلس الإداري صخر بسيسو رئيساً للاتحاد.

وكانت القيادة الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات تحرص كل الحرص على لقاء ممثلي الاتحاد والفرع والهيئات الإدارية عند زيارته للجزائر سواء في لقاءاته الرسمية أو العامة، ويولي أهمية كبيرة لذلك، وكذلك الأخ خليل الوزير (أبو جهاد) والأخ صلاح خلف (أبو اياد)، خاصة أن الاتحاد كان منبعاً ومصدراً ومصنعاً للكوادر التي تأهلت بعد ذلك لتسلم مناصب أو مهمات أو مراكز وتكليفات سياسية ووطنية وعسكرية.

وفي ١٩٨٨/١١/١٥م كان إعلان الاستقلال في الجزائر من قبل الرئيس ياسر عرفات، بحضور فعاليات المجلس الوطني وممثليها وأحزابها واتحاداتها وسفراء وشخصيات جزائرية وعربية وكان حدثاً كبيراً، وقد شارك رئيس فرع الاتحاد والهيئة الادارية وبعض رؤساء الوحدات في اجتماع المجلس، وساهموا في عمليات التحضير للمؤتمر، لما يشكله اتحاد الطلبة كرافد من روافد المنظمة، حيث كان فرع الاتحاد في الجزائر يضم عدة وحدات شكلت وحدة العاصمة مقراً لها، ومن أهم وحداتها الثلاث المدن الرئيسية: وهران، قسنطينة، عنابة، فيما تشكلت بعد ذلك وحدات في ولايات أخرى بعد ان زاد عدد الطلبة الفلسطينيين فيها، في فترة كانت الجزائر تفتح باب المنح البكالوريوس للفلسطينيين، في كافة التخصصات وأذكر من الوحدات التي تشكلت، وحدة باتنة وسطيف ومعسكر، بجاية وجيجل وتيزي وزو، بسكرة، مستغانم، تلمسان، سيدي بلعباس، المسيلة ، البليدة، تبسة، ورقلة وغيرها.

***نشاطات فرع الجزائر:**

أما عن النشاطات التي كانت تقام في الجزائر، فقد تنوعت من اقامة المهرجانات والمعارض الفلسطينية، والمسرحيات كانت تجوب مختلف الولايات الجزائرية التي بلغت ٤٨ ولاية، ونحن نتحدث عن دولة مساحتها ٢ مليون كلم٢ أكبر ثاني دولة في العالم العربي، لذلك كل ولاية مثلت لوحدها حالة بالحضور الفلسطيني، وكان مقر السفارة مكاناً لعمليات التدريب والتحضير لأي فعالية، وبالتحديد في البدروم الطابق السفلي تحت الأرض، والذي كان يعج بالملصقات والاعلام، والمجلات والوثائق، وكان يستعمل كمكان للتحضير وبروفات الدبكة أو المسرحيات، وكنت أذكر أن في كل شتاء يغرق البدروم وتصبح ظروف العمل فيه صعبة للغاية لدرجة كنا نضع طاولات لنمشي عليها لتفادي ارتفاع منسوب المياه، حيث كان مبنى السفارة مبني على الطراز الفرنسي القديم.

وكان الطلبة في حالة تجدد على مدار ٤٠ سنة تقريباً، وغالباً ما يحدث تنسيق بين اتحاد طلبة فلسطين والاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين، والاتحاد الوطني للشبيبة الجزائرية، الذي له ثقل وحضور في كل ولاية وجامعة، وكانت تتم جميع النشاطات بالتنسيق معهم، ولم يتأخروا يوماً في ذلك ويذللون كل العقبات.

إضافة إلى مساهمة الاتحاد بشكل كبير في المعسكرات التي كانت تقام في المدن والعواصم العربية منها الجزائر، تونس، ليبيا، واليمن، وكان حضوراً واضحاً وشاركوا في عمليات التدريب للاشبال والزهرات، أما الدور الأهم والأكبر أنهم شاركوا في حرب لبنان كمتطوعين، للقتال ومنهم من استشهد ومنهم من عاد وجزء منهم التحق بالكتيبة الطلابية. وكان للاتحاد مهمة استقبال الطلبة الوافدين من الأرض المحتلة وتأمينهم من حيث إجراءات التسجيل واعتماد الأوراق وتقديم الإقامة للطلبة والمتابعة مع إدارات الجامعات التي تتوزع على ولايات الجزائر وكان رئيس الفرع وهيئته يستقبلون الطلبة في المطار، واستضافتهم ثم توكل مسؤولية رئيس الوحدة للولاية التي تم قبول الطالب فيها للمتابعة معها في الشؤون البيداغوجية، وكان هناك مسؤول من السفارة (محمود سليم) عن ملف التعليم والمتابعة لكافة الاجراءات اللازمة مع وزارة التعليم العالي الجزائري ، وكان هناك عدد من الطلبة تواجههم صعوبات إما في تخصص القبول غير مطابق لما يريده الطالب أو أن القبول جاء في ولاية بعيدة أو نائية لا يستطيع الطالب العيش والتأقلم فيها، فيتدخل الاتحاد مع البيداغوجية لحل المشكلة، أما على الصعيد السياسي استقبل اتحاد الطلبة سواء في مقره أو في معارضه وفعالياته مختلف الشخصيات الوطنية الجزائرية التي ناصرت وتناصر القضية الفلسطينية، منها رؤساء الأحزاب، ونواب وأعضاء مجلس الشعب الجزائري، ورؤساء الاتحادات والنقابات الجزائرية، ومختلف الفعاليات الشعبية، وكانت هذه الحشود تتقدم أي مسيرة واعتصام

لصالح القضية الفلسطينية، ونسج الاتحاد العام لطلبة فلسطين علاقات قوية مع هذه النخب مما عزز دوره وحضوره الفلسطيني في الجزائر فيما كانت السفارة تعطي هذا الهامش للاتحاد للعب دور أكبر في الجوانب الغير رسمية خاصة، فيما كانت تتكفل السفارة بالأمور والعلاقات الرسمية، وظل الاتحاد العام لطلبة فلسطين يقوم بدوره الريادي خاصة أنها ضمت أكبر عدد من الطلاب تاريخياً، عن باقي الساحات الأخرى والسبب الرئيسي هو أن الجزائر كانت تمنح حصة كبيرة لفلسطين من المنح التعليمية، وهذا ضمن قرارات تاريخية بدعم الفلسطينيين.

وفي عام ١٩٨٩م عرضت مسرحية أطفال الحجارة على ثلاث مسارح رئيسية في الجزائر من اخراج د.محمد أبو غالي (رئيس بلدية جنين سابقاً) واغلب ممثلي المسرحية من الاتحاد العام لطلبة فلسطين، وتناولت اغتيال القائد أبو جهاد، وتوالت العروض المسرحية والاعمال الفنية.

وفي عام ١٩٩٩م أصدرت الهيئة الإدارية فرع الجزائر مجلة بعنوان النبراس، وكان العدد الأول في ذكرى استشهاد أبو جهاد وكان طاقم تحريرها رامي أبو دقة وعدلي أبو طه، وكانت توزع على مستوى دوائر القرار في الجزائر، وأيضاً في عام ٢٠٠٠، عرض الاتحاد مسرحية الشهيد أحمد أبو الريش، وكتب السيناريو صبحي شبير رئيس وحدة باتنة. وعرضت في ابن خلدون والبليدة وغيرها من الأماكن.

وفي عام ٢٠٠١م، أذكر أني حضرت إلى الجزائر لإقامة معرض انتفاضة الأقصى والوثائق الفلسطينية، وكانت من أهم النشاطات التي أقيمت بعد اندلاع الانتفاضة حيث افتتح في قصر الثقافة بحضور محي الدين عميمور وزير الثقافة الجزائري والسفير الفلسطيني منذر الدجاني ومعه ٢٧ سفير دولة، اطلعوا على أهم صور الانتفاضة والوثائق والكتب وفيديوهات وغيرها من الملصقات وقد شارك في المعرض رئيس الفرع خليل أبو خليل ومعه شباب الاتحاد: أكرم أبو دلال، رامي أبو دقة، عز الدين مسمح، سائد السقا، ومحمد فروانة وعامر أبو شباب، وغيرهم، ثم طلب السفير أن يجوب المعرض الولايات الجزائرية وشملت وهران وكان معي في المهمة من اتحاد طلبة فلسطين يوسف فياض، حسام حنيف، شادي أبو دقة، وأقيم المعرض في جامعة وهران بحضور رئيس الجامعة وممثل م.ت.ف، بعدها انتقل المعرض إلى قسنطينة، وهناك استقبلني من طلاب الجزائر أحمد عزات شحادة (توفي لاحقاً بسكتة قلبية ودفن في الجزائر)، وأخوه هاني شحادة، وسعدو خلف الذي ساعدني في إقامة المعرض في قصر قسنطينة الثقافي بحضور شخصيات وطنية جزائرية وممثل م.ت.ف هناك، والجالية الفلسطينية، بعدها المعرض انتقل إلى عنابة وعرض في الجامعة وكان من اتحاد الطلبة معتصم شحادة، وهشام أبو النصر وغيرهم، وكان من اهم المعارض على الساحة الجزائرية واختتمت فعالياته في قاعة ابن خلدون وبحضور لويزا حنون، أمين عام حزب

العمال الجزائري، وبحضور شخصيات جزائرية وعربية.

بعد ذلك بسنوات تراجع دور الاتحاد شيئاً فشيئاً مع غياب الاهتمام، ولم يعد اتحاداً مركزياً محورياً كما كان، بعد ان غابت عنه شخصيات كثيرة كانت فاعلة فيه، ومع غياب العملية الديمقراطية التي اثرت على هيكله وبنائه، وحتى في منظمة التحرير الفلسطينية لم يعد تمثيله قوياً وانعكس كل ذلك سلباً على الأفرع.

ظلت الجزائر مسرحاً للفعاليات والحضور الفلسطيني لسنوات طويلة، لأنها البلد الأكثر دعماً، والشعب الأكثر تفاعلاً، ولأنها تعتبر فلسطين قضيتها وفي زمن التطبيع العربي، ظلت الأكثر تمسكاً بالثوابت والمقاطعة والرفض، لأنها منبع الثورة والثوار ولا تخون مبادئها.

مراجع:

*أسعد عبد الرحمن وآخرون، الموسوعة الفلسطينية ، دمشق،ج ١، القسم العام، ١٩٨٤م.

مقابلات:

*مقابلة مع عبد القادر فارس مقيم في كندا، ٢٠٢٢/٢/٢
*مقابلة مع عيسى عبد الحفيظ مقيم في رام الله، ٢٠٢٢/٢/٢
*مقابلة مع فايز العايدي مقيم في الجزائر، ٢٠٢٢/٢/٢
*مقابلة مع علي شكشك مقيم في الجزائر، ٢٠٢٢/٢/١٢
*مقابلة مع صبحي عبيد مقيم في رام الله، ٢٠٢٢/٢/١٢
*مقابلة مع محمد عودة مقيم في رام الله، ٢٠٢٢/٢/١٢
* مقابلة مع صالح عبد العال مقيم في بلجيكا، ٢٠٢٢/١/٢٧
*مقابلة مع ابراهيم أبو النجا مقيم في غزة، ٢٠٢٢/١/٢٧
* مقابلة مع زهير ناصر مقيم في جنين، ٢٠٢٢/١/٢٧
* مقابلة مع جهاد الغرام مقيم في كندا، ٢٠٢٢/٢/١٢
*مقابلة مع نبيل الكتري مقيم في غزة، ٢٠٢٢/٢/١٢

أوراق ثقافية

أحوال الرواية الفلسطينية ـ ملاحظات أوليّة

فيصل درّاج

يأخذ بعض دارسي القومية من الطباع المشتركة معياراً لتمايز شعب عن غيره، ويركن آخر إلى مفهوم: الهوية التي يتقاسمها أفراد شعب محدّد. وبين التصوّرين فرق لا يمكن إنكاره. ذلك أن الأول يكتفي بالشعب في ذاته، بينما يرى الثاني تمايز الشعب الموّحد في علاقته بآخر نقيضاً له، مؤكداً أنه لا وجود لهوية إلا بمواجهة هوية مغايرة لها، تهدّدها وتحاول اجتياحها وتصادر آفاقها الممكنة. ما يعطف على الهوية، وهي بناء تاريخي واجتماعي، مبدأ: التحرّر ووسائل تحققّه، ويربطها بتراب واضح التاريخ والجغرافيا يدعى بالوطن.

مهما تكن وجوه الاتفاق والاختلاف بين التصوّرين فهما لا يلبيّان الحالة الفلسطينية، التي فصلت المأساة المحايثة لها، منذ ١٩٤٨، بين غيرها فصلاً كاملاً. إن مأساة الفلسطينيين استثنائية في القرن العشرين وما «تلاه»، ربما، فقد عطّل الشتات معيار: «الطباع المشتركة»، التي تُقرأ في بيئة وثقافة محدّدتين. فالبيئة الفلسطينية قائمة اليوم في صيغة الجمع. ما الذي يجمع بين فلسطيني من غزّة حياته تساوي حصاره المستمر الموطّد بأكثر من معاناة، وبين فلسطيني آخر آثر الاستقرار في الدول الاسكندفانية من عقود؟ وما شكل العلاقة بين فلسطيني هاجر من رام الله إلى الولايات المتحدة عام النكبة وآخر التمس «رابطة قومية» ورحل إلى مخيم في لبنان وظل في معاناته المتكاثرة، يهجس بالرحيل؟ كلٌ منهما كان في فلسطين وقادتهما الأقدار إلى «أكوان متغايرة». إذا أخذنا ببعد «التهديد» الذي يلازم الهوية، والهوية الفلسطينية تستمر و»تتكوّن» مهددة، لا نصل إلى وضع فلسطيني متكامل الأسئلة والإجابات، ذلك أن التهديد الواقع على الشعب الفلسطيني له منازله المتنوعة: الفلسطيني الذي بقي في الوطن وظل في دولة إسرائيل تؤرقه عنصرية النظام ووعيد المتطرفين، الذين يرون في «البقاء الفلسطيني» الخطأ الأكبر في «الحسبان اليهودي»، ويعتبرون «تكاثر الباقين» خطراً «زنيماً» مجهول المآل.

وسؤالنا، في هذه الحدود، من أين صدر الأدب الوطني، وهل من فرق بين الأدب الفلسطيني وغيره، وكيف يتكّشف هذا الفرق في حال: الرواية الفلسطينية؟ صدر الأدب الوطني عن سرد تحوّلات الهوية الوطنية من مرحلة التشكّل والصعود، التي يحتل الماضي فيها مكاناً مركزياً يتأسس عليه الحاضر وتتضمّن، لزوما، مستقبلاً فيه الماضي والحاضر معاً. ينطوي الماضي والمستقبل، المترجمين أدباً وطنياً، على متخيّل يشكّلهما كما يرغب، أو كما تقضي «أيديولوجيا الهوية الوطنية»، حيث للأجداد صورة تليق بهم وللأحفاد، الذين لم يلدوا بعد، صورة تمتد فيها الصورة الأولى ويكوّنان معاً تاريخاً موحّداً، يحيل على الواقع ولا يحيل عليه، يأخذ من الواقع وقائع فعلية ويضيف إليها «رغبات» مرجعها «اللغة القومية» التي تحسن الوصف والتخييل.

يؤكّد الأدب الهوية، اعتماداً على جدل الواقع والمتخيّل، وعلى معطى تاريخي قابل للتعيين، ذلك أن الأدب، أي الرواية في هذه الحال، والشعور الوطني صعدا في القرن الثامن عشر، الذي دُعي «قرن الوطنيات» وعرف توسّع الكتابة الروائية «الأوربية» التي أعلن عن «نشوئها» الإنجليزي دانييل دوفو في روايته «روبنسون كروزو».

وبداهة فإن تفاوت الأزمنة التاريخية المقترن بتطور المجتمعات المختلفة، أقام فروقاً بين «القوميات»، فبعضها سبق بعضاً آخر، وفروقاً موازية بين الآداب الوطنية المرتبطة بها دون أن يعطّل ذلك القاعدة القائلة: كل صعود وطني، كما يقظة الهوية التي تحايثه، يستقدم أدباً «يسرد» تحوّلات الوعي الوطني. يأخذ السرد الروائي، بهذا المعنى، معنى مزدوجاً: يومىء إلى يقظة الوعي الوطني، ويعلن عن «بداية» جنس أدبي متصل بها، كما لو كان «واقعة وطنية»، لها وجهان، أحدهما سياسي ينفتح على مفردات الدولة والسيادة والاستقلال، وثانيهما ثقافي يعكس تطوره لغوياً ، فبين لغة النثر ولغة الشعر مسافة واختلاف، ونمطٌ من العيش المشترك، يفصح عن العادات والتقاليد وما بينهما. ذلك أن الثقافة، تعريفاً، مجلى لطرق العيش ووسائله ولتصورات «الشعب» في ميوله ومعاييره المختلفة.

١ـ إضاءة: بين الرواية المصرية والرواية الفلسطينية:

تقصد هذه: «الإضاءة» أمرين: تأكيد العلاقة بين صعود الرواية وارتقاء الوعي الوطني، وتبيان الفرق بين رواية شرط اجتماعي سويّ ورواية شرط «مصادر». فما عاشه المصريون بعد ثورة ١٩١٩ وما «يجاورها» يختلف عما عاشه الفلسطينيون بعد عام ١٩٤٨. فمقابل كلمة: الوطن، المقترنة بالشرط الأول، توجد كلمة: المنفى الذي غيّر، بأقدار مختلفة، ثقافة الفلسطينيين وروايتهم.

في روايته «زينب» ـ ١٩١٢ ـ أعطى المصري محمد حسين هيكل «الرواية العربية الأولى» كما يقول البعض، ورسم صورة مجتمع يذهب إلى مستقبله المتحرر المستقل. عبّر عن تصوّراته بمقولات ثلاث:

جمالية الوطن المصري مجسداً بريفه، والمستقبل المزهر مجسداً بشخصية «الصبي الواعد»، بطل الرواية المحمول بشبابه القادم الذي يدفعه إلى التمرد المتفائل والنشيد مع الفلاحين وتأمل الطبيعة القديمة في صمتها وغنائها، والمقولة الثالثة: «جيش الشمس»، الذي يحيل إلى مجد مصري صنعه الفراعنة.

لن تجد المقولات الثلاث مكاناً لها في رواية المنفى الفلسطيني: الوطن محتل والمستقبل مجهول و«الصبي الواعد» أعطى مكانه لشعب توزّع على الشتات، وبيت العائلة سقط في احتمالات شقيّة، وما كان جميلاً يبهج القلب صار موقعاً للأسى والحنين لا شفاء منه. أفضى تحطّم الوقائع الفلسطينية إلى رواية مختلفة الشكل والمضمون والمنظور، لا بداية من أسى ولا نهاية تلتحف بالتراب، عبّر عنها غسان كنفاني في «رواية المنفى الأولى»: رجال في الشمس، حيث الشمس تحمل الموت وتطرد الظلال تساوي «الصبي الواعد» مع كهل تائه الحسبان، ومع «شاب» ينوء تحت ثقل أوهامه القاتلة.

أعاد توفيق الحكيم، بعد عقدين من الزمن تقريباً، ما كتبه هيكل في رواية: «عودة الروح»، إذ في العنوان ما يفصح عن معنى الحكاية، السائرة من ثورة ١٩١٩ إلى حرية جماعية قادمة. أنشد المسرحي الشهير في روايته أغنية فرعونية قديمة: «الكل في واحد والواحد في الكل»، وصدّر حكايته البهيجة بفتاة من جمال وفرح وذهب، تقود شعبها إلى خلاص أخير.

تنطق الفروق بين رواية الحكيم ورواية جبرا: «صيادون في شارع ضيق» بلغة أسيفة متأسيّة: يقابل اتساع الروح بزقاق ضيّق يستثير الضحك الأسود، وقد تمعن المقارنة في الشجن إن بحثت عن «الكل في واحد والواحد في الكل» في نص فلسطيني، مختنق بالشتات والعُسر وبعائلات لاجئة تنتظر «منقذاً» يفتش عن رغيف خبز في موقع ضنين، والفتاة المؤطرة بالشمس والذهب توازيها شابة فلسطينية غطتها الأنقاض إلا من يد مكسورة المعصم تحمل أصابع يدها «خاتماً» من عاشق أرهقته الأطياف. أمّا عنوان رواية الحكيم فيتحوّل في ترجمته «اللاجئة» إلى أحجية محترقة الأطراف. وعوضاً عن المصري الذاهب إلى استقلاله يحضر فلسطيني مُثقل بخرابه.

أمّا طه حسين الذي «عزّر» الجامعة العربية الوليدة ١٩٤٥ ـ لتهاونها في الشأن الفلسطيني، فأكثر من التفاؤل في روايته «دعاء الكروان» التي تزامن ظهورها، نسبياً، مع رواية الحكيم، فنقل المرأة من الريف، المتبدّي إلى قلب القاهرة وعزّز كيانها بثقافة حديثة، لا تشبه في شيء الأنثى المبتورة الساق في «رجال في الشمس»، ولا العانس التي سطا عليها نذل في مخيم فلسطيني.

مع أن اختلاف البنى الروائية لا يغيّر من اختلاف المضامين، كما يقول العاملون في النقد الأدبي، فإن تقوّض بنية مجتمعية معيّنة يملي اشتقاق المضمون من تقوّضها، ذلك أن «المأساوي الاستثنائي»، يقضي «بشكل مغاير» رواية إميل حبيبي في عمله الاستثنائي «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل».

مقابل «عودة الروح»، التي تسمح بلغة سعيدة مستقيمة، حاولت الرواية الفلسطينية في بداياتها العظيمة توصيف «الاختفاء» و«المتبقي" و"الفقدان". حاولت رواية البحث عن وليد مسعود لجبرا ابراهيم جبرا استنطاق الأرض التي افتقدت بشراً كانوا يسيرون مع ترابها، وهو ما حاوله، مبدعاً، حسين البرغوثي في "سأكون بين اللوز" الرواية التي تحذف الحاضر وتناجي ماضياً ابتعد كان مليئاً بالحياة.

عالجت الرواية الفلسطينية، في بداياتها العظيمة، الاختفاء والفَقْد والخسران، سردت ما كان وتبقى في الذاكرة، تجارب عرفها الفلسطينيون ولم يعرفها غيرهم، وعالجت أيضاً، المأساة الجماعية التي يختلط فيها الحاضر والماضي والكبار والصغار والوقائع والأطياف والنبات والحيوان وما سكن وما يتحرك وما يحتضر وأنجز غيره احتضاره ودفن في قبر «رقيق التراب». خلق يحيى يخلف هذه العوالم الإنسانية المنكسرّة في «رباعية البحيرة» التي بكت هوية سقطت وخاطبت هوية متعسّرة الولادة.

٢ ـ الفلسطينيون: ميلاد رواية وهوية:

تعرّف الفلسطيني بعد النكبة على المنفى، الذي هو مكان استدعى اللاجىء إليه دون إرادة منه، ما يضع في المنفى الفلسطيني بعداً قسراً غامض الاتجاهات، أجبره على تعلّم ما يجهل، وأرغم ذاكرته بالتوجّع على مألوف لن يعود. بعد القسر أتى المجهول وأتى معهما ما يوجع الروح ويلزم المتوجّعة روحه باكتشاف ما هو غريب عنه ومواجهة المجهول الأليم الذي تحايثه مواجهة ليست مضمونة النتائج.

تداخل في عوالم الفلسطيني المنفيّ غربة عن المكان وأهله، وغربة عن ذاته القديمة، ذلك أن الذي «استضافه» اعتبره إنساناً لا تاريخ له، كائناً غُفْلاً، يعرف من أين أتى ويتلعثم أمام ما وصل إليه. يشكّل المنفى الفلسطيني، بهذا المعنى، تجربة لا يعرفها إلا الفلسطيني، تشعره بالنقص والمهانة، وقد تثير في روحه غضباً عارماً حين يراه الآخرون، مخلوقاً ناقصاً ضعيف المحاكمة، أو يفتقر إلى السلوك الصحيح.

وإذا كانت «رواية التعلّم» جزءاً من حياة كل إنسان ذاهب إلى مستقبله، كما تقول نظرية الأدب، فإن رواية التعلّم الفلسطينية لها قول خاص بها، تساوي بين أعمار «اللاجئين» جميعاً، تخبرهم ما عليهم أن يأتلفوا معه، تشدّهم إلى الماضي وتعبث بأبواب المستقبل. فلا يدخل إلى مستقبل منشود إلا إنسان تصرّف بحياته ولم تتصرّف حياته به، والفلسطيني تصرّف بحياته أكثرمن فريق.

ماذا تعلّم الفلسطيني من رواية تعلّمه؟ وهل اعتمد رواية واحدة أم أن رواياته من أقداره الظالمة التي منعت عنه التصرّف بحياته منذ أن وقعت عليه قوة غاشمة اعتبرت الحق قوةً والاستضعاف رذيلة أفتى القدر بصلاحها، طالما أن الحق يختلف باختلاف أسلحة البشر.

ولأن رواية الفلسطيني تكاثرت في روايات، والمتعدد يسخر من اليقين، يمكن الوقوف أمام واحدة

منها، واسعة الرؤية جميلة الصياغة، هي رواية جبرا إبراهيم جبرا. سرد جبرا، الذي قصد بغداد بعد النكبة، سيرة مفرد فلسطيني علّمته: تجربة المنفى، أن الفلسطيني من صبره وجهده ومن «القدس» التي استقرت فيه وعلّمته: فضيلة التفوّق، لا بمعنى «إن كنت ثعلباً أكلتك الذئاب»، بل بمعنى «الإنسان الأعلى»، الذي تجتمع فيه من الصفات ما لا يتسع له غيره ويقيم مسافة بينه وبين غيره، يعترف بها الآخرون ولا ينسبها إلى نفسه، حال: وليد مسعود، الذي افتقد ولم يمت وبقي حياً بين عارفيه.

بطل جبرا استثنائي قياساً على غير الفلسطينيين، ولا استثنائية له بين أهله. ذلك أن الفلسطيني لا أفق له ولا معنى إن لم يكن استثنائياً، بسبب التحدي الذي وقع عليه. اشتق جبرا الفلسطينيَّ «الواجب الوجود» من الأعباء التي عليه أن ينهض بها، التي انطوت على تفوّق العدو المباشر، والتخلّف العربي، وفقدان الوطن وشرور المنفى وذلك الشعور المرهق الذي يداخل الفلسطيني ويطالبه باستعادة ما فقد. تصوغ هذه الأبعاد تجربة فلسطينية الشكل والمضمون، استثنائية حال حاملها، تفيض على تجارب غير الفلسطينيين جميعاً، لا تستغرقها صفة «تجربة إنسانية»، فلكل البشر تجاربهم، ولا صفة «تجربة اجتماعية قاسية»، فهي من نافل المعطيات، بقدر ما هي تجربة شاسعة في العدل والشر الإنسانيين اختير الفلسطيني ليكون صورة عنها. ولذلك يجب الحديث عن «الفاجعة الفلسطينية»، بعيداً عن مصطلحات ناقصة المعنى: القضية الفلسطينية، فهناك قضية التمييز العنصري، وهي أحد وجوه المعاناة الفلسطينية، ولا المسألة، ـ وللعرب مسائلهم ـ «الطريفة»، بقدر ما هي: «الاختيار الوجودي للفلسطينيين»، الذي يسأل الشر عن أصوله، ويسائل الاحتمال الإنساني عن آماد حدوده،.. .

يتكشّف الاختبار في بعض الأسئلة: كيف يبني الفلسطينيون الذين فقدوا الوطن أدباً وطنيا؟ يبدأ السؤال من المفارقة السوداء الساخرة. كيف يكون الفلسطينيون عرباً حين يضيق بعض العرب بالوجود الفلسطيني؟ لماذا خذل الله مدينة القدس التي هي مدينته؟ ما دلالات الانتماء القومي والديني والإنساني التي خصّت الفلسطينيين بأقدار لم يعرفها غيرهم؟

تشير الأسئلة السابقة إلى صعوبات كتابة: الرواية الوطنية الفلسطينية التي تفتقد إلى الوطن، ويعوزها جمهوراً قارئاً موحّد ولا إمكانية لوجود ما يدعوه نقاد الأدب: «المؤسسة الأدبية النقدية". فالذين اغتصب وطنهم لهم مؤسسات توزّع اغتراباً مفتوحاً عليهم، وعليهم تأسيس رواية مشبعة بالمفارقات، تقاتل بجديد فني يتاخم الغرابة، لا تقع في الميلودراما والحكايات اليومية.

جاء جبرا بشخصية: اللاجىء الذي يهزم كماله لجوءه، موزّع في حضوره الانتقالي بين السماء والأرض، فلا هو من البشر العاديين ولا هو من جنس الملائكة، إنه المغترب الصميمي الذي يروّض اغترابه. واقترح غسان بجدارة عليا في «رجال في الشّمس»: المهزوم الذي تقوده أوهام الخلاص إلى هزيمة كاسحة تحرمه

من «كرامة القبور»، وخلق إميل حبيبي مأساة: الضاحك ـ الباكي في وطن مُصادر، إنْ نظر إلى بيته القديم بكى وإنْ تطلع إلى ساكنه الجديد ضحك. رفع المفارقة الفنية إلى مقام جديد. وكتب يحيى يخلف ملحمة شعبية في «رباعية البحيرة» مرتكناً إلى مكان متعدّد القسمات مأساويّ الزمن، تتصادم فيه خضرة الماضي وأوحال المنفى وأناشيد الماضي و»تعديد» مخيم لا يحتمل. واصفاً العلاقات المتجاورة المتناقضة آخذاً بمجاز «بحيرة فلسطينية» ماؤها معتقل ولسطحها ملمس بطن الغزالة.

أسست الأعمال المشار إليها لرواية قادرة على البقاء، فما يكتب ويمحوه زمن القراءة يقترب من «الوعظ» ويقترب عن الإبداع الفني. انطوت على مفهوم: المأساة، ولا تقوم الرواية الفلسطينية إلا به، وأضاءت دلالة الأدب الوطني الواصل بين الهوية ومواجهة العناء. يتجلى اغتراب اللاجىء في مصادرة حاضره وفي تشتيت زمن الروح الفلسطينية الموزع على أزمنة مجهولة الأبواب.

بعد الأمان الجميل، الذي وصفه إميل حبيبي في الجزء الثاني من روايته «أخطية"، سيأتي زمنٌ فلسطينيٌ فارقه الأمان يملي على وليد مسعود خياراً كافراً جعله يترك سيارته في مكان متجهّم على الحدود العراقية ـ السورية و»يُؤْثر» الاختفاء . لا مكان لإنسان عامر الشرف في زمن مهين، أو مجزوء الشرف. ولا مكان يطمئن إليه الفلسطيني إلا بيته القديم الذي تصادت فيه، ذات مرة، أصوات الأجداد والأحفاد.

٣ ـ قدم الملاذ والملاذ الماضي:

لا تاريخ للمظلومين إلا بذاكرة تعرف مصدر الظلم ومآله، وتوحّد بين أحاديث الأموات وحكايات الأحياء المتقاطعة. في كل فلسطيني واضح الهوية حوار مع ما كانه أجداده ووصال، متلعثم الكلمات، بين ما يحلم به وما رغبت به جدّته ولم تقبض عليه. يبدو الماضي في الوعي الفلسطيني الحقيقي زمناً ذهبياً، من ناحية، وزمناً منقوصاً رخو القوام، من ناحية أخرى. لا وجود لرواية فلسطينية جديرة بصفتها إلا وكان الماضي علاقة من علاقاتها، من حيث هو ذاكرة وتاريخ ومرشد للفلسطيني إذا فقد الاتجاه. فهو قائم في رواية غسان التي لم تكتمل: «العاشق»، يستعيد كفاح الفلسطيني ضد عدو خارجي أكثر منه تسلّحاً ـ ملامح الأجداد المحاصرين، وصورة عن وحدة الفلسطيني وأرضه، وآية على جمال فلسطين، وقد تُرجم في حصان يسابق الريح ومقاتل تحالف مع التراب وغصون الأشجار. ما زمن الملحمة الذي تحدّث عنه الفيلسوف الهنغاري جورج لوكاتش إلا زمن الوفاق بين الأرض وأهلها الذي انتهى إلى مأساة فصلت بين الطرفين. أدرك غسان أن زمن الملاحم قد انتهى وترك عمله ناقصاً، وحين أراد يحيى يخلف توصيف زمن ملحمي عاد إلى نهاية القرن السابع عشر، حيث الفلسطينيون مغروسون في أرضهم بعيدون عن هاوية الرحيل. يتراءى الماضي تعبيراً عن الأمن والاستقرار ومرجعاً لمتخيل يعيد خلق صورة الأرض، وصورة

العائلة الفلسطينية القديمة في قراها المتعددة وطقوس حياتها وعاداتها وأغانيها...

تساكن الملحمة زمن الأصل المحتشد بالأناشيد، زمن ما قبل التهجير في «رباعية البحيرة»، الذي كشف يخلف عن دلالته في شقاء المنفى وعذابات المخيمات. كما لو كان زمن الأصل يتكشّف في جمال مخلوقاته ويُستَعلنُ، مريراً، في زمن مقوّض اجتاحته الأقدار. يتساوى زمن الأصل والحقيقة، ويتقاسمان جمالاً لا يتم التعبير عنه إلا منقوصاً ولا يمكن النفاذ إليه إلا مجزوءاً، تغترب عنه اللغة ويدفعها عجزها إلى التكرار. حين أراد جبرا تبيان جمال وليد مسعود أعاده إلى زمن أبيه، وأسبغ على الأب غموضاً تراءى في وجه استقرّ فوقه أثر جرح قديم، يتسّع كلما تقدم الزمن، كما لو كان في الأب إنسان فارع الطول جميل الصوت واسع العينين وآخر محتجب مكسّو بمقدسات أرضه. إنها ميثولوجيا الوطن المفقود، الذي كلما بحث الإنسان عنه زاد جمالاً، فإن ظنّ أنه لن يعود صارمطلق الجمال، وأخذ صفات المطلق.

الوطن المعجز في جماله تنطقه لغة تتشهّى «الإعجاز». هذا ما يقول به، بصمت، إميل حبيبي في روايته: «إخطيّه» التي وصفت جمال الوطن قبل مصادرته وسردت ما حلّ به بعد أن فقد أهله وأوكلت إلى اللغة توصيف الجمال المفقود وإنطاق حرمان الذي فقد الأرض وافتقد أريجها. كاد حبيبي أن يعطي درساً في «جماليات التأسّي» أو «جمالية الفَقْد» التي تقيم حواراً بين الفاقد والمفقود قوامه الإشارات لا الكلمات الصريحة.

صوت الماضي في الأدب الوطني الفلسطيني مفرد بصيغة الجمع، أو أصداء مجموع متنوع الأصوات، فلكل لاجئ قصته والفاقدون لأرضهم يتقاسمون إحساساً بالفقد مشتركاً، والفقد اغترابٌ عند الفلسطينيين يجمع بين الأرض والذاكرة والبيت القديم وأطياف الأجداد، على خلاف الاغتراب، بالمعنى المدرسي الذي هو تجربة في الفقد قابلة للتعويض.

ينتهي الاغتراب عند ماركس الشاب «باستعادة الجوهر المفقود»، ما يجعل الاغتراب تجربة روحية من ناحية ومحددة الأفق من ناحية ثانية. بين استعادة الجوهر المفقود، الذي هو تجربة في البناء الفلسفي، واستعادة الوطن المفقود تجربة تتكاثر في تجارب تبدأ بالوعي الأسيان وتصاحب أملاً لا تطفؤه المآسي.

يتضمن مفهوم الاغتراب التجربة الفلسطينية ولا يستغرقها. فالاغتراب، فلسفياً، يحيل إلى فرد ينتظر تحرّره، بينما يستدعي، فلسطينياً، مجموعاً متوالداً متعدد الأجيال. والواقع أن الاغتراب الفلسطيني لا يتمثّل بتجربة «الجوهر المفقود»، وهي مقولة مجردة، بل بتجربة أكثر عنفاً عنوانها: «الاستئصال» الذي يدع الفلسطيني عارياً من ماضيه، إلا من الإرادة والذاكرة. سرد حسين البرغوثي تجربة الاستئصال في روايته «سأكون بين اللوز»، أوكل إلى الأرض المفقودة أن تكون ذاكرة، وإلى التراب ليكون صوتاً لماضٍ رحل، فالحكاية الفلسطينية مزيجٌ من اللوعة والأطياف.

ربما كان عنف التجربة الفلسطينية، المحاصرة بالظلم منذ أكثر من سبعين عاماً، كما المعاناة الجماعية التي تواكبها، هو في أساس عنف التصور في بعض نصوص الرواية الفلسطينية، التي تستهل «برجال في الشمس»، ويمتد فيها عنف من شكل آخر في رواية إميل حبيبي «المتشائل» وصولاً إلى زمن متأخر صدم الفلسطينيين بخيبات كثيرة عبّرت عنها رواية أكرم الشرفات: «ليتني كنت أعمى» ورواية «حليب التين» لسامية عيسى و«لكل زمرة دمه» لمايا أبو الحيّات. يسير الفلسطيني من منفىً أُجبر عليه إلى آخر يوسّع عليه صورة المنفى الذي سبقه ويزيده اكتئاباً. تبدو الرواية الفلسطينية في أزمنتها المتنوعة «سجلاً للذاكرة»، تسجّل ما لا يستطيع المؤرخون تسجيله، فهم يكتفون بالوقائع الكبيرة، التي تضع الوجدان الإنساني جانباً، كأن يمروّا «بلغة جاهزة» على وعد بلفور، وثورة ٣٦ ـ ٣٩ ويتابعون زمناً مستقيماً يتجانس فيه البشر والأحجار.

يعتمد التاريخ على «الوثائق»، وتبدأ الرواية من «عوالم الإنسان»، ومع أن كلمة «الوثائق» توحي بالدقة أو بنظر علمي، فإن الواقع لا يقول بذلك. ذلك أن اليقين الموضوعي من وجهة نظر «المآسي الفلسطينية» يرتبط بما عاشه اللاجئون، بما عاناه سكّان المخيمات، بهؤلاء البسطاء الصامدين، الذين اجتاحتهم أكثر من مجزرة، وواجهوا المجازر الجديدة والمتقادمة بمتواليات من القيم والحفاظ على الكرامة.

"لكل فلسطيني قصته" كان يقول محمود درويش، وفي كل رواية فلسطينية متواليات من القصص، وفي كل قصة أكثر من مآل وترجمة لِسيَرِ تَرجمُ الظلم وتستنهض عدلاً يعجز عن الوقوف. هل كتب الفلسطينيون عما عاشوه، وهل تتسع ذواكيرهم لكل ما جاء وسيجيئ؟ تستقدم الإجابة الناقصة كلمة: كتابة التي تتضمن أجناس الإبداع جميعها، وتلزم الرواية الفلسطينية بإبداع متجدد خصيب يحتضن «البدايات الكبيرة» ويتجاوزها.

٤ـ هل للرواية الفلسطينية هويّة؟

يبدأ السؤال، في بعده المباشر البسيط، بتعريف الهوية آخذاً بأحد اقتراحين أو بهما معاً: هوية الإنسان من صراعها مع هوية مغايرة تقصد إضعافها وهزيمتها. يقوم بالتعريف على تناقض مفترض، ذلك أن الهوية تستيقظ في مواجهة قوة تبغي إخمادها. يتضمن التعريف ملامح ضبابية، فلا يمكن قياس حدة الصراع، ولا مدى تورّط الطرفين فيه. فبعض المضطهدين يستنيم إلى اضطهاده ويفضّل ديمومة المهانة.

التعريف الثاني يقول: يتعرّف الإنسان على هويته حين يعرف من أين جاء، ويدرك شكل الدروب التي ربطت بين مستهل مساره والمآل الذي وصل إليه. تصدر الهوية، والحال هذه، عن المسار المتعدد الوجوه والردّ عليه، المحتشد باحتمالات عديدة. والأفضل الوصول إلى صيغة تجمع بين التعريفين معاً: صدرت الهوية الفلسطينية عن تجارب الوجود الفلسطيني التي ترجمت عنف التهجير وعنف المنفى وجملة

التحولات التي نقلت الفلسطيني من وضع: اللاجئ الجدير بالرحمة إلى وضع: الإرهابي الذي يستمطر الكراهية مروراً بفترة عاقلة أخذت صفة «الفدائي»، الممتدة في صفة: الشهيد والتحقت بها ملحمة السجين الفلسطيني المدافع عن الكرامة ولا ينتظر مكافأة.... .

السؤال المدرسي اللاحق: هل تنطبق الهوية المصاغة نظرياً على الهوية الروائية؟ السؤال قلق يفقد معناه لحظة العثور عليه، ذلك أن الرواية تخييل قائل بـ: الحرية الواسعة الملامح التي يضبطها: اللغة، من حيث هي موروث وطني يطوّر مفرداته ويظل ثابتاً.

يستضاء المعنى بتقنية فنية عنوانها: الشكل والتاريخ الأدبي، أو الممارسة الكتابية الروائية والسياق المعيش اللذان يسقطان شكلاً أدبياً محدداً، قد يتصف باليقين والثبات، ويستقدمان شكلاً جديداً ينزع إلى التحويل والتبديل. المثال الأدبي، في هذه الحال، قائم في رواية نجيب محفوظ: «أولاد حارتنا»، التي ردت على سياق تسلطّي بشكل حر، مرن، يعارض التسلّط ويرفع راية: الحرية. شكل غير مسبوق يوائم سياقاً تسلطياً غير مسبوق أيضاً.

وما قام به محفوظ الذي سرد تحوّلات مصر السياسية بأشكال روائية متحوّلة قام به الروائيون العرب حين ردوّا على هزيمة حزيران التاريخية ـ ١٩٦٧ ـ بجديد روائي لم يكن موجوداً قبلها. لم يردّوا عليها بـ «مضمون»، جاهز قبل اقتراحه، بل بأشكال روائية تستوعب سياق الهزيمة وتردّ عليه. سجّل غالب هلسا الجديد المأساوي في رواية، «الضحك» التي أعطت الاغتراب صياغة غير مسبوقة، وجاء جمال الغيطاني بروايته العظيمة: الزيني بركات، التي ساوت بين زمنين مهزومين وتركت مكاناً لكل هزيمة عربية قادته، وأنجز صنع الله إبراهيم «نجمة أغسطس» التي تأملّت علاقة الفن بالتاريخ السلطوي وانتهت إلى إجابة مفتوحة.

أسس غسان كنفاني مشروعه الروائي على رواية «فلسطينية الشكل» إن صحّ الكلام وتنقّل، في تجريبه من شكل إلى آخر. تبقّى منه منظوره الروائي وروايات غير مكتملة، لا بسبب رحيله المبكّر فقط، بل لصعوبة إنجاز ما يريد في الكتابة الروائية. انتقل من «العاشق» إلى «الأعمى والأطرش»، ورواية «برقوق نيسان»، وترك نهايات رواياته معلّقة في فضاء المحاولة والتجريب. ولعلّ وعيه بصعوبة مشروعه هو ما دفعه إلى الإتكاء على تجارب غيره: أراد أن يكتب «العاشق» بمنظور الملحمة وأعطاها عنوان: «بنادق في الجليل»، واستأنس بمسرحية بريشت «دائرة الطباشير القوقازية» في روايته «عائد إلى حيفا»، واستلهم غوركي في «أم سعد»... استعان بغيره في انتظار أن لا يستعين بأحد، وأن يكتب رواية فلسطينية واضحة الهوية، تصدرُ فلسطينيّتها عن شكلها لا عن «مضمونها» الراقد في أفكار مدرسية أوليّة. وربما كانت صعوبة الشكل هي التي منعت الروائيين الفلسطينيين عن تقديم عمل يقبض على دلالة «مأساة تل الزعتر»، باستثناء عمل ليانة بدر «عين الجمل»، الذي بقي عملاً مفرداً في مجاله.

ما حاوله غسان حاوله إميل حبيبي في روايات جمعت بين السيرة الذاتية ووطأة العيش في شروط الاحتلال ونثر طليق ونثار من حكايات، كما هو الحال في روايته المتأخرة «سرايا بنت الغول»، وما حاوله إميل أعطاه حسين البرغوثي صياغة متألقة في «سأكون بين اللوز» التي هي حوار بين الروح الفلسطينية الراحلة ومرابع الطفولة و»صوت الأرض المقهورة» وذلك «الرثاء المخنوق» الذي يُنطق زمناً فلسطينياً لن يعود.

تصدر «الرواية الفلسطينية» عن مقابلة بين زمن الأرض وزمن المنفى وعن تجارب روائية فلسطينية قطعت مع السرد واللغة التقليديين اللذين يأتلفان مع «العادي والمألوف» لا مع استثنائية المأساة الفلسطينية. تجدر الإشارة هنا إلى عمل راضي شحادة «الجراد يحب البطيخ»، الذي سجل وقائع الانتفاضة الأولى ١٩٨٧ متكئاً على صوت شعبي جماعي تغيب المسافة فيه بين المفرد والمجموع وتتلامح «السيرة الهلالية» في زمن لا موقع فيه «لأبي زيد الهلالي» إلا بصيغة مفرد توزعت مفاصله على مجموع يتجاوز الأفراد جميعاً.

يدعو ما سبق إلى التقدم بأطروحتين، تقول الأولى: تتمثّل هوية الرواية، من حيث هي جنس فني، بمتخيّل حر متحرر من المراجع القومية والدينية والوعظية. وتقول الثانية: تتحدد حرية الرواية الفلسطينية، من حيث هي رواية شعب مهدّد الهوية، بتأكيدها المستمر للهوية الفلسطينية، طالما أن هوية الرواية من حريتها. والعنصران معاً، أي الهوية والرواية في شكليهما الفلسطينيين، بعيدان عن الاكتمال، يتطوران في سيرورة مفتوحة، ما يجعل الهوية، كما الرواية، تبحث عن شكل قادم يعلن عن «تحققّها الوطني»، ذلك الذي يتجاوز المنفى ويطمئن إلى كفاح وطني يعرف جغرافيا فلسطين ولا يعرف المساومات الشاردة.

بدأ تشكّل الهوية الفلسطينية مع الكفاح ضد الصهيونية، الواعي لأهدافه وأستمر في مرحلة المنفى والشتات، وظهرت الرواية الفلسطينية إلى الوجود، كذاكرة وطنية مقاومة، مع بدايات المنفى وتثبيت صور الوطن، كما لو كان فقدان الوطن و»إرادة استرجاعه» بداية تاريخية للهوية والرواية معاً، هوية تدفع إلى سردها الروائي ورواية تمليها الهوية وتعيد إنتاجها. أوضح باتريك براوندر في كتابه «الرواية والأمة» تزامُن ميلاد هاتين الظاهرتين، وإن كانا في مسارهما الإنجليزي المتوّج بالأمبراطورية يختلفان عن هوية فلسطينية قسرية الميلاد ورواية موازية ولدت في المنفى (١).

وأخيراً فإن «الطبائع» لا تحتل موقعاً دالاً في تشكّل الوطنية الفلسطينية التي تختصر في هوية قَيّد التشكّل أضاءتها، بنسب مختلفة، رواية متفاوتة الأشكال احتضنت إبداعاً رفيع المقام وحكايات عارضة أقرب إلى السرد المدرسي.

Patrick Parrinder: Natiom and Novel oxford. 2006 p: 2025-.

انتصار الوزير (أم جهاد) في مذكّراتها: «مش متذكرة غير خليل»!

بديعة زيدان

كانت في سن الخامسة، هي المولودة في غزة العام ١٩٤١، والحديث عن انتصار الوزير (أم جهاد)، حين نصح الطبيب والدتها المصابة بالربو بالخروج من غزة على أمل أن تتحسن حالتها، فقررت الذهاب إلى الرملة، لما تمتاز به من مناخ معتدل، ولكون عائلة عمها إبراهيم الوزير تقطن هناك.. رافقت انتصار والدتها في تلك الزيارة، التي شهدت أول لقاء بينها وبين ابن عمها خليل الوزير (أبو جهاد)، المولود في الرملة العام ١٩٣٥.

وتذكر في كتابها «رِفقة عمر»، الصادر حديثا عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات: «مش متذكرة من الرملة غير خليل».. قابلته أول مرة أثناء تلك الزيارة في مدينة الرملة، صيف العام ١٩٤٦، ابن عمي هذا هو خليل الوزير، الذي سيصبح فيما بعد أحد أبرز مؤسسي الحركة الوطنية الفلسطينية الحديثة، والرجل الأول والأخير في حياتي وتاريخي.

وفصّلت: انتقلت عائلة الوزير إلى غزة، وسكنت فيها قادمة من اليمن، وبمرور الزمن، ولظروف تبدو اقتصادية، بسبب حدوث مجاعة، تفرّقت العائلة، فبقي جزء منها في غزة، وانتقل الجزء الآخر إلى الرملة وحيفا ويافا.. بقي والدي في غزة، وذهب عمّي إبراهيم إلى الرملة، أما أعمامي خليل وشاكر ، فقد انتقلا إلى حيفا ويافا.. سكنت عائلة عمي أبو خليل في الرملة، في منزل مكوّن من طابقين، إضافة إلى طابق أرضي مظلم، وكان، على ما يبدو، لتربية المواشي والدواب.. عمل عمي إبراهيم في دكانة (بقالة) صغيرة يملكها بالقرب من المنزل، فيما عملت عائلة الوزير في حمام تركي يقع في شارع عمر بن الخطاب بالمدينة، ولم يكن الحمّام ملكاً لأعمامي، ولكن لا تزال بعض آثاره موجودة حتى الآن.. قضيت أغلب أوقاتي في تلك الزيارة ألعب مع أبناء عمي خليل وغالب ومنذر وزواهرة، وكان خليل نشيطاً وكثير الحركة، يطلب منهم جميعاً أغطية المشروبات الغازية التي

كانت تسمى «كازوزة» من الطرقات، ليصنع منها ما يشبه الزلاجات بعد خرق تلك الأغطية ووضع مطاطة فيها ولفها على بكرة خياطة فارغة، وكان بالقرب من المنزل شارع مرتفع، يضع العجلة على ناصيته، ويقف هو والآخرون عليها، وينزل الواحد منهم حتى نهاية الشارع، وتتعالى ضحكاتهم.

وتتذكر: جاء موسم النبي روبين أثناء وجودنا في الرملة، وهي مناسبة ينتظرها الأهالي، وخاصة الأطفال، بفارغ الصبر، في كل عام.. أذكر خليل وغالب وهما يساعدان والدهما، عمي إبراهيم، في نصب الخيمة بمنطقة رملية، وكيف كنّا نمضي النهار نتجول في الأسواق وبين التجمعات في الساحات العامة لمشاهدة الكشافة وحملة الرايات والفرق المختلفة، ونشاهد الخيول ترقص على الموسيقى، وعروض الأكروبات، والفرق الشعبية وأهازيجها، ونلعب على المراجيح.

وموسم النبي روبين عبارة عن احتفالات سنوية تقام في قرية النبي روبين غرب مدينة الرملة وجنوب مدينة يافا، وهو موسم تراثي فلسطيني سنوي يبدأ مع مطلع آب، وبدأ الاحتفال به منذ أواخر القرن الثالث عشر، زمن صلاح الدين الأيوبي.

في غزة

وتحدثت الوزير عن الزي المدرسي في غزة، والحجاب، ووالدها «غير المتعصب».. «في المرحلة الثانوية كنت أرتدي فستاناً رمادياً متوسط الطول مع حجاب، وكان على جيب الفستان اسم مدرسة الزهراء الثانوية مطرزاً باللون الكحلي.. كانت غالبية الفتيات، وقتئذ، يرتدين الحجاب، وهو عبارة عن ملاية وغطاء رأس (منديل أسود سميك)، واللباس محتشم بحكم العادات والتقاليد، أما أنا فقد كنت أغطي رأسي ووجهي بمنديل أسود شفاف، اعتبر، حينها حجاباً ليس تقليدياً.. لم يكن والدي رجلاً متعصباً، على العكس، أذكر أنه عندما كنت أذهب معه لاستقبال أخوتي وعائلاتهم عند محطة القطار في رفح، عائدين من السعودية، كان يرفع الحجاب عن رأسي فور مغادرتنا مدينة غزة، ويضعه في جيبه طول الطريق، ولا يطلب مني أن أضعه مجدداً إلا عند عودتنا إلى غزة.

وسكنت عائلة انتصار الوزير في حارة بني عامر، حي الدرج، وهو أحد أحياء مدينة غزة، بالقرب من خزّان الماء (حاووز المي)، خلف مدرسة البلدية ومدرسة الزهراء.. عمل والدها في الحمام التركي، ولم يكن ملكاً له في البداية، لكن مع عمل إخوتها في السعودية، أصبحوا يرسلون له المال لشراء حصص في الحمام، حتى أصبح ملكاً للعائلة، كذلك تملك والدها ست دونمات تحيط بالمنزل، زرعها بكافة أنواع الحمضيات والخضروات، كما زرع التبغ (الدخان).. «أذكر كيف كنت وأبناء الجيران نساعده في جلب تلك الشتلة، وكيف كان يحفر لها حفرة ويضعها داخلها، ويمهدها، ثم

يقوم أحد الأولاد بريّها.. عندما تنضج وتصفر أوراقها نجمعها في وعاء لحمل البضائع (القفة)، ثم نصعد بالأوراق إلى المنزل، حيث تجتمع نساء الحارة ويقمن بشك الأوراق باستخدام إبرة كبيرة وخيط سميك، ثم نقوم، نحن الأطفال، بنشر الأوراق المشكوكة على سطح المنزل، ونقلبها في الشمس حتى تجف، وبعد ذلك نقوم بتخزينها في صناديق خاصة لحين بيعها إلى مصانع السجائر.

تحدثت انتصار الوزير عن أعمال والدها في غزة، لكنها لم تنس والدتها، صبحية سليم الوزير، وهي ابنة عم والدها، و»تربّت في منزل والدي منذ كان عمرها تسعة أعوام، فبعد وفاة جدي، والدها، أرادت والدتها جدتي نوارة الزواج من رجل غريب، فاضطرت إلى ترك ابنتها صبحية وشقيقها الأصغر عبد الله عند والدي لرعايتهما، ولكون والدي ملتزم دينياً فقد عقد قرانه على والدتي، وكانت في عمر التاسعة، لكنه كان عقداً شكلياً، قبل أن يتزوجها عندما بلغت الثالثة عشرة، حيث أعاد عقد القران عليها.. ولد والدي في العام ١٨٩٠ وهو يكبر والدتي بحوالي تسعة أعوام، أما بالنسبة إلى خالي عبد الله، فقد عاش معنا طوال حياته، وظلّ ملازماً لوالدي في المنزل والعمل».

"بعد زواج جدتي لأمي، نوارة، من ذلك الرجل، عادت بعد وفاته لتعيش في منزل والدي.. كانت جدتي من النساء الجميلات، إذ اشتهرت ببياض بشرتها وعيونها الزرقاء، وكنت مقرّبة منها جداً، خاصة أنني الطفلة المدللة في البيت باعتباري آخر العنقود".

ذكريات النكبة

وتذكر انتصار حرب العام ١٩٤٨ والنكبة جيّداً.. «من أولى ذكرياتي عن النكبة سماعي لانفجار كبير في منطقة تسمى المحطة، حيث كنّا نلعب في الحارة مع الأطفال. لا أزال أذكر أعمدة الدخان المتصاعدة من هذا الانفجار، وكيف تناقل الناس الروايات عما يحدث من تهجير ومجازر، وكيف بدأ اللاجئون يتوافدون إلى غزة.. أمضى اللاجئون أيامهم الأولى في غزة بحثاً عن المفقودين، فهناك من تبحث عن أولادها، وأخرى تبحث عن زوجها، وهناك من استشهد أو اعتقل، ولي ابنة عم اسمها شِفا حامد الوزير، كانت قد هاجرت من يافا إلى بيروت على متن إحدى السفن، إلا أن تلك السفينة فقدت، ولم تعرف العائلة عن ابنة عمنا أي معلومات لفترة طويلة، واستمر البحث عنها عدّة أشهر، إلى أن وُجدت أخيراً عن طريق الصليب الأحمر، في أحد معسكرات اللاجئين الفلسطينيين بالقاهرة".

وتروي: حدثني خليل عمّا حصل في مدينة الرملة أثناء الحرب، كان عمره ثلاثة عشر عاماً عند وقوع النكبة.. بعدما سمع أهل المدينة بما وقع من مجازر واعتداءات في المدن الأخرى، قرروا الدفاع عن مدينتهم والتصدي للأعداء، من خلال تشكيل لجان للدفاع عنها، وتوزيع الشباب وتدريبهم ضمن

صفوف المقاومة، وحفر الخنادق حول المدينة، ونصب كمائن للصهاينة.. أذكر وصفه لبداية هجوم العصابات الصهيونية على مدينة الرملة، فقد تعرضت المدينة لقصف مدفعي شديد دفع الأهالي للاحتماء داخل كنيسة الرملة عدّة أيام، استمر خلالها القصف والاشتباك بالرصاص الحي، وكان خليل يختلس النظر من شبّاك الكنيسة، فيرى الجثث الملقاة على الأرض، ويسمع أنين الجرحى.. بعد أيام صعبة سقطت الرملة، وسمع الأهالي نداءً من مكبرات الصوت موجهاً إليهم، يطالبهم برفع الأعلام البيضاء والتجمع في الساحة.. خرجت عائلة عمّي من الكنيسة، وتوجهوا إلى منزلهم لإحضار بعض الطعام والملابس.. حمّلت الحاجة أم خليل ابنها خليل صرّة فيها بعض الأرغفة وقطع من الجبن، وعندما وصلوا الساحة، كانت مليئة بسكان المدينة، وكان الجنود يدفعون الناس لركوب الحافلات».

"أمرهم أحد الجنود بترك ما يحملونه على الأرض، ودفع خليل ووالدته إلى الحافلة، إلا أن خليل أصرّ على أخذ صرّة الطعام معه خوفاً على إخوته من الجوع، فنزل إلى الرصيف وأخذها وعاد مسرعاً إلى الحافلة، فلحقت به والدته عندما رأت أحد الجنود يصوّب يندقيته على ابنها، وسحبته إلى صدرها.. في تلك اللحظة أطلق الجندي النار عليه، فأصابت الرصاصة ابن الجيران، وقد التقاه بعد أعوام، وقال له: افتديتك برصاصة في رجلي يا خليل.. في تلك الليلة وصل عمي إبراهيم وعمي شاكر وعمي خليل وعائلاتهم إلى غزة، واكتظ البيت بهم".

بعد فترة توزعت عائلات الأعمام، منها من بقي في غزة، ومنها من توجه إلى الضفة الغربية أو إلى بيروت.. «بعد وصول الأهل إلى غزة، كان أولاد عمي: خليل وغالب ومنذر وزواهرة يذهبون إلى أماكن تجمع اللاجئين في الخيام والمساجد والمدارس التي امتلأت بهم للبحث عن أصدقائهم وأبناء جيرانهم هناك، وكنت أرافقهم في أغلب الأحيان.. وقد أدى اكتظاظ اللاجئين في المدارس إلى تعطيلها لفترة زمنية، وبعد أشهر عدّة، بدأ العمل على تسجيلهم، من خلال زيارات منزلية يقوم بها بعض الشباب لإحصاء أعدادهم في المدينة.. بدأ التدريس بعد فترة للاجئين في الخيام، أذكر أنني كنت أقف بباب أحدى الخيام أنتظر ابنة عمي، فأشاهد الطلاب يجلسون على الحجارة ويتلقون الدروس.. تغيّرت الحياة في غزة بعد النكبة».

خليل في غزة

انتقل خليل وشقيقه غالب لاستكمال المرحلة الثانوية في مدرسة فلسطين.. و»عمل خليل، بعد وصوله إلى غزة في بيع أدوات الحلاقة والمقصات والشفرات، على بسطة صغيرة، كما عمل عند تاجر يبيع القماش، وعندما جمع بعض النقود اشترى كاميرا من نوع «كانون» (Canon)، وكان يذهب

إلى المخيات ويصوّر حياة اللاجئين ومعاناتهم، والأطفال الممزقة ثيابهم، وكان يجمع الصور ويرسلها إلى المؤسسات الدولية، والصحف، ووكالات الأنباء العالمية".

"خلال دراسته الثانوية تنامى الشعور الوطني عند خليل، وكان جلّ تفكيره إيجاد وسيلة لتحرير وطنه، والعودة إلى مدينة الرملة التي هُجّر منها.. كانت الساحة الفلسطينية تزدحم بالأحزاب والتنظيمات السياسية، لكنه قرر الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين لأنها حملت السلاح، وقد كان نشيطاً أثناء وجوده فيها، حيث كان في الكثير من الأحيان يقود طابوراً من الشباب الذين يركضون خلفه في الشوارع، أذكر منهم: عبد الله صيام، ومنير عجور، وكمال عدوان، وشقيقه غالب الوزير، وغيرهم الكثير، وكانوا يتدربون على السلاح قرب البحر، وفي بعض الأحيان كان ضابطان مصريان يدربانهم على حمل السلاح والمتفجرات والقنابل اليدوية».

وواصلت انتصار شحذ ذاكرتها: بعد فترة من انضمامه إلى جماعة الإخوان المسلمين، شعر خليل بعدم جديّتها بالعمل من أجل تحرير فلسطين كما هو مطروح في أدبيّاتهم، فقدم لهم مشروع كفاح مسلح، وعندما ناقشوا الموضوع، أبلغوه أنهم غير مستعدين للقيام بأي عمل مسلح في تلك الفترة، نظراً لانشغالهم بخلافاتهم مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، لكنه بدأ بتشكيل خلايا لتنفيذ عمليات عسكرية ضد العدو، ونفذت العديد من العمليات كان أهمها نسف خزان زوهر في ٢٥ شباط ١٩٥٥، حيث فاضت مياهه وصولاً إلى بحر غزة».

"خلال دراسته الثانوية، وصل محمد عبد الرؤوف القدوة (ياسر عرفات)، رئيس رابطة الطلاب الفلسطينيين في مصروبصحبته سليم الزعنون وصلاح خلف.. كان الوفد مبتعثاً من جمال عبد الناصر، بعد أن أضربت الرابطة عن الطعام بسبب الهجمات الإسرائيلية المتكررة على أبناء شعبنا في قطاع غزة، وعند وصول الوفد إلى القطاع، ذهب خليل لزيارتهم في مقر إقامة ياسر عرفات، وأجرى معه مقابلة صحافية لنشرها في مجلة المدرسة، وكانت هذه المرّة الأولى التي يلتقي فيها خليل مع ياسر عرفات».

الإبعاد إلى القاهرة

"في صبيحة أحد الأيام من العام ١٩٥٤، جاء عمي إبراهيم وزوجته في الصباح الباكر، الساعة السادسة تقريباً، على غير عادتهم، فشعرت أن هناك أمراً غريباً"، والحديث لانتصار التي تواصل "لم يكن والدي قد خرج للعمل بعد، فجلسوا في الصالة، وسمعت عمي يخبره أن المخابرات المصرية اعتقلت خليلاً، فأسرع والدي بالخروج من المنزل، وعلمت لاحقاً أنه قام بالعديد من الاتصالات مع وجهاء البلد للتدخل.. بعد ثلاثة أسابيع أفرج عنه من السجن في غزة شريطة إبعاده إلى القاهرة».

"في القاهرة، استطاع خليل إكمال تعليمه الثانوي، وحصل على شهادة التوجيهي بتفوق، وكان من الأوائل، حيث كان السادس على طلاب مصر وقطاع غزة، ثم عاد إلى القطاع بعد تدخلات كثيرة".. بعد عودته كشف لها أن سبب اعتقاله يعود للغم زرعوه على الحدود لكنه لم ينفجر واكتشفه جندي مصري من "الهجانة" وسلمه للمخابرات المصرية التي اكتشفت أنه محلي الصنع، وعبر الحدّادين في قطاع غزة استدلوا عليه.

شهر العسل

ليس سهلاً الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وتجاوز الكثير من التفاصيل المهمة والشيقة، والتي لربما يعرفها غالبية القرّاء للمرّة الأولى، لكني سأختار محطات بعينها، تضيء على التنوع الثري في كتاب «رِفقة عمر»، مذكرات انتصار الوزير (أم جهاد)، ومنها ما جاء تحت عنوان «شهر العسل والعمل: ما بين بيروت والقدس وعمّان».

"غادرنا معاً إلى القاهرة، وبقينا هناك لأسبوعين، كان شهر عسل وشهر عمل في آن واحد، قمنا بزيارة بعض الأماكن السياحية، وارتدنا دار السينما، كما كان خليل يذهب ليلتقي الشباب والخلايا الموجودة في مصر، وراجعنا الدوائر الحكومية المصرية للحصول على تأشيرة خروج وعودة، بصفتنا نحمل الوثيقة الفلسطينية".. حاولنا الحصول على تأشيرة دخول إلى لبنان، ولكن بسبب الوثيقة رفضوا ذلك، لكن خليل المغامر أصر على أن يركبا الطائرة إلى بيروت دون تأشيرة، ورغم رفض الشرطي اللبناني إدخالهما، إلا أنه أقنعه برغبة «العروس» بمشاهدة بيروت، فاحتجز الوثائق وسمح لهما بالدخول ليوم واحد.. «عندما سألت خليل عن الوثائق أخبرني أن صديقاً له يدعى هاني فاخوري سيحضرها لنا من المطار في اليوم التالي، كان دائم الحديث عن هاني وشقيقه توفيق، وشاءت الأقدار أن أتعرف إليهما، وأن نلتقي بهما وبقيادات في التنظيم ببيروت.. كان لدى الإخوة تساؤلات كثيرة يلفها القلق من تأجيل الانطلاقة، فقد كانوا يسألون عن الأسلحة التي تسلموها، وعن نوعيتها، وعددها، وكميات المتفجرات التي وصلت، وطرائق تخزينها وتوزيعها.. منذ البداية كان رجل التفاصيل بلا منازع.. دارت هذه الجلسات بحضوري، وهذا الوجود معهم أكسبني الكثير من احترامهم وثقتهم، استغرابهم أيضاً.. عروس في أيامها الأولى تتحمل هذه المشاق كلها، وتنتقل معه للقاء الكوادر من مكان لآخر».

وبعد عديد التفاصيل، تحدثت عن مجلة فلسطيننا بالقول: «توفيق خوري، شاب لبناني كان لديه ترخيص لمجلة اسمها نداء الحياة.. استطاع خليل إقناعه أن تستفيد فتح من هذا الترخيص، وأن يتولى هو إصدارها بإشراف خليل، ويضيف اسم فلسطيننا، ليصبح اسم المجلة (فلسطيننا نداء

الحياة).. أعطى خليل الكثير من وقته لإخراج المجلة، ومتابعة موقف الحركة، واستكتاب الإخوة في اللجنة المركزية، وآخرين، وقد حظيت المجلة بصور لوحات الفنان إسماعيل شمّوط، والتي كانت تعبر عن نكبة الشعب الفلسطيني ومعاناته».

"أمضيت شهراً كاملاً في بيروت ثم توجهنا إلى القدس. هبطت بنا الطائرة في مطار قلنديا، دخلنا الأردن أيضاً، رغم أننا من حملة الوثيقة المصرية الممنوعين من الدخول إلى الضفة الغربية.. خطط خليل لهذه الزيارة قبل شهر، وكان أرسل برقية إلى وزير الداخلية الأردني، عبّر فيها عن رغبته وعروسه بقضاء شهر العسل في ربوع الأردن، وكان تجاوب الوزير الأردني كبيراً، إذ جاء الرد أن الأردن ترحب به وبعروسه، وأن التأشيرة ستكون بانتظارنا في مطار قلنديا، وهكذا وجدنا أنفسنا نسير معاً في شوارع القدس.. نزلنا في الفندق، ثم توجهنا إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه، صلاة تحية للمسجد وصلاة شكر لله على سعادتنا، ودعوته أن يحمي هذه السعادة، وأن ينصرنا ويحقق أهدافنا».

وواصلت انتصار الوزير السرد: «في اليوم التالي لوصولنا القدس بدأت رحلة العمل الشاق، بدأ الاتصال بالإخوة عناصر فتح، والاتفاق معهم على سير العمل التنظيمي، والترتيبات العسكرية.. كان الأخ رمضان البنا يرافقنا في معظم اللقاءات.. من القدس توجهنا إلى الخليل، وحللنا ضيوفاً على الأخ بدوي جنيدي، وفي منزله التقى خليل بالعديد من شباب التنظيم، ثم توالت رحلة العمل التي شملت قلقيلية، ونابلس، وطولكرم، وبيت لحم، وبيرزيت، ورام الله، وبيت صفافا، وأريحا.. أثناء وجودنا في نابلس زرنا أعمامنا الذين استقروا في المدينة بعد النكبة، وكان لقاءً حاراً، فنحن نراهم وعائلاتهم للمرة الأولى منذ النكبة (...) بعد كل زيارة كنّا نعود إلى القدس".

"كانت الرحلة إلى مدينة عمّان طويلة، نزلنا في أحد الفنادق، وفي اليوم التالي على وصولنا كان لقاؤنا مع الأخ محمد غنيم (أبو ماهر) الذي دعانا لتناول طعام الغداء في منزله، وكان وقتها مسؤول الخلايا التنظيمية في الساحة الأردنية.. أمضينا أسبوعاً في الأردن متنقلين ما بين عمّان والزرقاء وجرش وعجلون وإربد، ومخيمات اللاجئين في الأردن.. في كل مكان يكون اللقاء حاراً مع الإخوة، والحماس للعمل كبيراً.. كلما عدنا إلى الفندق، كانت أحاديثنا امتداداً لما دار من مناقشات مع الشباب.. كانت آمالنا كبيرة.. أنهكنا التعب، وبدأ الحنين إلى البيت الذي نحلم به».

إلى الكويت

في التاسع من أيلول ١٩٦٢ غادرنا الأردن إلى الكويت.. «عند وصولنا، وأمام سلّم الطائرة، كان يقف المهندس ياسر عرفات في استقبالنا، مدّ يده باسماً للسلام، مُرحّباً بالعروس، قال لي خليل: هذا

هو الأخ ياسر عرفات الذي حدثتك عنه طويلاً، فقال الأخ ياسر عرفات: إنني أعرفكِ جيّداً، لقد حدّثني أخي خليل عنك كثيراً، وأهنئه على اختياره، وألف مبروك، وقال لي إن خليل أطلعه على إحدى رسائلي، وقام بوضع خط أحمر تحت بعض الجمل، إعجاباً بكلامي الوطني.. أنهينا معاملات الوصول، واصطحبنا الأخ ياسر عرفات بسيارته الفاخرة إلى منزل عمّنا محمود الوزير، وكان يعمل مدرساً في الكويت، وكان متزوجاً من مريم أبو رحمة، وكانت بيننا علاقة صداقة وانسجام».

"ربطتنا بعرفات علاقة صداقة قوية منذ البداية، كان يرافقنا في البحث عن سكن وأثاث، الأمر الذي شغلنا عدّة أيام بعد وصولنا. وأخيراً، ضمّنا البيت الدافئ أنا وخليل، سكنا منطقة حولّي، بالقرب من منزل ابن عمي محمود، كم كان بيتنا أنيقاً، جميلاً وبسيطاً. كان خليل يقول لي: يا انتصار وجودنا مؤقت هنا، يجب أن نضع في حسابنا أننا سننتقل بعد حين».

وكان عمل خليل الوزير في التدريس يأخذ حيزاً من وقته، كما مهامه التنظيمية.. "بدأ بتدريس المرحلة الابتدائية ثم الإعدادية، كان مدرس صف ويدرس جميع المواد.. اعتاد خليل الاستيقاظ مبكراً، يبدأ بالاستماع إلى نشرات أخبار الصباح عبر الراديو الصغير، ثم ينتقل إلى الحمام ليحلق ذقنه، وأنا أقف بقربه أراقب حركة فرشاة الحلاقة وهي تنشر الصابون على ذقنة من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى، في حركة سريعة، وهو يبتسم ويقول: النساء مرتاحات من هذا الروتين اليومي.. كان يحلو له أن يضمني إلى صدره، ويغمر وجهي بقبلاته الحارة، فينتقل الصابون إلى وجهي، ويضحك رغم احتجاجي (...) كان دوامه المدرسي على فترتين، وما أن يغادر المنزل حتى أجلس إلى طاولة الطعام وأمامي رزم من أعداد مجلة فلسطيننا، التي كان يحضرها هو والأخ ياسر عرفات من المطار كل أسبوعين إلى بيتنا، فأقوم بطي كل عدد، ولصق شريط من الورق حوله، أكتب الأسماء والعناوين، وأضع الطابع البريدي، وأجهز لإرسالها عبر البريد، كنت أشعر بسعادة الإنجاز.. كان خليل يعود أحياناً من المدرسة ليساعدني في طي المجلة، وأحياناً يذهب لمقابلة حركية، ثم يأتي إلى البيت ليتناول طعام الغداء مسرعاً، ليعود مجدداً إلى دوامه المسائي، وفي المساء، كان الأخ ياسر عرفات يزورنا يومياً، أحياناً يصطحبنا بجولة في السيارة، وأحياناً آخذ وعداً للخروج في جولة، ولكن الحوار والنقاش يطول غالباً، فنعدل عن الخروج».

"كان أبو عمار، حينها، يعمل مهندساً في الكويت، وقد أسس شركة مقاولات بشراكة أحد الأمراء الكويتيين، وكانت الشركة من أنجح الشركات حينها، حيث رست عليها عدة عطاءات مهمة ساهمت في تطوير البنية التحتية للكويت».

ولفتت انتصار الوزير: أصبح بيتنا المكون من غرفتين وصالة مقراً لاجتماعات حركة فتح.. في البداية،

كنتُ أحضر هذه الاجتماعات دون صفة رسمية، ولكن بعد عدة أشهر، تمت تسمية أعضاء اللجنة المركزية، وعندها توقفت عن حضور الاجتماعات.. كانت النقاشات تتناول هيكل البناء الثوري وبيان حركتنا، كما كانت تناقش الأوضاع التنظيمية وغيرها (...) بدأ تنظيم فتح بالانتشار، وكان لمجلة فلسطينيا نداء الحياة دور كبير في التعريف بأهدافها ومبادئها وخطها السياسي، وكان هناك الكثيرون من الشباب الفلسطيني في غزة والضفة والشتات ممن يعملون على تأسيس مجموعات ثورية هدفها تحرير فلسطين، حيث وصل عدد هذه المجموعات إلى أكثر من ٦٥ مجموعة، حملت أسماء متعددة، وبدأت حركة فتح حواراً معها، هي التي وجدت ضالتها في الحركة، فانضمت لها، كما حصل في البداية مع مجموعة محمود عباس، وأبو يوسف النجار، وسعيد المسحال، ورفيق النتشة في قطر، ومجموعة عبد الفتاح حمود، وكمال عدوان، وأحمد قريع، وماجد أبو شرار، ومحمد الأعرج، وسعيد المزين في السعودية.. وكانت لقاءات المجموعات في السعودية تتم في منطقة الخفجي الحدودية مع الكويت.

"أتذكر أنني، وبعد وصولي إلى الكويت، أجهضت حملي الأول، وبعد أن تأكد حملي للمرة الثانية، كان عليّ التوجه إلى المستشفى لأسابيع كل فترة، لمتابعة حالتي الصحية، وكان الأخ ياسر عرفات يأتي بسيارته كل يوم ليصحبني مع زوجي إلى المستشفى.. كان دائماً معنا، لا يفارقنا إلا في ساعات العمل، أو النوم، وقد كان بمثابة الأخ الكبير لنا».

أول خلية نسوية في «فتح»

المحاور التي تضمنها كتاب «رِفقة عمر» حول حقبة وجود انتصار وخليل الوزير في دمشق كثيرة جداً، لكن سنكون على موعد مع مختارات منها فحسب، أولها حول الخلية النسوية الأولى في حركة فتح.. «كان بيتنا في دمشق، كالعادة، مقر عمل وتنظيم واجتماعات، لم أسعَ للحصول على وظيفة تلك الفترة، لأنني كرست وقتي للعمل الحركي، حينها، كان تركيز الحركة على استقطاب الشباب الذكور دون الانتباه إلى ضرورة استقطاب الفتيات، وقد كنت وتوحيدة وافي الجزائر، الفتاتان الوحيدتان الملتزمتان بالحركة حينها، إلا أنني، وبعد وصولي إلى سورية، وزيارتي مخيم اليرموك، وبعد أن تعرفت إلى مجموعة من الفتيات اللواتي أبدين حماساً وطنيّاً ورغبة شديد بالالتحاق بالحركة، بدأت أفكر في ضرورة مشاركة المرأة في النضال، وتطوير دورها في الحركة.. كان أبو جهاد، في تلك الفترة، مكلفاً بملف التعبئة والتنظيم في اللجنة المركزية، وعندما طرحت عليه فكرة تنظيم الفتيات، شجعني على تطوير الفكرة، والبدء بالعمل على تنفيذها، لأنه كان مؤمناً بدور المرأة

الفلسكينية في الثورة والنضال، وعندما زارنا الأخ النقيب محمد حشمة، طرحت عليه الفكرة، وشجعني، خاصة أننا كنا نعمل في ساحة مفتوحة، وهناك إمكانيات لتنفيذها، فطلبت منه أن يرشح لي أسماء عدد من الفتيات موضع الثقة، وأن يقوم بترتيب مواعيد للقائهن».

وتابعت: بالفعل، حدد لي أول موعد مع الأخت لوسيا حجازي، الموظفة في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، وعندما التقينا وتحدثنا، كان لديها استعداد كبير للانضمام إلى حركة فتح.. كما التقينا الأخت وجدان عاصي، وكانت تشغل موقع مديرة مدرسة في وكالة الغوث، واجتمعنا في بيتي، وبعد نقاشات معمقة، شكلنا أول خلية نسوية في حركة فتح مكوّنة من الأخوات: لوسيا حجازي، ووجدان عاصي، وابتسام الترك، وحسنة بكداش، وأنا.. "أقسمت الأخوات يمين الولاء للحركة أمام أبو جهاد، وتم تكليفي بأمانة سر التنظيم النسائي الأول الذي امتد من دمشق حتى حلب، وقد استطعنا أن نستقطب العديد من الأخوات للتنظيم النسائي، ومنهن: الأخت مريم الأطرش، شقيقة الأخوين أحمد وزياد الأطرش، والتي التحقت بالحركة فور مغادرتها لبنان، بسبب الغضوط التي لحقت بعائلتها بعد اعتقال شقيقها أحمد، وأضيفت الأخت سهام أبو النور، والأخت عدوية الدجاني، وغيرهن».

"قدّم التنظيم النسائي خدمات للنساء في المخيم، وتمكنا، بمساعدة الأخ إبراهيم العلي، الذي كان قائد الجيش الشعبي السوري، من افتتاح نادي فتيات فلسطين في مخيم اليرموك، وهو نادٍ ثقافي واجتماعي وتأهيلي، والتحقت بالنادي المئات من الفتيات والسيدات الفلسطينيات للاستفادة من دروس الخياطة والتطريز والآلة الكاتبة، ومن ثم تطوّر عمل النادي ليشمل التدريب العسكري، وافتتحنا أول دورة للتدريب العسكري لمجموعة من الفتيات البالغ عددهن حوالي مئة وخمسين فتاة، في معسكر الزبداني، وكان المعسكر نهارياً، حيث تذهب إليه المتدربات في الصباح ويعدن في المساء، الساعة الخامسة، ثم يتفرقن إلى بيوتهن».

وفي أعقاب إبعاد فاروق القدومي من الكويت إلى دمشق، واستقر في سورية، كلف بملف التعبئة والتنظيم، وأوكل إلى خليل الوزير (أبو جهاد) ملف الإعلام في الحركة، فشكل «أبو اللطف» ما اتفق على تسميته «مكتب المرأة الحركي»، وضمّ تشكيله الأول كل من: انتصار الوزير، ولوسيا حجازي، ووجدان عاصي، وحسنة بكداش، ونبيلة النمر، ومريم الأطرش، وفاطمة العبد الله، وانتخبت الوزير أمينة سر للمكتب، ولوسيا حجازي نائبة، ومريم الأطرش مقررة.

"خلال العام ١٩٦٦، تمكنا من استقطاب آلاف الفتيات، كنا نزور المحافظات، ونعقد الندوات والمحاضرات، وندعو العديد من الإخوة في اللجنة المركزية لتقديم الندوات والدورات التثقيفية،

ومناقشة أوضاعنا التنظيمية، كما نظمنا رحلات ترفيهية للأخوات، وأذكر رحلة لا تنسى نظمناها إلى الجولان، حيث انطلقت بنا خمس حافلات إلى الجولان الذي كنا نزوره لأول مرة.. في الطريق صدحت أصوات الفتيات ينشدن الأهازيج الشعبية والأناشيد الوطنية، كم كان الجولان جميلاً بخضرته وأشجاره ومياهه، وفي بانياس انتشرت الفتيات بين الخضرة، وتقاسمنا العمل في مجموعات لتحضير الطعام، ثم انطلقت بنا الحافلات إلى منطقة الحمّة للاستحمام في المياه الساخنة، كانت رحلة لا تنسى، من أجمل رحلات العمر، تعززت خلالها علاقات الأخوّة والنضال بين المشاركات (...) بدأ دور المرأة الفلسطينية يبرز في النضال جنباً إلى جنب مع المناضلين الفلسطينيين، فقد كانت حشود المرأة الفتحاوية تتصدر المظاهرات والاحتجاجات، وهو ما برز جلياً عند استشهاد الأخ جلال كعوش تحت التعذيب على يد المكتب الثاني اللبناني (...) تم فرز عدد من الأخوات في اللجنة الاجتماعية لزيارة عائلات الشهداء والاطلاع على أوضاعهم، وتسليم المخصص الشهري لعائلة الشهيد، وتفقد أوضاع أولاده في المدارس، وفرز معلم أو معلمة لمساعدة المقصرين منهم، وأخذ الأطفال إلى طبيب عند الحاجة».

حرب حزيران

ومن ذكرياتها حول حرب حزيران ١٩٦٧ أنه «في ٤ حزيران ١٩٦٧، وفي أولى ساعات العدوان الإسرائيلي، أعلنت الحكومة السورية إغلاق أراضيها براً وجواً وبحراً.. كان أبو جهاد حينها في مهمة إلى سويسرا، لمقابلة جلالة الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية، بحيث وعد الملك خلال اللقاء بدعم حركة فتح بعشرة ملايين دولار، وهو أكبر مبلغ يصل الحركة حتى ذلك الوقت.. تم ترتيب اللقاء بواسطة الأخ فيصل المارك وهو سعودي الجنسية وعمل مستشاراً للملك فيصل، وكان مقيماً في سورية، كما كان صديقاً لحركة فتح وأبو جهاد وأبو عمار، وكان فيصل المارك يتبرع من ماله الخاص لدعم الحركة وتغطية العديد من الاحتياجات».

"كنت في داخلي أشعر بنوع من الراحة لغياب أبو جهاد بعيداً عن الحرب، حرصاً مني على سلامته، ومنذ بدايتها، تطوعت مع عدد من الأخوات في الاتحاد العام النسائي السوري للمساعدة، وجلسنا نقصّ الشاش لنعدّه للجرحى بأحجام مختلفة، كما طلبت من بعض أخواتنا الحضور إلى مقر الاتحاد للمساعدة».

وواصلت: «عدت مساءً إلى المنزل، ووجدت الجارة تقف بباب منزلها، ولمحت قرب الباب حقيبة أبو جهاد وسترته، قلت في نفسي: هل يعقل أنه عاد؟ وكيف عاد؟.. عندها قالت الجارة: لقد حضر أبو جهاد قبل قليل ولم يجدك في المنزل، فترك حقيبته وسترته عندي وخرج.. علمت فيما بعد أن

أبو جهاد كان قد ذهب إلى الجولان فور وصوله إلى الأراضي السورية، ولم أرهُ، ولم نلتقِ إلا بعد وقف إطلاق النار.. أخبرني لاحقاً أنه، بعد بدء العدوان، وهو في سويسرا، ركب الطائرة إلى تركيا، والتقى صدفة وزير الخارجية السوري إبراهيم ماخوس، وعادا معاً إلى الأراضي السورية (...) كانت الصدمة قاسية عندما أعلن سقوط الجولان السوري، فقد دارت هناك معارك طاحنة استبسل فيها الجنود السوريون، والكتيبة الفلسطينية التي كانت حينها في تل الفرس، حيث سقط العديد من ضباطها وجنودها شهداء وجرحى.. كان الجرحى ينقلون إلى المشافي في العاصمة، وكنا نزورهم في المستشفيات، ونساعد في إطعامهم، ورعايتهم والعناية بهم.

الانطلاقة الثانية

"(...) الشعب الفلسطيني فقد الأمل بالأنظمة العربية وجيوشها لتحرير فلسطين، في الوقت الذي قررت فيه حركة فتح وقيادة قوات العاصفة رفض الهزيمة والاستسلام، وبدأت العمل على انطلاقة جديدة، تعطي شعبنا الأمل بالحرية من خلال تحرير الأرض بالكفاح المسلح لتحرير كامل التراب الفلسطيني المحتل.. كانت فتح تسعى لتحقيق الانطلاق الثانية من خلال وضع آلية عمل داخلية لتعزز من الكفاح المسلح، من ناحية، وحشد الدعم، من ناحية أخرى، وتهيئة الأجواء، والحصول على تأييد للعمل، خاصة من مصر وسورية والعراق، وبالفعل أرسلت اللجنة المركزية مبعوثين إلى تلك الدول".

وحسب الوزير في مذكراتها: «صدرت التعليمات لكوادر فتح في قطاع غزة وسورية للعمل على جمع السلاح وتخزينه من الجبهة المصرية في سيناء، وكذلك من الجبهة السورية في الجولان، وطلب استعداد جميع قواعد الحركة للعمل العسكري. كان همّ الحركة، في حينه، مسح آثار النكسة، واستعادة الروح المعنوية، وشحذ الهمم، فدُعي أبناء الحركة في خارج فلسطين، من الذين يستطيعون العودة إلى الداخل، للعودة أفراداً ومجموعات صغيرة، في دوريات عن طريق نهر الأردن، والعمل على إعادة من نزحوا إلى الأردن أثناء الحرب إلى مدنهم وقراهم، إن أمكن. كانت التعليمات للكوادر صارمة، وكان الالتزام قوياً.. بدأت الدوريات المسلحة بالتسلل من سورية إلى الأردن، ثم إلى الضفة الغربية، واذكر كيف كان المقاتلون يحملون صناديق السلاح على أكتافهم، ويسيرون مسافات طويلة، وبسريّة تامة.. أذكر منهم ممدوح صيدم (أبو صبري)، وأبو علي إياد، وحمدان عاشور، وأبو إبراهيم عبود، وغيرهم الكثير، وقد سهّل مهتمهم، قائد القوات العراقية المتمركزة في مدينة المفرق الأردنية، حيث كان بمجرد وصولهم، يعطيهم ملابس الجيش العراقي للتمويه، وينقلهم بسيارات الجيش العراقي إلى القواعد التي بدأت تنتشر في الكرامة، وعلى طول الحدود مع فلسطين.. وساهم ذلك في ازدياد وتيرة عمل الدوريات وتسللها إلى فلسطين».

معركة الكرامة

ومما ذكرته الوزير عن معركة الكرامة، قولها: «في ليلة المعركة، كانت القيادة قد قررت إرسال أبو جهاد إلى سورية للحصول على مزيد من السلاح، ووصل أبو جهاد إلى دمشق، وقابل المسؤولين، ثم عاد مسرعاً إلى الكرامة، وفي فجر ٢١ آذار ١٩٦٨، بدأ زحف قوات العدو من محاور عدّة، فواجه المقاتلون من قوات العاصفة وقوات التحرير والجيش العربي الأردني تقدم العدو، ودفعوه إلى الانسحاب من أرض المعركة بعد أن مني بخسائر جسيمة مخلفاً وراءه عدداً من دباباته وآلياته في أرض المعركة .. كنتُ في دمشق أتابع أخبار المعركة بقلق، فقررت أن أتوجه إلى نادي فتيات فلسطين في مخيم اليرموك، حيث وجدت الأخوات يتابعن الأخبار مثلي بقلق شديد، فقررنا تشكيل فريق تمريض ليذهب إلى الأردن للمشاركة في المعركة، وكنا ٢١ امرأة ذهبنا إلى معسكر الهامة، وطلب إلى الأخ أبو علي إياد أن يؤمّن نقلنا إلى الأردن لنقوم بإسعاف جرحى المعركة.. قبل سفري بأيام، جاءت لزيارتي إحدى قريبات أبو جهاد، وكنت أتعرف عليها لأول مرة. رحبت بها في منزلي، وعندما قررنا الذهاب إلى الكرامة، طلبت منها رعاية الأولاد إلى حين عودتي.. وافقت السيدة وأخذت الأولاد، حيث كان عمر ابني جهاد خمسة أعوام تقريباً، وباسم ستة أشهر».

"غادرنا إلى الأردن، أنا ومجموعة من الأخوات، منهن: لوسيا حجازي، ونبيلة النمر (أم اللطف)، وجميلة صيدم، ومريم الأطرش، وعدوية الدجاني، وسهام أبو النور، ورندة الخالدي، وأخريات، وعند وصولنا إلى الحدود الأردنية، سمحت لنا السلطات الأردنية بدخول الأردن بورقة إجازة من حركة فتح تخولنا المرور بلا جوازات سفر..وصلنا إلى منطقة السلط، ولكن لم يسمح لنا بالتقدم، ولم نتمكن من الوصول إلى مواقع المعركة، ولكننا تمكنا في اليوم التالي من الوصول إلى الكرامة بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي، وقد ترك دباباته المحترقة في أرض المعركة.. وصلنا بينما النيران لا تزال مشتعلة في العديد من المنازل، والكثير منها مدمر.. توزعت مجموعتنا على المستشفيات لرعاية الجرحى الذين اختلفت خطورة إصابتهم، فهناك من أصيب برأسه ممن دخل غيبوبة، وهناك من فقد أحد أطرافه.. استمرت الفتيات بالاهتمام بالجرحى ورعايتهم فترة من الوقت، إلى أن نُقل المصابون بسيارات الإسعاف إلى دمشق».

في تونس

تحت هذا العنوان كتبت أم جهاد: ١٤ نيسان ١٩٨٨، قبل يومين من عملية الاغتيال، انقطعت الكهرباء، وكانت هذه أول مرة في تاريخ وجودنا في تونس.. كان أبو جهاد في الصالة يجلس مع ضيف، وأنا كنت نائمة في غرفتي في الطابق الثاني، وعندما استيقظت وجدت الكهرباء مقطوعة،

ولم أتمكن من النزول إليه بسبب العتمة، فناديت عليه من «رأس الدرج»: أبو جهاد، أبو جهاد، فصعد نحوي عند سماعه الصوت، قلت له: هل عندك ضيوف؟ قال: نعم، فقلت له: «دير بالك»، ولم يستمع إليّ، وعاد إلى ضيفه، وبعدها بقليل، جاء أحد الشباب ومعه شموع.. ارتديت ملابسي ونزلت لأجلس مع أبو جهاد وضيفه.. مباشرة بعد مغادرة الضيف، زارنا ضيف آخر، وهو الأخ جبريل الرجوب، وكان مُبعداً من الأرض المحتلة.. جلسنا معه حتى الرابعة صباحاً، نتحدث عن الأرض المحتلة والانتفاضة وأطفال الحجارة، وبعد مغادرته، صعدنا الدرج معاً.. توقف أبو جهاد ليسألني: لماذا ناديتِ عندما انقطع التيار الكهربائي؟، فقلت له: لا أعرف، خشيت عليك، فقال لي: هل تعلمين؟ أخشى أن يكون ما حدث بمنزلة اختبار، فقلت له: يا حبيبي، أرجوك لا تبقى هنا ولا حتى الليلة، لا تنم هنا، اتصل بأحد الشباب لنقلك إلى مكان آخر، فردّ علي: لا تخافي، سأسافر غداً».

"في اليوم التالي، ١٥ نيسان ١٩٨٨، استيقظ أبو جهاد باكراً كعادته، وبينما يرتدي الملابس مجهزاً نفسه للخروج، رآني وأنا متسمرة أمام شاشة التلفاز، أشاهد شريطاً قد أحضره له أحد الصحافيين عن الانتفاضة.. كانت الدموع تنمهر من عيني وأنا أشاهد جنازة أحد الشهداء، وحزن والديه أثناء تشييعه، فأمسكني بقوة وهزّني، وقال: إياكِ أن تبكي وتنهاري أمام شعبنا إذا استشهدتُ، ثم بدأ يسرد لي حلماً رآه تلك الليلة، فقال: حلمتُ الليلة أن الإسرائيليين يلاحقونني، وأنا أحمل مسدسي، وعندما حاولتُ إطلاق النار عليهم سقط مني المسدس على الأرض وتكسّر.. هزني الحلم، وشعرت بالخوف عليه، لكني سألته ضاحكة لأخفف عنه: أنت دائماً تحلم أن الإسرائيليين يلاحقون، ولكن قل لي، اين كانوا يلاحقونك؟ في أي بلد؟، فأجاب: في الرملة، فقلت له: أرجوك أترك البلد وسافر.. انشغل أبو جهاد طوال اليوم بالتحضير لاجتماع مؤسسة الرعاية الاجتماعية والثقافية العربية، وهي مؤسسة عمل أبو جهاد على تأسيسها بهدف تعزيز إرادة البقاء والنمو والتطور لدى مجتمع عرب فلسطين المحتلة العام ١٩٤٨، دعم إرادة التمسك بالهوية الوطنية الفلسطينية، كما ترمي إلى صيانة التراث الوطني وإحيائه، ورفع المستوى المعيشي والاجتماعي والثقافي والتنموي، والارتقاء بالمستوى الحضاري لشعبنا، وتنمية مؤسساته، والنهوض بحوانب حياته للمحافظة على إحيائه علمياً وثقافياً واجتماعياً وحضارياً، وتقديم جميع ما يهيئ لهذا الشعب التمسك بوطنه، والتصدي لمخططات تصفية عروبته وفلسطينيته.. عقد أبو جهاد في ذلك المساء الاجتماع التأسيسي للمؤسسة.. استمر الاجتماع من الخامسة وحتى الثامنة مساءً، ذهب بعدها أبو جهاد لملاقاة الأخ فاروق القدومي (أبو اللطف)، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، ورئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير».

ليلة الاغتيال

"كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً عندما عدت من الخارج لأجده قد وصل، وقد سبقني بعشر دقائق إلى البيت، صعدت مسرعة إلى الطابق العلوي، ودخلت غرفة النوم، ووجدته يجلس خلف مكتبه، وكنت أحمل بيدي بعض الحلوى الفلسطينية، فقال: ماذا أحضرت معك؟.. قلت: "حِلبة"، فقال: أكيد هي من أختنا أم صبري، قلت له: نعم، فقال لي إنه يشعر بالجوع، ويريد أن يتناول العشاء.. أسرعت بإحضار العشاء، وجلسنا لنأكل ونتحدث عن يومنا، حدثني عن اجتماعه وعن زيارته للأخ أبو اللطف، وعن آخر تطورات الوضع في الأرض المحتلة والانتفاضة.. تحدثنا معاً حول العديد من القضايا، وكان يطلب مني أن أجري له بعض الاتصالات مع بعض الكوادر في الخارج، ثم تلقى مكالمة هاتفية، أبلغه المتحدث فيها أن القوات الإسرائيلية اعتقلت فايز أبو رحمة في غزة، وهو مناضل فلسطيني، وابن عمتنا.. استغرب أبو جهاد من عملية الاعتقال هذه فقد كان فايز أبو رحمة ناشطاً سياسياً من أجل السلام، ولديه علاقات دولية واسعة، فطلب مني الاتصال بأحد الإخوة في إيطاليا للاستفسار عن الوضع والحصول على تفاصيل أكثر، بعد اتصالهم مع الداخل، واستمرينا بإجراء اتصالات حتى الساعة الثانية عشر والنصف ليلاً».

وتابعت الوزير: كانت ابنتي حنان تجلس معنا، بينما نام طفلنا نضال في سريره بجانبنا، وأبو جهاد يجلس خلف مكتبه في الغرفة يرتب أوراقه ويكتب، ويتلقى الاتصالات، وحنان تقرأ له رسالة وصلته من مخرج أفلام أميركي أراد إخراج فيلم عن أبو عمار، من بطولة الممثل أنتوني كوين الذي أدّى سابقاً دور البطولة في فيلم عمر المختار.. كنت أجلس على السرير عندما سألته: «ما بدك تنام؟ ما بدك ترتاح؟، فقال لي إنه مشغول، وسيكتب رسالة إلى القيادة الوطنية الموحدة للانفاضة».

وتحت عنوان «لحظة الصفر»، كتبت الوزير: بينما كان أبو جهاد يجلس خلف مكتبه، استيقظتُ على صوت هرولة الأقدام الهمجية وهي تصعد الدرج، بعد أن تمكنوا من اقتحام المنزل وكسر قفل الباب، كانوا يصرخون صرخة العسكر عند الاقتحام، في تلك اللحظة أزاح أبو جهاد طاولة مكتبه، وركض مسرعاً نحو الخزانة وأخذ مسدسه، فركضت خلفه نحو مدخل الغرفة وصرت بجانبه وأنا أردد «فردان! فردان!»، مستذكرة ليلة اغتيال القادة الثلاثة: كمال عدوان، وأبو يوسف النجار، وكمال عدوان.. وسط هذا الصراخ، خرجت أنا وخليل إلى باب غرفة النوم، حيث يوجد ممر مستطيل الشكل عرضه متر، يفصله عن ممر الطابق العلوي باب زجاجي، كان مفتوحاً حينها، وفوجئنا بأربعة أشخاص ملثمين بكامل عتادهم العسكري أمامنا، أطلق عليهم أبو جهاد النار فتراجعوا إلى الخلف، وبسرعة، أبعدني أبو جهاد عنه إلى الزاوية المقابلة، بينما بقي هو في الزاوية الأخرى، عندها عاد أحد المسلحين وأطلق عليه النار، فأصابه في يده وصدره وقلبه، فوقع مسدسه

من يده وانكسر».

"رفقة عُمْر» كتابٌ للذاكرة، الذاكرة الفلسطينية الجمعية، يوثّق لرمزٍ من رموز المقاومة، وواحدٍ من سادة شهدائها، يأتي بخط يد شريكة نضاله، ما يؤكد أن السيرة أطول من العمر، وأن المسيرة لن يوقِفَها شبحٌ ملثّمٌ أو مسدسٌ في الظلام. كتاب أطلقته صاحبته، مؤخراً، في مكتبة الأرشيف بالعاصمة الأردنية عمّان، حيث وجهت الشكر للروائي والكاتب والمناضل يحيى يخلف لدوره في خروجه إلى العلن، كما الكاتب والباحث معين الطاهر، والكاتب والأكاديمي أحمد جميل عزم، وغيرهم.

الموت في السيرة الذاتية الفلسطينية دراسة في بلاغة الخطاب

أحمد عزيز

تُشكل قضية الموت بكل حمولاتها الدلالية وثقلها النفسي، وبكل زخمها الفكري والتأملي، وبكل ايحاءاتها المثيرة والغامضة والمُلغَّزة والمرعبة والخطيرة مشكلة وجودية للمصير الإنساني، وتُثير الكثير من التساؤلات والمراجعات الفلسفية لحقيقة تشمل كل الناس بوقوعها الثابت وحتميتها النهائية، في إطار دورة الحياة من البداية إلى النهاية، ومن الحركة إلى التَّوقف عنها؛ فكل حياة تنتهي بموت؛ فكلاهما يشترط الآخر، وكل بداية في الحياة لها نهاية مرتبطة بزمان مجهول وعالم غائب.

ويظلُّ الموت محل سؤال وصراع؛ فهو الحقيقة التي يحاول الإنسان محاورتها لكشف أسرارها، والاقتراب من عوالمها المجهولة والمُحيرة، لكنها محاولات تظل تراوح في دائرة المحدود والموجود مهما ابتعدت في التفسير والتعليل، ذلك أنَّ « الموت هو الحد النهائي الذي يتحدى القيم، ويُكذب شتى مزاعم الإنسان، ويُلقي على كل ما في وجودنا من آمال ظلال الفناء الأسود البغيض»١، وتكشف جدلية الحياة والموت عن مظهرين متعارضين، ولكنهما متكاملين في ذات الوقت، لأنهما يقومان على النَّفي من جهة، وعلى الشَّرطية التبادلية من جهة ثانية، ولكن «احتمال الموت يجعلك أكثر قدرة على مراقبة تمثيلات الأحياء لترتيب مستقبل حياتهم، وما فيها من سذاجة وطفولة»٢؛ حيث تُتيح هذه التجربة رؤية العالم وقراءته من جديد، وإعادة النظر في الحياة في ضوء المتغيرات المفروضة التي يواجهها الإنسان.

لا تكادُ تخلو سيرة ذاتية من سيرة الموت وصوره وأحداثه المتنوعة، وهناك مَن يرى أنَّ «الموت أبو السيرة الذاتية: يستدعيها ويخلقها»٣، وآخر يرى أنَّ «أحد الدوافع الأساسية عند مؤلف السيرة الذاتية الانتصار على الموت»٤، ولعلَّ الأسئلة الوجودية المتعلقة بالموت، تجد في السيرة الذاتية الفضاء الملائم للطرح والتناول من خلال سيرة الذات وعلاقتها مع فضاءات السيرة التي تنفتح على سيرة الآخر وتجاربه.

تتعدد صور التعامل مع الموت في خطاب السيرة الذاتية الفلسطينية؛ فهي ترسم تجارب الأنا والآخر، وترى في كل صورة فلسفة وجودية ورؤية عن ثنائية الحياة والموت، بما فيها من تصورات وتأملات وحوارات وتساؤلات، وبعضها صورٌ إنسانية تضجُّ بالتفجع والألم، تدعو لمراجعة مفهوم الموت وتأويلاته الوجودية، وهُنا نسلط الضوء على أبرز هذه الصور وأقواها حضوراً.

رحلة الألم:
لُعبة الألم

في سيرته الغارقة في التعامل مع الموت يَحسِبُ (حسين البرغوثي) في تصوره للمرض وتحمُّل آلامه، بأنه شأنٌ شخصي، والإحساس به شعور خاص لا يستوجب المشاركة والمقاسمة، وهو يتدبره لوحده، ويُقصي الآخرين عن معاناته، ويَعتبرُ المرض فضاءه الذاتي وعالمه الحصري الذي يرى فيه ممارسة وجودية يتفهمها عبر تأملاته الروحية واستسلامه لإرادة الله، وحتى يتحقق له ذلك يُنكر ذاته وَتَهون عليه أمام سلامة أسرته (الابن والزوجة) وخلوهما من المرض «ليس المهم أنا "٥، ويحاول أن يُشخص المرض الذي أصابه ويتعرف عليه جسدياً ونفسياً مُعتمداً على مشاعره القلبية، فتتنازعه فكرتي الفوضى والنظام، ويعتقد أنَّ للفوضى نظام يضبط حالته المرضية «المرض: فوضى في قلبي وفي خارجه. لكن لا توجد فوضى، بل نظام آخر للأشياء، ربَّما»٦، وتعزُّ عليه حالته التي وصل إليها بعد تاريخ حافل بالمجد الشخصي؛ فيتمثلُ الجبل الشاهق في قوته وصلابته ومنعته وعظمته وهالته، ويفجعه المرض الخبيث «لقد مرض الجبل بالسَّرطان!»٧؛ فقد كان يرى في ذاته مشروعاً عظيماً في الثقافة والأدب، لكنَّ المرض الخبيث يفعل فعله في الجسد، ويكسر تدفق الطاقة إليه، ويكشف ضعف الإنسان وعجزه مهما بلغت قوته، ويتركُ أثراً عميقاً على حياته ونشاطه وحركته، ويستهلكه كدورة الزمن والحياة «والمرض، كالزَّمن، «يكسر الزوايا الحادَّة» فينا جميعاً. فبدوتُ في نظر نفسي ظلَّاً مُقمراً أحمر آخر، واقفاً فوق صخرة عند «خط الشفا»، وقد تأخذه هبَّة من هواء، أو تحمله أُغنية ناعمة»٨.

يتصاعد الإحساس بثقل الزمن عند (حسين البرغوثي) ويدهمه الموت، ويرتهن إلى المجهول بالتَّرقب الرَّهيب والتوتر العالي، والحالات الشعورية التي تُصاحبه وتتجاذبه بين جدليات التفاؤل والتشاؤم والنجاة والموت، ويبحث بين ذلك عن حالة توازن تُنقذه من الانهيار والاستسلام «الانتظار مرعب، انتظار نتائج الفحوصات. جسمي نفسه كان يتصلَّب، وتقلُّ حركته، ولا بُكاء ولا فرح، مشروع تمثال. ولِمَن ينتقل من مستشفى إلى آخر، وينتظر قدره، مثلي، كل « كيمياء الروح» فيه تستند إلى أيَّة قوة مغناطيسيَّة هي الأقوى في قلبه: الأمل أم سينما الهلاك»٩

ويظهر الأمل في مواجهة الألم قيمة ضرورية للحياة، تجعل لها معنى، وتبعثُ في النفس قوة تناهض كل ما هو عكس الحياة من فناء وزوال، وفقدان الأمل والرجاء شعورُ مُخيف يُدخل المريض في فضاء الموت وتفاعلاته الرهيبة؛ فيعمد حسين البرغوثي إلى مخاطبة الذات عبر تداخلات خطابية لعوالم الطبيعة، لتعزيز ما تبقى له من مراكز قوة وصلابة وتماسك «وشيء في الجبل كان يقول لي، كلما حدقت في الزيتون والاودية المُقمِرة: وحتى ولو بقيت لك سنتان للعيش، فإنَّ سنتين هنا أعمق من قرنيين «هناك. قاوم! هذه الأرض لك، قاوم! كنت واقفاً أمام الشباك، مطلاً على الحرش، والصنوبر واللوز، وخطر ببالي أنَّ بترا زوجتي، ستنهار إن انهرت، « قاوم لا لأجلك قاوم». وشعرت بأنّ الجبل يهتف بي: « قل لها، مهما حدث، إن زرتِني سأكون بين اللوز! ستكون شمس، ويكون نُوّار يتطاير في الهواء، وتكون جنائن، ويكون نحل وطريق نحل، وحتى يأتي ذلك الوقت، قاوم» ١٠وخطاب الذات والهتاف الداخلي من أكثر الخطابات دِفئاً وترجمةً لمشاعر الايمان الداخلية التي تحاول السيطرة على الذات وخلق توازناتها في صراعاتها المتلاحقة والمتناسلة؛ فيصرخ من داخله بحثاً عن ذاته، وعن معاني الثبات والصمود (الدَّعم بالمونولوج).

رائحة الموت

يُلازم (حسين البرغوثي) بعد تدهور وضعه الصحي الشعور بالموت والاقتراب منه، وكانت تخالطه الكثير من الأفكار المندفعة، لكن تحاصره فكرة الوطن وتُقيده «شعرت برائحة موت في الجو، ومات وجهي. لا أعتقد بأنّ أحداً سمع عن «موت الوجوه» بعد. وجهي مات. قُلتُ لبترا أنَّ علينا، أنا وهي وآثر، أن نُهاجر، إلى كندا، ربَّما، قبل أن تنتشر رائحة الموت أكثر. الفرار! لكن فلسطين قفص»١١، والخوف من الموت والشعور بِدُنُوه تجربة لها تداعياتها المرعبة لدى الحالات المرضية المُعضلة، وتعكس التحولات والتغيُّرات العميقة في تفكير الإنسان، والتي قد تدفع به للغرائبية والعجائبية منها، وللوجه قراءات؛ فهو خطاب النفس ومرآتها العاكسة، بالإضافة إلى الإثارة التي تقع للمُتلقي عبر سردية الموت ورائحته النافذة، وقد جاء على لسان حسين البرغوثي في واحدة من مقالاته التأملية «أعتقد أنني خبير في قراءة الوجوه، والاعتقاد ليس بالضرورة حقيقة، لكن قراءة الوجوه معترف بها»١٢

تزدادُ وطأةُ المرض، ومصارعة الموت وخيالاته عند (حسين البرغوثي) "بالكاد أتنفس، بسبب من ورم جديد في الرّئة، وأُطلُّ على شبح الموت"١٣؛ إلا أنَّ تلك الأطياف لم تمنعه من الإدراك الحسي البعيد، وفتحت آفاقاً لرؤية ما التبس عليه، وكشفت أمامه حقائق بوضوحٍ شديد؛ فهو الشاعر الرقيق، والفيلسوف العميق، المفعم بالإحساس «السرطان رسّامٌ جعل اللامرئي في عينيّ مرئيًّا، حين يلتقي

الفنُّ والحب والموت في الرُّوح»١٤، ويبدو المرض هُنا كشَّافٌ لحجاب الحياة، ومِفتاحٌ لمغاليقها، وكلما اشتدَّ زادت الرؤية وتجلَّت صورها وأبعادها المستورة.

ونجدُ في كتاب الذات عينها كآخر لبول ريكور ثلاث درجات للسلبية الجسدية (الفلسفات الكُبرى للجسد) وقد تمَّ تلمسها وتتبعها في حالة (حسين البرغوثي) في الدرجة الأولى يشير الجسم إلى المقاومة التي ترضخ أمام المجهود (المثل النموذجي الاستبدالي) جسم طيع منقاد، ودرجة ثانية من السلبية تمثلها تقلبات الأمزجة - الانطباعات باليسر أو العسر(السلبية هنا تصبح الغريب والمعادي) وثمة درجة ثالثة للسلبية تدل عليها مقاومة الأشياء الخارجية بالملامسة النشطة الإيجابية (المقاومة)١٥، وقد مرَّ (حسين البرغوثي) بالدرجات السلبية الثلاث، ومن الجدير ذكره أنَّ سيرة (سأكون بين اللوز) ولدت من رحم الألم وسطوة الموت، ومن صميم التجربة الحية التي خاضها (حسين البرغوثي) والتي أحدثت انعطافاً حاداً في مسار حياته، ولعل « تأمل الموت من داخل الكتابة تجعله أقل صدمة وإيلاماً لأننا في عالم الأدب نستطيع رسم شخصية لا تخشى الموت١٦"، ويعتقد (حسين البرغوثي) أنَّ القيمة الحقيقية للحياة في الأنا الفاعلة المؤثرة، وفي مواجهة التحديات والتَّصدي لها «خسارة، قلت لنفسي، أن تمر على سطح الأرض، ولا تُغيّر شيئاً، أو تترك أثراً، خسارة يا ابن هذا الإرث العظيم! خسارة أن تُولد وتموت في زمن مهزوم، بوعي مهزوم وخائف»١٧ وأعتقدُ أنَّ الأديب الفلسطيني (غسان كنفاني) قد مثَّل ذلك في دعوته المشهورة (اصنع لنفسك فكرة قبل أن تموت) وأيضاً الكتابة مسرحٌ للشجاعة وتمجيدٌ للذات «والسؤال، عندي ليس متى أو كيف أموت، ولا حتّى ثُنائية الأمل والهلاك، بل ماذا سأخلق من نفسي، الآن كي تكون نهايتي احتفالاً سامياً ببداياتي»١٨ ؛ فيظهر (حسين البرغوثي) عبر الكتابة أكثر شجاعةً في مُلاقاة الموت، كأنه شخصيةٌ أخرى ف»إذا كان الموت يقترح نفسه كمحو فالكتابة تقدم ذاتها كآخر»١٩ والكتابة تُخلد الذات، وتتجاوز العَدم «إذ بها يصنع الكاتب ذاتاً سرمدية نكاية بالذات البيولوجية السريعة العطب»٢٠ وفي ذلك استبعاد للحظة الموت، وتخليداً للنفس من خلال الأثر الكتابي، ولعل أقوى دافعيات الكتابة الشعور بجدارة الحياة والإحساس بالانتماء الدائم لها.

شغلت أسئلة الموت حسين البرغوثي، وقد حاول تقديم الإجابات من عمق تجربته مع المرض الذي تَحوَّلَ في حياته إلى دراما سريعة تختزل الزمن وتُكَثفهُ لإدراك هذه الحقيقة الغامضة وفك بعض ألغازها، رغم ذلك «كانت الأسئلة، ورغبته الحارقة في نقاشٍ أعلى من الكلام عن المرض والعلاج، طريقته في إضفاء المعنى على ما تبقى له من وقت قبل الرحيل»٢١؛ فهو في هذه السيرة الوجودية التي سردت آخر أيامه يحاول البحث عن مصيره، والتَّفلت من ظرفه الإنساني، وتثبيت ذاته وأسْطَرتها، وتحديد مكان له في أحضان الطبيعة بين اللوز، لِما لهذه الشجرة من مكانة رفيعة ودلالات وذكريات، ورمزية في الواقع النضالي الفلسطيني، بالإضافة إلى ارتباطه الوثيق بالطبيعة والبريَّة التي تشده دائماً

إلى طفولته ومغامراته واكتشافاته المعرفية الأولى؛ فالطبيعة مُلهمته ومعلمته الأولى، وليس غريباً أن يعود إلى أحضانها، وما تمنحك إياه الطبيعة ينزرع في الذاكرة وينغرس في أعماقها.

وسأكونُ بين اللوز لم يمنع تجسيمها لرحلة عذاب فردية من أن تكون إعلامٌ بالاستمرار والخلود، والبحث عن الراحة الأبدية في زمن الطبيعة الواسع، بحثاً عن حياة مجازية لا تنتهي ولا تتوقف، وتشبثاً بالوجود، وسأكون بين اللوز هي الأمل في حياة أُخرى تُحقق له البقاء، وحسين البرغوثي بذلك لا يُعاند الموت، وإنما يسعى إلى السلام والدّعة والتجدد والأزلية، ذلك أنَّ «معظم الذين يعتقدون بالأزلية الفردية، حين يتحدثون عن جسد في حياة مستقبلية، يبدو أنهم يُميزون بين الجسد والنفس لكن حين يضع المرء معاً كل تمثيلاتهم وآرائهم، يبدو أنهم يُمثلون النفس كشيء جسدي نوعاً ما»٢٢ وهذا كله يقودنا إلى أفكار حسين الميثولوجية التي تشبعت بها حياته، وانغماسه في الأساطير والملاحم العالمية التي وشَّحَت كتاباته المتنوعة، مما جعل من رحلة جلجامش نحو الخلود والتي تمتلئ بالمغامرات والمخاطرات، موازاة لرحلته مع المرض وظلال الموت؛ حيث موت الإله يبعث الحياة في صور جديدة؛ فالموت بوابة البطل إلى الخلود في التراجيديا الإغريقية، وحسين هُنَا يُشَيدُ عالماً أُسطوريا يتغلب فيه على الموت، ويتأمثلُ في رحيله قول المتنبي: «وفي الموت مِن بعد الرحيل رحيل» ويتقوى حسين بالكتابة؛ فيُبدع خطاباً تحت وطأة الموت الذي كان يعيشه ويحمله بداخله، ويرسم صورةً زمكانية للحياة بعد الموت، يستمدُّ منها طاقته لمقاومة المرض؛ فالكتابة فِعلُ مقاومة وتحفيز على المجابهة؛ ف«بتأمل الموت عبر الكتابة نتعلم كيف نموت ونربي أنفسنا على مواجهة ذلك المصير»٢٣ والموت الذي ينتظر حسين البرغوثي هو ما جعل من الرَّغبة في السرد شيئاً مُلحاً لمقاومة اللحظة الراهنة، والبحث عن زمن جديد ومكان جديد، ويمكن القول إنَّ سيرته قد تحولت في سردها الفلسفي التأملي العميق إلى مرثية ذاتية، وهو يرقب تلاشي الذات، وحصار الوقت وانهيار الجسد.

يرى جورج مَاي في كتابه السيرة الذاتية، أنَّ إيجاد البديل للزمن الهارب والموت الداهم هو أحد دوافع كتابة السيرة التي تُضاف إلى الدوافع العقلانية المنطقية والدوافع العاطفية الانفعالية، ويتصور أنَّ أكثر السير الذاتية هي محاولات يائسة للانتصار على الزمان والموت، ويظهر في أغلب الحالات أنَّ مؤلف السيرة الذاتية نفسه لا يعي هذا العامل على الرغم من أنَّ الدلائل جميعها تشهد على أنَّ هذا العامل هو الذي يُملي عليه كتابه ٢٤

عبور الموت / الموت المتحرك

بالنداء القريب المُحبب يرثي (المتوكل طه) صديقه عزَّت الغَزَّاوي٢٥ الذي عاش الصدمة الممتدة في

الزمان على رحيل ابنه الشهيد، وهي صورةٌ عن الموت وفي حضرته؛ فالصورة تُعيد انتاج ذاتها عبر تصورات الموت وأفكاره المُتصادمة التي تلازم عزت الغزاوي، وهي ترسم مشاعر الفقدان والأسى التي يصعبُ تجاوزها أو تخطيها بعد غياب الإبن؛ فهو الغياب الذي وضعه في أسئلة الموت وفي الحذر من قدومه، واستيعابه يبدو صعباً وقاسياً رغم رِهانه على التَّغلب عليه «يا عِزَّت. أعرف أن هاجس الموت كان ظلك المُرِيْب الذي تراه، وربما تتحاشاه، لكنه يتبعك دون تعب. وأعلمُ أنَّكَ لم تكن تخاف الموت، لأنَّك كما قُلت: (لقد استطاع ابني رامي أن يعبر الموت، واستطاع أن يحتمله، فكيفَ لا أحتمله... أنا أبوه؟)»٢٦، ويحاول النص قراءة الألم وتصوير مشاعر الأُبوة، وكيف تشكَّل وعي عزَّت حول الموت الذي لم ينجح في التصالح معه أو تقبله، و(المتوكل طه) يفجع بموت صديقه الذي يعاود مناداته عن قرب، إشارة إلى تأثره الشديد بموته، ولا يُخفي تعلقه بصديقه الإنسان والأديب «يا عِزَّت! لقد كُنتَ قاسياً في موتك، كأنك تريدُ أن تقلب طاولة حياتك الشَفيفة الهادئة الشجيَّة الوديعة٢٧"

إنَّ شِدَّة انبهار (المتوكل طه) بصديقه المبدع في مسارات حياته الشخصية والفنية يظهر جلياً؛ فهو الإنسان الرقيق الحسَّاس الذي تميَّزت انتاجاته الأدبية بشاعرية اللغة وجمالها وطاقتها التعبيرية العالية، وهي قد عكست جوّانيته ومسلكيته التي أحبها المتوكل طه، وغيابه شكل صحوةً وجودية وإنذاراً قوياً، لإعادة قراءة الحياة من جديد «رُبَّما كان الموت، في اختطافه «عِزَّت»، قد دوَّى بجرسه الهائل، حتى صمَّ آذاننا، لنستيقظ من غفلة الموت المتحرك»٢٨

الموت وفضاء الموروث الشعبي:
خميس الأموات

يرتبط الموت بطقوس وممارسات ومعتقدات شعبية موسمية في المجتمع الفلسطيني، وهي من أشكال تراث الموت التي خبَت ممارساتها مع الأيام؛ فقد درجت عليها العادات والتقاليد في البيئات الفلسطينية المتنوعة، وغالباً ما ارتبطت بالطبيعة وبعض موجوداتها، وبمقامات وأسماء أعلام دينية كَمَوسم النبي موسى بالقرب من مدينة أريحا، وموسم النبي صالح في مدينة الرملة، ومنها ما يُعرف بخميسيات شهر نيسان، والتي منها خميس الأموات أو خميس البيض، وهو يومٌ أو عيدُ احتفالي له شعائره ومظاهره المرتبطة بموسم الربيع الذي تتجلى فيه الطبيعة بأبهى صورها وأزهى ألوانها؛ حيث الخُضرة والحيوية والتَّفتح والتَّجدد. فيه يؤم الناس المقامات الدينية وأضرحة الأولياء طلباً للبَركة والتطَّهر، ويزورون المقابر ترحماً على الموتى، ويتخلل ذلك كله توزيع البيض الملوّن، وتقديم صدقة الحلوى، ومن مظاهر هذا اليوم تلاقي وتجمع العائلات، واصطحاب الأطفال لهذه

المناسبة التي تتحول إلى احتفال شعبي، ويُؤصل (حسين البرغوثي) لهذا اليوم الذي يمتد عميقاً في تاريخ الشعوب، «كان من عادات نساء قبيلتنا، أيامها، أن يحتفلنَ بـ «خميس الأموات»، خميس وثني الجذور، سحيق القِدَم، من أعياد الربيع والبعث. كُنَّ يَسْلِقنَ بيضاً كثيراً في ماء يغلي فيه قشور البصل الحمراء {...} ويوزعنَ البيضَ والحلوى والخبز على الأطفال، ويأملن أن ينبعثَ موتاهن كما ينبعث العشب حين يشقُّ قشرة التراب»٢٩، كما تختلف مسمياته وتمثلاته الطقوسية كيوم شَم النسيم في مصر، بالإضافة لقداسة هذا اليوم عند الفراعنة والكنعانيين، والطوائف المسيحية.

وصية الأموات

ومن المضامين الاجتماعية التي تتعلق بالموروث الشعبي ومراسم الموت، حرص بعض الناس على ترك وصية لذويهم، لتنفيذها عند الموت، بإرفاق محتويات شخصية قيّمة معهم في القبر ليستأنسوا بها، أو إلباسهم ملابس مُميزة وجميلة تناسب الموقف وجدارة اللقاء، كالنموذج الذي يسوقه (حنّا أبو حنّا) «هذه الجدة تتعامل مع الموت تعاملاً واقعياً؛ فهو حقٌّ، وعادل لا يُحابي أحداً ولا يفلت منه أحد. ولذلك فإنَّ «الذّهبه" ذلك الثوب الجديد الذي كرَّسته لموتها حاضر في الخِزانة تُزَفُّ به إلى ملاك الموت في أيّ حين. المهم أن يكون منظرها لائقاً كريماً في رحلة الوداع"٣٠، وهو شكل من أشكال الاستعداد للموت.

سُخرية الأموات

ولم تخلُ سيرة الموت من سخرية أو تندُّر؛ فبعض الحكايات الشعبية المروية عن نوادر الموت تندرجُ في فن الإضحاك، والفُكاهة التي يُجيدها مَن يُعرفون بِخفةِ الظل، وهي صورة ضاحكة في حضرة الموت رغم رهبته «للموت وجوه عديدة. عندما ماتت أمّ سليم العيَّاش، وكانت فوق الثمانين، أخذ الإمام يُلقنها: «وإذا جاءك المَلَكان...» صاح به ابنها سليم: «قوّ صوتك يا شيخ، الخِتْيَارَه سمعها ثقيل». فانفجر الذين في الجنازة ضاحكين»٣١

الموت والفضاءات المتنوعة:
فُكاهة الموت

بواقعية ناقدة ينظر (مُريد البرغوثي) للموت الذي يرفض صورته العبثية، رغم تقابلها مع صور الثبات والجرأة والإقدام؛ فثمة خيط بسيط بين الشجاعة والتَّهور؛ فهو ينطلقُ من أنَّه يجب أن تكون للموت

قيمة وجدوى في حالة المقاومة الفلسطينية؛ فلا تضيعُ تضحيات الفلسطينيين هدراً وسُدى، لأنَّ تكلفة الموت عالية، ولا يُستهان بها، وهو يدعو إلى الحكمة والتَّعقل في المواقف البطولية، ويرى في «العدمية الوجودية» تبديداً للموارد البشرية، ونسفاً لقيم المقاومة، وتجسيداً للفشل والإحباط، وهي صورة تَستنفر فينا قوى العقل، وتُرجحها على العاطفة التي تنساق لموج الفعل الذي يرتدُّ بلا فائدة «نعم أقصد ذلك النوع النادر من فُكاهة الموت، فكاهة الجنازات! من المعروف أنَّ النضال الطويل الذي يستهلك عشَرات السنين وأعمار الناس يترك ظلالاً من الشجاعة والتَّحمُل ولكنه يترك أيضاً ظلالاً من العدميَّة والسُّخرية من المصائر المتاحة التي لا رادَّ لها. ويزيد من ذلك التراجع المتواصل بعد كل محاولة للتقدم إلى الأمام. هنا تُصبح السُّخرية جزءاً من سيكولوجيا الاستمرار في المسعى رغم تعثُّره المتكرر»٣٢، وبين صناعة الموت وصناعة الحياة تتراءى في النص قيمٌ وجودية عُليا تحرص على تثمين الحياة قبل فواتها، لأنَّ المقاومة لا تعني الذهاب للموت، وإنما صناعة الحياة وتمجيدها، وهو يرفض دفع الشعب الفلسطيني إلى أتون التضحيات الاستعراضية، حيث يتحول الموت إلى استثمارٍ ومُقاولة، ورحلة سيزيفية، ونَجدُ في الخطاب دعوة صريحة للتعامل بجدية مع فلسفة الموت.

الموت الجميل

يتكئ «وليد سيف» على موقف احتجاجي يناهض الموت؛ فيسائل قسوة الواقع ومفارقاته، وإشكالية صناعة الحياة عبر الموت «لِم يكون علينا أن نُمجد الموت بوصفه سبيل الحياة؟ لِم لا نستطيع أن نُمجد الحياة إلا باعتبارها مشروعاً مؤجلاً يعترضه الموت الجميل!! لماذا يكون علينا أن نُعطي الدَّم معاني رمزية جميلة تُحيل إلى شجرة الحرية والحياة الكريمة التي لا تُسقى ولا تنمو إلا بدم الشهداء»٣٣، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، ما علاقة الموت بالجمال؟ وكيف يجتمعان؟ وكيف يكون الموت جميلاً؟

في الحالة النضالية الفلسطينية «الموت دائماً رفيق الجمال»٣٤ ويمارس الموت فعل البطولة وصناعة الصور الجميلة التي تُضفي على الميت صفات التمجيد والتكريم والقداسة لاستيعاب حالة الفقد وتحويلها إلى احتفالية بالميت، وشحن الموقف بمعاني العَظَمة والتَّبجيل والإقدام والبَسالة، والحقيقة أنَّ الفلسطينيين جمَّلوا الموت وحوَّلوا البكائيات والمراثي إلى جماليات لتجاوز الواقع المؤلم إلى عوالم أخرى، وسيميائية الدم ورمزيته علامة بارزة في الحياة والثقافة الفلسطينية، والدم في المقاومة الفلسطينية الصَّلبة نظاماً عَلَامِياً على حجم التضحيات التي يقدمها الشعب الفلسطيني ثمناً للحرية وصناعة الحياة، «وعلم الرموز يحمل إشارات؛ فهو يدل على معنى، ويُدير، ويقود، ويثير، ويُوحي. والرمز شاهد الحقيقة، ولكنه ليس الحقيقة نفسها»٣٥

الموت المَجَّاني

يعترض (محمود درويش) على تصنيف الموت بإقحام الموتى الأبرياء الذين راحوا ضحية مذابح العصابات الصهيونية وجرائمها، مع المقاومين الذي اختاروا الموت طواعية وبقرار «الاختيار الحر للموت»، وقضوا شهداء وهو ما يُعرف بـ» إدارة الموت» وهم بذلك يمتلكون إرادة الفعل والفعل المضاد، ويقف عند مجزرة قرية دير ياسين غرب القدس، والتي وقعت في العام ١٩٤٨ قُبيل الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني، وهي من أبشع المجازر التي نفذها هذا الكيان، ومارس فيها أفظع الممارسات الإجرامية والسَّادية التي أبادت ما يزيد عن٣٠٠ فلسطيني أعزل، وهي جرائم منظمة للتَّطهير العرقي والتَّهجير القصري، وجزء من عقيدة وأيدلوجية القتل الصهيونية، ويُفرق بين الموت القصري والموت الطوعي؛ فالإعدامات الميدانية والإبادة الجماعية للفلسطينيين هي ليست بطولات ومواقف للاحتفال والتمجيد بقدر ما هي شاهد على القتل المتعمَّد والوحشي الذي يتعرضون له، وهو يكشف أيضاً الأضاليل والأباطيل التي تُرَوج لها الحركة الصهيونية للتَّهرب من جرائمها، وتلفيق الأكاذيب لتجميل صورتها الوحشية، ومحو آثارها الدموية.

ويصور (محمود درويش) مجازر العدو بأنها خسارةٌ وجودية ومأساوية، وقتلى المجازر هم ضحايا الإرهاب المُدبَّر الذي يمارس على الشعب الفلسطيني، وَيُخَطئ مَن يُعَرف الانتماء الوطني بعيداً عن هذا التَّصور «الموت ليس استشهاداً حينما يكون بالمجَّان. ودير ياسين لم تكن دعاية عربية كما يقول البعض الآن. أن تطلب من شعب أعزل أن يموت ليس تحديداً صحيحاً لمفهوم الوطن. ليست هذه حرباً ولا كفاحاً هذه مجزرة»٣٦، وبهذا يُرفعُ الالتباسُ بين الضحايا والشهداء.

ومجزرة كفر قاسم في العام ١٩٥٦، واحدة من جرائم القتل الجماعي المُباغت للعمال الفلسطينيين الذين تمت تصفيتهم بدمٍ بارد، وجزء من تاريخ العدو الأسود الذي نالَ من أبرياء لقمة العيش الذين «كانوا يخرجون من البؤس في الصباح الباكر، ويعودون إلى البؤس في الغروب الباكر. وكانوا ينتظرون المطر؛ فجاءهم الموت في غزارة المطر»٣٧ و" يُحتم علينا توالي التفكيك الجسدي البيولوجي للأفراد الفلسطينيين وتكثيفه في لحظة النكبة وما تلاها، التفكير في الجسد البيولوجي الجماعي الفلسطيني وآليات النظام الاستعماري التي تسعى إلى تحقيق خروجه المُطلق من مسرح التاريخ"٣٨ لأنَّ موت الفلسطيني يعني للعدو قطع صلة الفلسطينيين بالوجود الفلسطيني، وإنهاء ارتباطاتهم بالمكان والزمان، وتدمير صفتهم البشرية الإنتاجية، وتحطيم هياكل البناء الاجتماعية في حياتهم.

الموت الصَّارخ

في نصٍ حواري بين خطابين يقومان على المناقضة والصراع يُفَجّر (محمود درويش) الأسئلة حول الموت، وهو الذي يعي جيداً علاقة الفلسطيني مع الموت، قائلاً: «لا يكون الفلسطيني فلسطينياً إلا في حضرة الموت»٣٩ ويضيء جدلية الحضور والغياب في الواقع الفلسطيني، ويحاججُ بمنطق الضحية التي ترفض الخنوع والخضوع والنَّفي والمحو، ويُقاوم خطاب النقيض المبني على العنف التفكيكي الإحلالي، ويدافع عن خطابه الوجودي الذي يصوغ معادلة الصراع وأبعادها، ويكشف عمق المأساة الفلسطينية، في تعقيداتها وتشابكاتها واستحالاتها، ويُصرُّ على عدم الاستسلام، وفضح جلاده، ويعرض دعواه ومرافعته بقوة وجدارة الحق الفلسطيني، ويُسَوغ لأُطروحته الوجودية، ويرفع صوته وصورته في وجه العالم المتخاذل:

"لماذا تُوقظ العالم من النوم؟

هذا ليس صوتي. هذا صوت ارتطام جُثتي بالأرض.

ولماذا لا تموت بهدوء؟

لأنَّ الموت الهادئ حياة ذليلة.

والموت الصارخ؟

قضية.

هل جئتَ تُعلن حضورك؟

بل جئتُ أُعلنُ غيابي»٤٠، إنه الموت الفاضح في النص الذي يطرح الأسئلة، ويُشَكل أجوبتها، التي تبحثُ عميقاً في إشكالية الوجود والمصير الفلسطيني وفي مهمة ومعنى الاحتلال الذي يُهدد ويهدم هذا الوجود.

تراجيديا الموت

عند (المتوكل طه) حينما يلتقي التاريخ الشخصي مع التاريخ العام لاستحضار فاجعة الموت، يتفتح الوجع على مصراعيه، ويتجلى الحزن في أعلى درجاته وأثقاله؛ فلا فاجعة أقوى من فاجعة الموت، ولا موت أفجع من موت الأم، ولا مصيبة أقوى من مصائب الأوطان وضياعها «لقد ماتت أُمي صبيحة يوم التاسع من نيسان يوم ذكرى مذبحة دير ياسين، ويوم استباحوا بغداد الرشيد، وعشية معركة القَسْطَل، كأنها - رحمها الله – ظلَّت تحمل غصَّة الخبر المروّع قرابة ستة عقود، وأرادت أن تلتقي أرواح المذبوحين في ذكرى سلخهم وبَقْر بُطونهم واتساع جروحهم وسحجات صدورهم، أو

كأنها تريد أن تشحذ الحزن وتبعثه فينا، لنعرف طعمَ اليُتم، ومعنى أن نُهيل التراب بأيدينا على مَنْ نُحب»٤١؛ فتاريخ موت أمه يعيده للمناسبات والذكريات التي تصادف هذا التاريخ؛ فيقف أمام الشاهد والمشهود فيها، من فظائع المذابح الصهيونية على أرض فلسطين إلى الهزائم والانكسارات المُرَّة في الوطن العربي، والموت الشخصي هُنا يبعثُ الذاكرة الحية والتاريخ الحي على مأساة الشعب الفلسطيني التي تَجمعُ بين التاريخ الشخصي والتاريخ العام.

الموت المُتمرد

إنَّ معاني الإنسانية والمقاومة التي تجلَّت عند الشعراء الفلسطينيين، وقوة الحياة التي تدفَّقت عبر أشعارهم قد حولتهم بعد موتهم إلى أساطير وأبطال ملحميين ينبعثون ويتجددون رغم الغياب المادي؛ فلقد أنجزوا أعمالاً وتركوا آثاراً خالدة في تاريخ الأدب والمعرفة، وفي هذا حضور دائم، لأنَّ الشعر العظيم بما يحمل من قيمٍ ودلالات يحفظ لصاحبه دوره العظيم والجليل، «كان موت هؤلاء الشعراء موتاً جسدياً فيزيائياً، لأنَّ أرواحهم سكنت قصائدهم وأعمالهم الإبداعية، وعاشت أشعارهم من جيل إلى جيل آخر، تنبض وتتنفس، تضحك وتبكي، تتألم وتفرح. قصائد بَشرِيَّة مفعمة بالحياة، لكنها خالدة تمردت على الموت»٤٢، وليس هناك من سيرة أبقى وأقوى من سيرة أولئك الذين حملوا رسائل عظيمة ونهضوا بها لخدمة قضايا إنسانية مصيرية كقضية حرية الشعوب، وكفاحهم في سبيل تحررها، والتاريخ لا يحفظ في ذاكرته الجمعية المارين العابرين، لأنَّ سيرتهم سرعان ما تندثر وتتلاشى و «لا يخلق الموت حيوات متشابهة لكل الناس، وفي جميع الأحوال {...} إنَّ الموت يُضفي على البعض خصوصية تُبقيه في الذاكرة، بينما يحكم على البعض الآخر بالفناء»٤٣ والموت في حالة المبدعين يبدو مجازياً في كثير من صوره، ما دامت انتاجاتهم حيةٌ تدب وتسعى بين الناس.

إنَّ تشكُّلات الموت في السيرة الذاتية الفلسطينية كثيراً ما تتجاوز الشخصي إلى العام؛ فيظهر موازياً لأحداث جسيمة في تاريخ الشعب الفلسطيني، كالنَّكبة والمجازر الصهيونية التي ظهرت فيها طرائق الموت وإدارتها الحصرية في الآخر النقيض الذي أقام فلسفته على النفي الوجودي والسيطرة الكولونيالية التي تُحقق له ملكية المكان وادّعاء التاريخ. وفي السيرة الشخصية يبرز الموت عبر المرض الذي يكشف أهمية الحياة التي يتهددها الموت، حيث تتحول لُعبة السَّرد السيري إلى آخر موازن يجاري الحياة ويحاول الإمساك بالزمن المتفلت من الذات، أو اكتشاف دلالات أُخرى في تفسير معاني الموت كنموذج (حسين البرغوثي) في سيرته «سأكون بين اللوز» التي تواجهك بأسئلة الموت الصارمة، وتفتح وعيك على صوره الغارقة بالتراجيديا، ولعل هذه السيرة من أقوى السير التي أتت على فلسفة الموت وحاولت كشف مقولاته ومواجهاته الصعبة.

المصادر والمراجع:

- إسماعيل ناشف، صور موت الفلسطيني، المركز الفلسطيني للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط١، ٢٠١٥.
- أوراق فلسطينية العدد١٠ صيف ٢٠١٥مؤسسة ياسر عرفات، رام الله، مقال الكتابة والموت، محمد رمصيص.
- بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
- جورج مَاي، السيرة الذاتية، تعريب أ. د محمد القاض، أ.د عبد الله صولة، دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠١٧.
- حسن خضر، أرض الغزالة - ما يُشبه السيرة، حسن خضر، منشورات بيت المقدس، رام الله – فلسطين، ط١، ٢٠٠٣.
- حسين البرغوثي، سأكون بين اللوز، دار راية للنشر، فلسطين - رام الله،٢٠١٥
- حنَّا أبو حنَّا، ظل الغيمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر- مصر، ط١، ١٩٩٠.
- سيد البحراوي، مديح الأم، دار الثقافة الجديدة مصر، ط١، ٢٠١٦.
- الكرمل، العدد ٥٢، صيف ١٩٩٧
- لودفيغ فويَرباخ، أفكار حول الموت والأزلية، ترجمة: نبيل فيَّاض، دار الرافدين، بيروت – الحمرا، ط١، ٢٠١٧.
- ماري مادلين دافي، معرفة الذات، ترجمة نسيم نصر منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط٣، ١٩٨٣.
- المتوكل طه، أيام خارج الزمن، سيرة كاتب - نصف قرن من الدم والحبر، دار فضاءات، الأردن - عَمان ط١، ٢٠١٧
- مجموعة من الكتاب، محمود درويش، المختلف الحقيقي- دراسات وشهادات، دار الشروق، رام الله، ط١، ١٩٩٩.
- محمود درويش، يوميات الحزن العادي، دار العودة، بيروت،ط٥، ١٩٨٨.
- مُريد البرغوثي، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي، المغرب- الدار البيضاء، ط٤، ٢٠١١.
- وليد سيف الشاهد المشهود - سيرة ومراجعات فكرية، الأهلية، الأردن - عمان، ط١، ٢٠١٦.

الهوامش

١. زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، ص: ١١١
٢. سيد البحراوي، مديح الأم، ص: ٦٧
٣. الكرمل، العدد: ٥٢، السنة: ١٩٩٧ص: ٨٢
٤. جورج ماي، السيرة الذاتية، ص: ٢٤٦
٥. حسين البرغوثي، سأكون بين اللوز، ص: ٤٤
٦. السابق، ص: ٦٥
٧. السابق، ص: ٤٣
٨. السابق، ص: ٨٩
٩. السابق، ص: ٦٩
١٠. السابق، ص: ٤٤
١١. السابق، ص: ٤٣

١٢. محمود درويش المختلف الحقيقي – دراسات وشهادات، دار الشروق، فلسطين، ١٩٩٩
١٣. حسين البرغوثي، سأكون بين اللوز، ص: ٦٠
١٤. السابق، ص: ٧١
١٥. انظر، بول ريكور، الذات عينها كآخر، ص: ٥٩٤-٥٩٥
١٦. أوراق فلسطينية العدد: ١٠، صيف: ٢٠١٥، ص:١٥٦
١٧. حسين البرغوثي، سأكون بين اللوز، ص: ١٠٠
١٨. السابق، ص: ٦٩
١٩. أوراق فلسطينية العدد: ١٠، صيف: ٢٠١٥، ص:١٥٧
٢٠. السابق، ص: ١٥٦
٢١. حسن خضر، أرض الغزالة، ص: ١٤٤
٢٢. لودفيغ فويَرباخ، أفكار حول الموت والأزلية، ترجمة: نبيل فيَّاض، ص: ١٦٠
٢٣. أوراق فلسطينية العدد: ١٠، صيف: ٢٠١٥، ص: ١٥٨
٢٤. انظر: جورج مَاي، السيرة الذاتية، ص: ٩٠/٨٦
٢٥. الكاتب الفلسطيني عزت الغزاوي من مواليد قرية دير الغصون قضاء طولكرم في العام ١٩٥١، ومتوفى في العام ٢٠٠٣، وهو أسير محرر من سجون الاحتلال الإسرائيلي، وكاتب روائي وقصصي، وناقد ومترجم، شغل رئاسة اتحاد الأدباء والكتاب الفلسطينيين، وكان أستاذاً جامعياً في جامعة بير زيت، وكان قد استشهد ابنه رامي برصاص الجنود الإسرائيليين في العام ١٩٩٣.
٢٦. المتوكل طه، أيام خارج الزمن، ص: ٢٧٤
٢٧. السابق، ص: ٢٧٤
٢٨. السابق، ص: ٢٧٢
٢٩. حسين البرغوثي، سأكون بين اللوز، ص: ٥٥-٥٦
٣٠. حنَّا أبو حنَّا، ظل الغيمة، ص: ١٩٧
٣١. السابق، ص: ١٩٧
٣٢. مُريد البرغوثي، رأيت رام الله، ص: ٢١٣
٣٣. وليد سيف، الشاهد المشهود، ص: ٢٢٦
٣٤. انظر كلمة محمود درويش في رثاء غسان كنفاني "مَن يرثي بركان"
٣٥. ماري مادلين، معرفة الذات، ترجمة نسيم نصر، ص: ١٢١
٣٦. يوميات الحزن العادي، محمود درويش، ص: ٥٤
٣٧. السابق، ص: ١٠٧
٣٨. إسماعيل ناشف، صور موت الفلسطيني، ص: ٥٧
٣٩. انظر كلمة محمود درويش في رثاء غسان كنفاني "من يَرثي بركان"
٤٠. محمود درويش، يوميات الحزن العادي، ص: ١٧٥
٤١. المتوكل طه، أيام خارج الزمن، ص: ٢١٤
٤٢. حسن عبد الله، البستان يكتب بالندى، ص: ٢٦٩
٤٣. حسن خضر، أرض الغزالة، ص: ١٦١

منبت المثقف العربي الفلسطيني

عبد القادر ياسين

قرون عدة انقضت، دون أي ذكر للمثقف في فلسطين. وهل كان لمجتمع شبه إقطاعي متخلف أن يُنبت مثقفين؟! الأمر الذي ينطبق على الحكم العثماني لفلسطين، ضمن ولاية سورية، لأربعة قرون متصلة (١٥١٦ - ١٩١٨م)، لم تقطعها إلا بضعة عقود، تضمنت استقلال ظاهر العمر الزيداني (١٦٩٥ - ١٧٧٥م) بشمال فلسطين عن الحكم العثماني، منذ مطلع ثلاثينات القرن الثامن عشر الميلادي، وحتى وفاته (١٧٧٥م) (١).تلاه أحمد باشا الجزَّار (١٧٢١- ١٨٠٤م)، الذي دام حكمه نحوثلاثة عقود متصلة، ما بين ١٧٧٥و١٨٠٤م، وخلفه مملوكه، سليمان باشا العادل، حتى العام ١٨١٨م (٢) ، وقبلها حملة نابليون (١٧٩٩م) (٣)، فضلًا عن السنوات الثماني، التي حكمت فيها حملة إبراهيم باشا المصرية فلسطين، ضمن ولاية سورية (١٨٣٢ - ١٨٤٠م) (٤).

لقد خضَّبت الحملة الأخيرة التُربة السورية لجملة من الأمور، في مقدمها تبلوُر حركة وطنية سورية، بدأت بالتعبير عن نفسها، فكريًا، فتأسست، العام ١٨٧٥، أول جمعية سرية في بيروت، ومنها انتشرت الجمعيات المماثلة، في معظم المدن السورية. وبعد خمسة أعوام، صدر أول برنامج سياسي سري، طالب باستقلال البلاد السورية عن الدولة العثمانية(٥).

تحت الضغوط الأوروبية المتزايدة، أصدر السلطان العثماني»خط شريف»، العام ١٨٤٠م، وأرفقه بإصلاح القضاء، ثم أصدر السلطان قانون التعليم المجاني (١٨٤٥م)، وأتبعه بـ «خط همايون»، العام ١٨٥٦م؛ وبعده، توالى صدور فرمانات سلطانية، وسَّعت من امتيازات الدول الأوروبية في الدولة العثمانية وولاياتها؛ إذ تقرَّر تخفيض الرسوم التي يدفعها التاجر الأوروبي، على المواد التي يستوردها، ويُصدِّرها، على حد سواء (٦).

فتحت تلك الإصلاحات منفذًا لتطوير العناصر البرجوازية في البلاد، وإن لم تكن كافية لتطوير

الصناعة الرأسمالية الوطنية، ولصد الغزوالاقتصادي الأجنبي، كما أنها أضعفت الباب العالي، ما حوَّل تركيا وولاياتها العربية إلى سوق للتصريف، ثم إلى شبه مستعمرة للدول الرأسمالية الأوروبية (٧). الأمر الذي أدى إلى انحسار المجتمع شبه الإقطاعي، لحساب التطور الرأسمالي، وإن بخطى جنائزية. ما فتح الباب لظهور المثقف العربي الفلسطيني.

تصدَّر المثقفون، منذئذ، مقاومة الاستيطان الصهيوني، والتحريض عليه، بالعرائض المرفوعة إلى الباب العالي في استنبول، والمقالات السياسية، والصحف، والكتب، والخطب من فوق منبر البرلمان العثماني (المبعوثان).

حين وقع انقلاب»الاتحاد والترقي»، في الدولة العثمانية (تموز/يوليو١٩٠٨م)،أمل العرب السوريون خيرًا، لكنهم سرعان ما صُدموا، حين كشفت «الاتحاد والترقي» عن وجهها القومي المتعصِّب، فارتد العرب السوريون يشكِّلون جمعياتهم السرية الاستقلالية؛ لعل أهمها «العهد «، «العربية الفتاة»، و»القحطانية» (٨).

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ -١٩١٨)، حثَّت الحركة الوطنية السورية خطاها، لانتزاع استقلال بلادها من أيدي العثمانيين. ورد جمال باشا السفاح، قائد الجيش الرابع العثماني، بإعدام ما يربوعلى الستمئة ناشط سياسي عربي سوري(٩).

جذر المثقف

لعل من التسطيح القول بأن المثقف العربي الفلسطيني حديث العهد في مجتمعنا؛ فهويضرب بجذوره عميقًا في تاريخنا، الحديث والمعاصر.

لقد كان المثقف الكلاسيكي العربي أكثر جرأة على الإنتاج، والإبداع الفكري، من حفيده المعاصر؛ لأن العرب والمسلمين كانوا يشهدون، آنذاك، فترة صعود حضاري، انطلقت فيها العزائم، والهمم. لقد كان رجال الدين مثقفين، بامتياز؛ لاستنباطهم الأحكام من معنى الوحي، والنصوص المقدَّسة. بينما أخذت العلوم الدينية تتمايز عن العلوم العقلية، ابتداءً من القرن الثامن الميلادي؛ وإن وُضِعت العلوم الثانية تحت رقابة الأولى. وإذا ما انفتح الفقيه على فروع المعرفة،فإنه يغدوأديبًا(١٠).

بلغت الساحة الثقافية العربية – الإسلامية أوجها، في القرن العاشر الميلادي، في ممارسة المعرفة النقدية. وقد أدى الفلاسفة دورًا حاسمًا في تدشين الموقف النموذجي للتيار الذي أدى، في الغرب الأوروبي،إلى ظهور المثقف (١١).

بينما هضم الفلاسفة المسلمون الفكر الديني؛ فتشكَّل الهم الفكري، ووسَّع من مجالات المعرفة، وأُطرها، وانشغل بفرز العلوم، وتصنيفها، واهتم بالمناهج. وإن انحسرت الساحة الثقافية، مع

الإعلان الرسمي للمذاهب السُنيَّة (١٢).

انتصر نمطان من العلماء: الفقيه الناقِل، والشيخ، أوالمرابط، الوحيد الذي يقرأ، ويكتب في القرية، خاصةً في مجال التعاويذ، والأحجبة، وهومن يُشرف على تنشيط جمعية دينية. ما ضرب سياجًا دُوغمائيًا مُحكمًا من حول المجتمع. وانحصرت المعرفة في الاستنباط اللغوي من النصوص، ما زاد من إحكام ذاك السياج. واختُزِلت مهمة المثقف إلى مجرَّد التعرُّف على الشيء، لا المعرفة الحقيقية به. وانتهى العلماء إلى تغليب دولة الأمر الواقع، على دولة الحق والقانون. وقد خضع المؤمن لرجل الدين؛ والمُريد للشيخ؛ وكلهم خضعوا للأمير، أوالحاكم. بينما كافح المثقف للإفلات من ذاك السياج، كي يتمكَّن من بلورة نظام جديد للعمل التاريخي(١٣).

لكن، كيف تم للمثقف أن يتحرَّر من ذاك السياج؟!

في الغرب، أخذ السياج في الانهيار، بدءًا من القرن السادس عشر، لحساب العَلمانية* ، بفعل الصعود المطَّرد للحداثة، الثقافية والعقلانية. وقد كانت البرجوازية التجارية، ثم الرأسمالية، هي العنصر التاريخي الحاكم، الذي أنجز هذا التطوُّر، بالضد من الكنيسة؛ بينما غاب هذا الحامل الاجتماعي عن المجتمع العربي الإسلامي. وفي الوقت الذي أطاحت الثورة الفرنسية (١٧٩٢م) بالملك لويس السادس عشر، وأعدمته؛ فوضعت الثورة هنا حدًا لـ»الحق الإلهي»، لحساب العلمنة الجذرية؛ فإن الثورة الإيرانية أسقطت الشاه (١٩٧٩م)، لكن لحساب ولاية الفقيه(١٤).

ظهور المثقف

أما المثقف الغربي الجديد، فيعود ظهوره إلى القرن السادس عشر، مع بداية تأثير أوروبا، في «عصر النهضة»، بالتساوق مع بواكير النموالرأسمالي، والاكتشافات الجغرافية. وإن تسارعت وتائر ظهور المثقفين، إلى مرحلة الاستعمار الغربي. ما ميَّز مثقفي بلادنا العربية بسماتٍ عدَّة؛ لعل أولها أنهم لم يكونوا ثمرة تطوَّر محلي طبيعي؛ وثانيها أنهم لم ينشأوا، عضويًا، من أحشاء البنى الاجتماعية المحلية؛ وثالثها أنهم ليسوا ابنًا غير شرعي للتوسُّع الأوروبي. ومن هنا، فقد ارتبطت نشأة مثقفينا بتعزُّز تبعية بلادنا لأوروبا، واحتكاراتها. وهكذا، تشكَّلت فئة المثقفين في بلادنا، عبر من شاركوا في الإدارة الاستعمارية؛ وظلَّ لعلاقة التلازُم هذه بين نشأة المثقفين والتبعيَّة، أهميَّة فائقة، دومًا(١٥).

في القرن التاسع عشر، ظهر في الساحة العربية الإسلامية المثقفون النقديون، الذين درسوا في الغرب، بدءًا من المثقفون الليبراليين (١٨٢٠-١٩٥٢م)؛ فالمثقفون الثوريون (١٩٥٢-١٩٧٠ م)؛ قبل الثوريين

الإسلاميين (بعد ١٩٧٩ م)، دون أن يختفي رجال الدين من الساحة. وقد كان أولئك المثقفين محدودي العدد، قياسًا إلى حجم المهمة التاريخية المناطة بهم، خاصةً مع افتقارهم إلى سند طبقي اجتماعي. دون أن يمنعهم هذا من نشر مقالات في مجلتيْ «المُقتطَف»، و»الهلال»، الليبراليتيْن القاهريتيْن؛ وكتاب علي عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم «، فضلًا عن كتاب طه حسين عن «الشِعر الجاهلي». بينما استُبعدت الطبقات الشعبية – الأُميَّة في غالبيتها – تمامًا من المماحكات الجدالية بين رجال الدين، والمثقفين الليبراليين. وجاءت حروب التحرُّر الوطني، بعد العام ١٩٥٠، فتفاقم اختلال التوازن الاجتماعي، بين الذين تقبَّلوا الحداثة والعَلمنة، وبين الجماهير المتعلقة بالموروث؛ فتعامل «الإخوان المسلمون» مع هذه الجماهير بالخطاب الإصلاحي السلفي(١٦).

على أن اتِّساع دائرة المتعلمين، والتدمير المطَّرد للبنى القَبَلية، ثم انبثاق الفئات الوسطى، قد عزَّز انتشار الخطاب الإسلاموي الأيديولوجي، على حساب خطاب المثقف النقدي. وقد ساهم صعود الناصرية، وانتصار الثورة الجزائرية (١٩٦٢م)، في الحط من قدر المثقفين الليبراليين،المولعين بالغرب، لحساب المثقف الملتزم بالوطن والاشتراكية، والذي أخذ يُعيد قراءة التاريخ العربي، ضمن منظور قومي(١٧).

بينما أدخلت هزيمة ١٩٦٧ المثقفين العرب في فترة قصيرة من النقد الذاتي، وأدب النكبة؛ لكنهم سرعان ما عادوا إلى الطروحات المعادية للامبريالية، والصهيونية. وإن لم يحظَ أيٌّ من تربية الأطفال، ومكانة المرأة، والاستغلال الرأسمالي، باهتمام المثقفين، بينما أخذ الخطاب التراثي في الصعود، أكثر فأكثر. وقد أدى الضبط الأيديولوجي (منذ العام ١٩٦٠) إلى الحد من التفكير بمسائل الحداثة، والعلمنة، وحقوق الإنسان. وأخذ المضمون التبشيري يسود، على حساب الفكر النقدي. بينما يمكن لإعادة تقييم التراث،نقديًا، إعادة كشف جوانبه الإيجابية. اليوم، ترتاب النُخب السياسية، والجمهور – على حدٍ سواء – في المثقفين، وتستخف بهم(١٨)!

لقد تلقى المثقفون العرب الفلسطينيون العناصر الوافدة، بعد أن قلَّبوها، وعالجوها، واستوعبوها، في صيغ تتواءم مع أوضاعهم، وأهدافهم، مدركين – في الوقت نفسه – معنى، وأهمية التحدي الحضاري.

بينما نشأ أولئك المثقفون، نتيجة احتكاك حضارتيْن مختلفتيْن: البنى التقليدية الشرقية الراسخة، بالجنود، والتجار الأوربيين، وبعض عناصر الثقافة الأوروبية. ما تطلَّب تفسُّخ البنى الاجتماعية التقليدية، تحت وطأة الرأسمالية، والتوسُّع الصناعي الأوروبييْن.

المثقف العربي الفلسطيني

يعود ظهور المثقفين العرب الفلسطينيين إلى نصف القرن الأخير من الحُكم العثماني لولاية سورية.

لقد كان طبيعيًا ألا تكون الثقافة الفلسطينية إلا نتاجًا للعلاقات الاجتماعية السائدة في فلسطين، في

العقود الأخيرة من العهد العثماني؛ حيث علاقات زراعية شبه إقطاعية؛ وفلاحون، فقراء ومعدمون، شكَّلوا زهاء ثلثيْ مجموع الشعب الفلسطيني، أي القاعدة الأساسية للبنية الطبقية في البلاد. بينما الحِرف يدوية بسيطة، حميمة الصلة بالزارعة. أما التجارة فمحلية، في نسبتها الأكبر،على غرار الحِرف. وتعزَّز هذا التخلف،مع التفشي الوبائي للأُمية (قرابة ثلاثة أرباع الشعب لا يقرأون، أويكتبون)، ناهيك عن المصادرة التركية للقومية العربية. لذا، لم يكن غريبًا أن يتمثل المنهل الأساسي في التراث؛ من أساطير، وتقاليد، وأمثال، وأعراف، وأهازيج. وقد غلب على هذه الثقافة الطابع الديني الإسلامى، على الرغم من أنها ضربت بجذورها عميقًا،إلى ما قبل الإسلام من حضارات (السومرية،والبابلية،أساسًا). وقد تعزَّز موقع الدين الإسلامي،مع تحوُّل المسجد الأقصى في القدس إلى منارة للإشعاع العلمي. (١٩)

لقد أخذ عدد المدارس في فلسطين يتناقص، بالتدريج، حتى كادت تختفى، في أوائل القرن التاسع عشر؛ فمن بين نحو٥٦ مدرسة في القدس، زمن المماليك، لم يبق منها إلا مجرد ٣٥ مدرسة، في أواسط القرن الثامن عشر؛ عدا تراجع نوعية التعليم،وإدارة المدارس، ونظام العمل فيها،بالتساوق مع تدهور الأوضاع، الاقتصادية والاجتماعية، في الدولة العثمانية؛ مع نظام توريث الوظائف، الذي حوَّل المدارس إلى تكايا للارتزاق. وفي نهاية القرن الثامن عشر،تحوَّلت تلك المدارس إلى ممتلكات خاصة، ودُور سكن؛ ما نشر الكتاتيب، وحلقات التدريس، في بعض المساجد. وكان المدرسون، وأئمة المساجد من فئة العلماء، الذين احتلوا مكانة اجتماعية عالية. بينما غدت الثقافة العربية لمدرسي الكتاتيب محدودة، وكذلك منزلتهم الاجتماعية (٢٠). وقد احتل الفقة المقام الأول، وازاه إقبال خاص على التصوُّف، وممارسته. وظل المثقفون، إلى حد كبير،عالة على كُتب الأسلاف، يحفظونها، ويختصرونها، ويضعون حواشي، وذيولاً لها (٢١).

أما بضاعة الشِعر، والأدب، فكانت قليلة،والمستوى متدنيًا، ودار أكثر الشعر حول الغَزَل، والمدح، والمراسلات الإخوانية، والمدائح النبوية، والتصوُّف (٢٢).

لذا، لم يكن غريبًا أن تتدهور أوضاع التعليم، أوائل القرن التاسع عشر،وأن تعُم الأميَّة والجهل؛ وكان الطلاب يُحشرون في المدارس،من الصباح حتى المساء. أي أن المدارس- بمعناها المعروف اليوم- لم تؤسَّس، إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد عُيِّنت لجنة للنهوض بالتعليم، العام ١٨٤٥ م؛ فصدر قانون،أقر التعليم المجانى الإلزامى. وفي العام١٨٥٦ م، صدر «خط همايون»، الذي سمح لكل طائفة بأن تُقيم مدارسها الخاصة،كمقدمة لقانون تنظيم التعليم (١٨٦٩م)، الذي نصَّ على وجوب فتح مدرسة ابتدائية في كل قرية، ومدرسة إعدادية في كل مدينة؛بعد أن كانت وزارة للتربية والتعليم قد أنشئت،في الامبراطورية العثمانية، وحملت اسم «معارف عمومية نظارتي». وانحصرت مراحل التعليم في ثلاث (ابتدائي، ورشدي، وإعدادي). وفي السنوات الأخيرة من الحكم العثماني،غطَّت مراحل

التعليم الثلاث تلك ١٢ سنة، من الصف الأول إلى الصف الثاني عشر. أما قانون تنظيم التعليم، فلم يتعد الحبر على الورق، إلا بعد أن تولى مدحت باشا ولاية سورية (١٨٧٨ م)، ووضع للمدارس منهاجًا مفصَّلاً حديثًا للتعليم، وإن باللغة التركية؛ إلى جانب المدارس الأجنبية، والأهلية. وفي العام ١٩١٠ م، كان عدد مدارس متصرفية القدس (وضمن أقضية:القدس، وغزة، ونابلس، والخليل، ويافا) قد بلغ ٥٢٨ مدرسة؛ منها ٥٦ مدرسة للبنات، ١٤مدرسة مختلطة، ٤٥٨ للبنين (٢٣).

معروف بأن حملة إبراهيم باشا المصرية في ولاية سورية، وبضمنها فلسطين (١٨٣٢-١٨٤٠ م) قد سرَّعت في ظهور الحركة الوطنية السورية؛ حين ضربت تلك الحملة الهيبة العثمانية، في الصميم، وبعد أن أشرك إبراهيم السوريين في حكم أنفسهم. لكن إبراهيم سرعان ما عمد إلى تجريد السوريين من أسلحتهم، وفرض المزيد من الضرائب، والتجنيد الإجباري على السوريين؛ فانقلبوا على إبراهيم، وشاركوا الدول الغربية، والعثمانيين، في دحر حملة إبراهيم عن بلادهم. وعبَّرت الحركة الوطنية السورية عن نفسها، بداية، على نحوفكري، وتصدَّرها المثقفون، وظهرت جمعية سرية، في بيروت، العام ١٨٧٥ م، ناصبت العثمانيين العداء، وطالبت بإصلاحات حقيقية، وباستقلال ذاتي. وبعدها، توالى ظهور الجمعيات السرية المماثلة، في أرجاء ولاية سورية.

لقد تركت النهضة الثقافية العربية - أواخر القرن التاسع عشر- بصماتها على الشباب العربي الفلسطيني، آنذاك. وتربى على هذه النهضة مؤرخون، أمثال: محمد رفيق التميمي، وعارف العارف، ونجيب عازوري. كما انخرط الشباب نفسه في «الثورة العربية الكبرى»، التي قادها شريف مكة، الحسين بن علي، ضد الحُكم العثماني، العام ١٩١٦ م (٢٤).

في نهاية العهد العثماني، وعلى مدى عقد من السنين، بلغ مجموع الصحف العربية الفلسطينية، التي صدرت، آنذاك، ٢٣ صحيفة، ٦ منها سياسية،ومثل هذا العدد من الصحف الثقافية،و٤صحف فكاهية، وصحيفتان دينيتان، وأخريان جامعتان. ومن مجموع هذه الصحف، صدرت ثلاث صحف بصورة نصف أسبوعية، و١٥ صحيفة أسبوعية، وثلاث صحف بصفة نصف شهرية،وصحيفة واحدة شهرية، بينما لم تنتظم صحيفة أخرى في صدروها. وظل دأبُ صحف ذلك العهد التركيز على ضرورة استقلال العرب، والإشادة بعظمة التراث العربي (٢٥).

على هذا الحال الثقافي، كانت فلسطين،عند استكمال القوات البريطانية احتلالها لكل أراضي فلسطين (أيلول/ سبتمبر ١٩١٨).

* العلمانية: يُقصد بها إبعاد سلطة رجال الدين عن الدولة، وليس كما يدَّعي البعض بأنها كفر، وإلحاد.

الهوامش

للمزيد أنظر:

لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة د.عفيفة البستاني، بيروت، دار الفارابي،١٩٨٥؛

الموسوعة الفلسطينية،القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت،١٩٩٠(أنظر، د.عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (١)، ص ٧٠٩،٧٠٧_٨١٦،٧١٧-٨٢١)؛

عبد الكريم رافق، العرب العثمانيون ١٥١٦-١٩١٩، دمشق، مكتبة أرين، ١٩٧٤؛

ميخائيل الصبَّاغ، تاريخ ظاهر العمر الزيداني، حاكم عكا وبلاد صفد، حريصا، مطبعة القديس بولس، ١٩٣٥؛

الموسوعة... (أنظر: رافق، مرجع سبق ذكره)؛

توفيق قعمَّر، ظاهر العمر، الناصرة، مطبعة وأوفست الحكيم، ١٩٧٩؛

قسطنطين خمار، ظاهر العمر الزيداني، الثائر الوطني، دمشق، دار المبتدأ، ١٩٩٢؛

للمزيد يمكن الرجوع إلى:

لوتسكي، مرجع سبق ذكره،ص ٤٠،٥٢،٧٧، ٨١-٨٥.

جين أحمد شهاب، تاريخ أحمد باشا الجزار، بيروت، مكتبة أنطوان، ١٩٥٥؛

ربيع فواز، والي عكا أحمد باشا الجزار بعيدًا عن رسائل قناصل الفرنسيين ومذكراتهم، الحياة (لندن) ٢٠٠١/٦/٢٣.

الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني (أنظر: رافق، فلسطين...، مرجع سبق ذكره، ص٧١٨،٧١٩،٨٢١-٨٢٢)؛

للمزيد أنظر:

لوتسكي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٤-١٤٥؛

بيتر مانسفيلد، تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط، ترجمة عبد الحميد فهمي الحجلي، سلسلة «تاريخ المصريين»، القاهرة، ١٩٩٥؛

عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠؛

الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني (أنظر: رافق، فلسطين...(١)، مرجع سبق ذكره، ص٨٢١)؛

مخائيل مشاقة (جامع الحوادث)، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، مُنشئاه : ملحم خليل عبده، وأندراوس حنا شخشيري، القاهرة، ١٩٠٨؛

سليمان بك أبوعز الدين، إبراهيم باشا في سوريا، بيروت، المطبعة العلمية، ١٩٢٩.

عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث،ط١،بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٧٠. ص٤٦-٤٧.

_الموسوعة الفلسطينية، مرجع سبق ذكره (أنظر: رافق، فلسطين...(٢)، ص٨٥٨-٨٦٠).

(٥) لوتسكي، مرجع سبق ذكره، ص١٥٨؛

- ج.م.ن. جيفريز، فلسطين إليكم الحقيقة. ترجمة أحمد خليل الحاج، الجزء الأول،القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠، ص٦٧-٦٨.

(٦) المرجع نفسه. ص٧٥.

_ل.ن.كوتلوف، تكوُّن حركة التحرر الوطني في المشرق العربي، ترجمة سعيد أحمد، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨١، ص ٣٩٦-٣٩٧؛

-لوتسكي،مرجع سبق ذكره، ص ١٤٦-١٥٣.

(٧) المرجع نفسه، ص٣٧٤،١٦١،١٥٥.

(٨) المرجع نفسه، ص٣٧٨، ٤٠٢ – ٤١٤؛

- كوتلوف، مرجع سبق ذكره، ص٣٩٠- ٣٩٦.

(٩) لوتسكي، مرجع سبق ذكره، ص٤٥٣ – ٤٦٠.

(١٠) محمد أركون، بعض مهام المثقف العربي اليوم، ترجمة هاشم صالح، الوحدة (الرباط)، العدد ٦٦، السنة السادسة، آذار/مارس ١٩٩٠، ص ١٠-٢٦.

(١١) المرجع نفسه.

(١٢) المرجع نفسه.

(١٣) المرجع نفسه.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) كيم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧-٣٩.

(١٦) أركون، مرجع سبق ذكره.

(١٧) المرجع نفسه.

(١٨) المرجع نفسه.

(١٩) محمد البطراوي، في سبيل حماية الثقافة الوطنية وتطويرها، الجديد (حيفا)، تموز/يوليو١٩٨٤،ص١٣-١٩.

(٢٠) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث، بيروت، ١٩٩٠(انظر: كامل العسلي، التعليم في فلسطين منذ الفتح الإسلامي حتى بداية العصر الحديث، ص ٢٢-٢٣)؛

- د. إحسان عباس،فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣، ص١٣٠-١٣٦.

(٢١) العسلي، مرجع سبق ذكره، ص٢٣.

(٢٢) المرجع نفسه،ص ٢٤؛

- عباس، مرجع سبق ذكره، ص١٩٤-٢٠٣.

(٢٣) العسلي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤-٢٦؛

- الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث، بيروت،١٩٩٠ (أنظر : مصطفى مراد الدباغ، التعليم في عهد الانتداب،ص ٣٧)؛

- عباس، مرجع سبق ذكره،ص ١٩٤-١٩٨؛

- مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء العاشر، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٢-١٩٧٦،ص١٣٨.

(٢٤) العسلي، مرجع سبق ذكره،ص٢٣.

(٢٥) Adnan Abu Ghazaleh،Arab Cultural Nationalism in Palestine During British Mendate، Palestine Studies،No.٣،Vol.١،Spring ١٩٧٢،PP.٣٦-٣٧.

الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، بيروت، المجلد الرابع، ١٩٩٠(أنظر: عبد القادر ياسين، الصحافة العربية في فلسطين، ص ٤٣٠-٤٣٥).

بازوليني في فلسطين!

يوسف الشايب

لم يكن يعلم المخرج والشّاعر الإيطاليّ الشّهير، بيير باولو بازوليني، عند زيارته فلسطين في العام ١٩٦٣، ليبحث عن مواقعَ لتصوير فيلمه «الإنجيل بحسب القديس متّى»، ولا يجد، أنّه وبعد حوالي الأربعين عاماً، ستخرج فلسطينيّةٌ تُدعى أيرين أنسطاس، في رحلةٍ فيلميّةٍ أُنتجت في العام ٢٠٠٤، تتّكئ فيها على خريطة الطّريق الخاصّة ببازوليني، وطريق المسيح من قبله، راسمةً في فيلمها، «بازوليني في فلسطين»، خريطة الوجع الفلسطينيّ، ومسلّطةً الضّوء باقتدار، وعلى مدار واحدٍ وخمسين دقيقةً، على الواقع في الأراضي المحتلّة، سواءٌ تلك التي احتلت في العام ١٩٤٨ أو في العام ١٩٦٧، عبر رحلة بازوليني، مرسلةً له رسالةً تجريبيّةً افتراضيّةً، آملةً في أن يوافق على استخدام مشاهد من فيلمٍ أُعدّ سابقًا حول رحلته إلى فلسطين، تحت عنوان "اصطياد مواقع التّصوير في فلسطين"، ومن أخرى مصوّرةٍ بشكلٍ مستقلٍّ عن الرّحلة، وقد أعربت في رسالتها عن أسفها وحزنها، لأنّه لم يجد في فلسطين ضالّته، متجاهلاً التّحوّلات الزّمكانيّة ما بين رحلة المسيح، وفلسطين في العام ١٩٦٣، فما بالكم بالعام ٢٠٠٤، أو الآن مثلًا؟!

خيبة البحث عن مواقع الإنجيل

زار بيير باولو بازوليني الأراضي المقدّسة بحثاً عن مواقعَ تصويرٍ من أجل فيلمه «الإنجيل بحسب القدّيس متّى»، لأنّه لا يستطيع أن يتخيّل صناعة فيلمٍ عن المسيح بالقرب من مصانع ميلانو، كما قال، لذا قصد أرض القداسة القديمة، حيث «الضّآلة والفقر والتّواضع»؛ إلّا أنّه انتهى إلى خيبةٍ تشابه خيبة الوصول إلى بؤس التّحوّلات الّتي شوّهت تلك الأمكنة عبر التّاريخ.

علّق بازوليني بصوته في فيلمه الوثائقيّ، «اصطياد مواقع التّصوير في فلسطين»، ومن اللّافت أنّ الفيلم لا يحتوي أيّ أحاديثَ مع عرب فلسطين؛ لكنّه مع ذلك ينعتهم بالسّعداء، ويقول إنّهم

بدوٌ وفلّاحون معدمون، يرتدون أسمالًا في ريفٍ مهملٍ، وفي الأزقّة أطفالٌ حفاةٌ يلاحقون الغرباء ضاحكين... صوّر بازوليني بنفسه مشاهد الفيلم، صوّر التّلال الشّاحبة في وهج الشّمس، والقفار الّتي لا ينبت فيها حتّى شجر الزّيتون والتّين، والّتي على مرتفعاتها "تردّدت عظة الجبل، وسأل الشّيطان المسيح أن يجعل الحجارة خبزاً».

كان في الرّحلة كاهنٌ كاثوليكيٌّ نسمعه يخاطب بازوليني بلقب «دكتور» حين يقصّ للأخير حكاياتٍ عن المسيح، بينما القدس تلوح وراء سياجٍ من الأسلاك الشّائكة: «إنّ الرّوحانيّة تعبيرٌ جماليٌّ وليس دينيًّا».

يظهر اليهود المستوطنون البيض في الفيلم بنسخته البازولينيّة وقد وحّدت الكيبوتسات ملامحهم، وفي أحدها يلتقي المخرج أسرةً يهوديّةً إيطاليّةً، يقول لاحقًا في سرده: «يمكن مصادفة أشباه هؤلاء بكلّ سهولةٍ في ريف روما أو في سويسرا»، وأمام المتزلّجين على مياه بحيرة طبريّة يتحدّث عن معجزة المسيح الّذي سار على أمواجها.

أين الفلسطينيّ؟

أمّا المخرجة الفلسطينيّة، أيرين أنسطاس، في فيلمها الوثائقيّ التّجريبيّ، فإنّها ترى الصّورة بعينٍ أخرى، ومع ذلك فإنّها تتتبّع مسار رحلته الّتي قام بها العام ١٩٦٣، خلال بحثه عن وجوهٍ ومواقعَ لتصوير فيلمه الرّوائيّ عن إنجيل متّى؛ فبعد أكثر من أربعين عاماً من رحلة بازوليني، يحاول الفيلم الفلسطينيّ البحث عن المواقع والأفكار الّتي طرحها المخرج الإيطاليّ في فيلمٍ وثائقيٍّ صنعه عن رحلته تلك، وهو يحضّر لفيلمه الرّوائيّ؛ وما في فيلمه الوثائقيّ من موادٌّ مصوّرةٌ تعود إلى فترة البحث الّتي قضاها في فلسطين، في ظلّ إسقاطاتٍ واضحةٍ من الواقع الفلسطينيّ الصّعب تحت الاحتلال، بحواجزه العسكريّة، وجداره العنصريّ، وسياساته الإجراميّة اليوميّة المتواصلة، غير متجاهلة بطبيعة الحال طرد الفلسطينيّن من ديارهم خلال حرب العام ١٩٤٨ (النّكبة)، وحرب حزيران في العام ١٩٦٧ (النّكسة)، وتدمير قراهم ومدنهم، بل وقتلهم وتهجيرهم وغير ذلك، في فعلٍ متواصل لمحوٍ متعمّدٍ لمالك الأرض والتّاريخ، ولهويّته، وتراثه، ورمزيّاته المتعدّدة، وهو ما لم يدركه بازوليني بطبيعة الحال.

الصّور الّتي سكنت رأس بازوليني لم تطابق أيّ واقعٍ في فلسطين، فما رآه أمامه كان بعيدًا عن هالات القدّيسين الّذين رآهم في الأيقونات، وسمع قصصهم منذ طفولته في "كازارسا"، مسقط رأسه.

كان يقارن بين ما يراه في فلسطين وبين باري وكالابريا وصقلية جنوب إيطاليا، حيث صوّر في النّهاية فيلمه: «الإنجيل بحسب القدّيس متّى»، وأدّت فيه أمّه دور مريم العذراء، واستخدم «آلام القدّيس متّى» لباخ موسيقى تصويريّةً، وقد حاولت الفاتيكان منع عرض هذا الفيلم لأنّ بازوليني صنعه وفق ذوقه وهواه، وفق ما أشارت مرجعيّاتها.

بازوليني، الّذي سرد خيبات اكتشافاته ومشاهداته في الأراضي المقدّسة، زار لاحقًا سوريّة، وصوّر في قلعة حلب مشاهد من فيلمه «ميديا»، الّتي أدّت دورها ماريا كالاس.

ولم يلتفت بازوليني في فيلمه الوثائقيّ «اصطياد مواقع التّصوير في فلسطين»، إلى صراع الوجود على الأرض بين الفلسطينيّين، أصحابها، والصهاينة ولاحقاً الإسرائيليّين، محتلّيها.

هذا ما أرادت أيرين أنسطاس أن تقوله في فيلمها، الّذي عُرِضَ في الثاني من شباط ٢٠١٦، في مركز خليل السّكاكينيّ الثّقافيّ بمدينة رام الله؛ فهي بعبثيّتها الجميلة، وتلقائيّتها المدروسة في إعادة السّيناريو أكثر من مرّةٍ مع معدّ الفيلم وفريق العمل، وكذلك تغيير المسير نحو مناطقَ لم يلجها بازوليني، كما فعلت في الجولان السّوريّ المحتلّ، تقدّم مقترحاً إبداعيّاً حقيقيّاً وأكثر جديّة، بحيث سلّطت الضّوء على معيشة أهله في ظلّ الاحتلال الإسرائيليّ.. بذلك كلّه، تمكّنت من إيجاد طريقٍ أخرى للمسيح، غير طريق بازوليني.

المسيح طفلٌ في التّواني

شكّل التّجريب في الفيلم عنصراً أساسيّاً في كسر رتابة نمط بازوليني الّذي اشتُهر به، والتّأكيد على أنّ روح المكان أهمّ من بانوراميّته، وأنّ ساكنيه هم ساكنوه، ليكون في الجولان وغيرها «أبطالٌ» حقّقوا سطوةً ما في حكايتها السّينمائيّة، الّتي خطّتها بعدستها في «عزّ» الانتفاضة الثّانية، والّتي بطبيعة الحال ستتغيّر فصولٌ فيها إذا ما عادت وكتبتها مصوّرةً من جديدٍ هذه الأيّام؛ فالجغرافيا الفلسطينيّة تتغيّر باستمرارٍ بفعل الاحتلال وجدرانه العازلة، وحواجزه العسكريّة الدّائمة والمؤقّتة، وبالطبع مستوطناته التي يجري تسمينها كل حين، وهذا لم يكن في رحلة بازوليني الّذي حاول فيها عبثاً استنساخ رحلة المسيح بشكلٍ أو بآخر.

تتكيّف المخرجة الفلسطينيّة في رحلتها الفيلميّة مع خريطة طريقٍ فرضها الاحتلال، وتغوص في تفاصيل حيوات سكّان الأرض المحتلّة، والتّناقضات الكبيرة ما بين المرئيّ والمسموع في فلسطين، من أقصاها إلى أقصاها.

قال بازوليني في مراجعةٍ لنفسه بعد عودته إلى بلاده، مناقضًا رؤيته الأولى، إنّ إسرائيل مغرقةٌ في الحداثة، والعرب الفلسطينيّين غارقون في البؤس، ويستحيل أن يصدّق أحدٌ أنّ تعاليم المسيح قد بلغت مثل هذه الوجوه.

أمّا أنسطاس، فوجدت في وجه طفلٍ أشقر ذي عيونٍ ملوّنةٍ في التّواني بالخليل مسيح القرن الحادي والعشرين، وفي آخرين رفاقه ومريديه، فالمسيح الفلسطينيّ يتجلّى في كامل رحلتها المصوّرة، بينما يبقى متخيّلاً لدى بازوليني الّذي لم يبتعد في فيلمه عن نظرةٍ استشراقيّةٍ عنصريّةٍ وجدت تفوّق الإسرائيليّ، ومجّدت الكيبوتس، الّذي استطاعت ابنة بيت لحمٍ كسر الصّورة النّمطيّة عنه، والتّأكيد

على إقحامه في العجلة الاقتصاديّة الحديثة، وسياسة الخصخصة.
بازوليني الشّيوعيّ المُفترض، قُتِلَ في ظروفٍ غامضةٍ بالقرب من روما في العام ١٩٧٥، أمّا أيرين أنسطاس، فتقيم في الولايات المتّحدة الأميركية، ولا تزال تبدع في مشاريعها الفنّيّة على صعيد السّينما، وغيرها، وليس فقط في هذا الفيلم الّذي حاولت أن تقول عبره لبازوليني، لا لشخصه فقط، بل للثّقافة الّتي يمثّلها أيضًا: «أودّ أن تجد فيما أقدّمه ما لم تكن قد وجدته في فيلمك، وإنّ رفضك للمشهد الفلسطينيّ يجعلني حزينةً، لكن هو ما دفعني لسدّ تلك الفجوة من عدم العثور على مكانٍ في فلسطين لفيلمك العام ١٩٦٣»، حيث كان جنود الاحتلال حاضرين بعنجهيّتهم المعهودة، والفلسطينيّون حاضرين بإصرارهم على الحياة في أرضهم المسلوبة.

درسٌ في السينما

ومن يُشاهد فيلم بازوليني، لابدّ أن يتساءل بدهشة: أهذه هي الأرض المقدّسة وكلّ ما فيها؟ أرضٌ ضيّقة مؤلّفة من أربع تلال جرداءَ وبحيرة؟ فهل أنّ التاريخ الإنجيليّ يقتصر على منمنماتٍ بلا خلفيّة ومشاهدَ استهلكتْها الشمس؟
لعلّ بازوليني، حسب عديد النقّاد، فكّر هناك بكبار الفنّانين الإيطاليّين الذين رسموا مشاهد حياة المسيح وليس لديهم من أداةٍ إلّا الخيال، ففي الإرث الثقافيّ لبازوليني، أيْ لوحات عصر النهضة الإيطاليّة، لا وصفَ للبؤس، لكن على العكس من ذلك، توجد تمثيلاتٌ للزهور وافرة وغنيّة.
بازوليني المنطلِق من رؤيةٍ أوروبيّةٍ للأرض المقدّسة علّمتْه «زيارة فلسطين» أن يهدم هذه الرؤية.. طوال الفيلم يمكن تخيّل وجه بازوليني الحائر، وسيماً، شابّاً، يرتدي ملابسَ أنيقة على جسده الممشوق، ويمكن تصوّر تساؤلاته وهو يكتشف سطوة الذّلّ.
كتبت المخرجة اللبنانية ليانا قصير، في فصلية «بدايات» (العدد المزدوج ٢٣ و٢٤ للعام ٢٠١٩): زيارته لفلسطين درسٌ في السينما: هذا هو صوتُ المسيح المقدّس ينبعث من أرضٍ قاحلةٍ إلى درجة أنّه صار الفكرةَ الجماليّة الأساسيّة التي سيبني عليها بازوليني فيلمه «الإنجيل حسب القدّيس متّى».
إنّ فيلم «زيارة إلى فلسطين» نجوى حميمةٌ، لكنه يحوي وثيقةً تاريخيّةً ذات قيمةٍ خاصّةٍ حول فلسطين قبل العام ١٩٦٧. ذلك أنّ بازوليني مراقِبٌ ذو حظوةٍ، يتمتّع بحريّة التنقّل، رغم الوضع الجيوسياسيّ لتلك الفترة. إنّه يعْبر في مسارٍ ملتوٍ من الأراضي الفلسطينيّة إلى الأراضي المحتلّة.
في كيبوتس، والحديث لقصير، يروي له من قابلهم أنّ مبدأهم الرئيسيّ هو العيش المشترك في مجتمعٍ تعمّه المساواة تجمع أفراده المثلُ ذاتُها. تُتّخَذ القرارات بشكلٍ ديمقراطيٍّ والمؤسّسات قائمةٌ لخدمة الجميع. أفرك عينيّ غيرَ مصدّقة. كيف يستطيع أفراد زمرةٍ يفترَض بهم أنّهم يهتمّون

بالإنصات إلى رأي الجماعة أن يكونوا عميانَ إلى هذا الحدّ عن العالم المحيط بهم، وعن الظلم السائد خلف جدرانهم ومزارعهم المفروضة قسراً على أرضٍ مستعمَرة؟ هل هو تناقضٌ أم قصر نظرٍ من يسارٍ إسرائيليٍّ أصمّ أذنيه عن العالم الهادر؟ بالنسبة لبازوليني لم تكن الوجوه الإسرائيليّة في هذا الكيبوتس أو في مراكز الاستجمام على شواطئ طبريّة، قابلة للاستخدام في فيلمه وقد لوّثتْها الحداثة. أمّا عن الريف العربيّ الذي كانت تلوح لبازوليني فيه أحياناً أطياف عالمٍ إنجيليّ، فقد صدمتْني نظرة بازوليني للعرب: «وجوه ما قبل المسيحيّة، متوحّشة، ووثنيّة» (...) كلّ شيءٍ محترِقٌ مادّيّاً وفكريّاً. العالم العربيّ حطامٌ هائل. "(...) الوجوه البدويّة، الجميلة والجنائزيّة لم تُسمَع الصلوات المسيحيّة إطلاقاً، ولا حتى من بعيدٍ". يتحدّث بازوليني عن بروليتاريا رثّة عربيّة من مُعدَمين ومهمّشين ومستعبَدين، غيرِ واعين بما يكفي ليشكّلوا قوّةً ثقافيّةً أو سياسيّةً أو ثوريّة مناسِبة لتتأثّر بكلمات المسيح. فلا يمكن للأجساد والوجوه العربيّة هي أيضاً أن تمثّل أدوار الكومبارس الذين يبحث بازوليني عنهم. يعيش العرب عوزهم بخفّةٍ وفرح وحيويّةٍ، غيرَ مبالين بهشاشة وضعهم، قليلي الاكتراث بمأساتهم.

هذا الانزعاج الذي أشعر به تجاه طريقة تقديم العرب، كتبت المخرجة اللبنانية، يمكن تفسيره بظروف العمل على الفيلم. فقد تمّ تصويره العام ١٩٦٣، قبل حرب الأيّام الستّة، في زمنٍ لم تكن فلسطين فيه قد اكتسبتْ صورتها الثوريّة في عيون الغرب. فقد نشأتْ منظّمة التحرير الفلسطينيّة العام ١٩٦٥، ولم يظهر ياسر عرفات إلّا بعد ذلك بستّ سنواتٍ.

نظراً لأنّ بازوليني ملتزمٌ سياسيّاً ومناهضٌ للاستعمار ومدافعٌ عن العدالة الاجتماعيّة، كنت أنتظر منه أن يكون أكثر نضالاً، ينحاز مع أو ضدّ حسب وجهة نظره، أشارت قصير قبل أن تضيف: لكنّ بازوليني أدهشني هنا أيضاً.. في فيلمه «زيارة إلى فلسطين» لم يقدّم الخطاب السياسيّ المنتظَر، إنّما عرض تسلسل فكرةٍ فنّيّةٍ حميمة. وجدتُه دبلوماسيّاً ومسايراً تقريباً للاستعمار الإسرائيليّ، لأنّ كلّ نقده السياسيّ للوضع الإسرائيليّ - الفلسطينيّ كان يمرّ عبر مصفاة الجماليّة، وهذه هي نقطة انطلاق رحلته.

ورغم أنّه لا يتعرّض للسياسة مواجهةً، فهو يكشف ما يحيط بها. وإنّي أرى في استدلالات بازوليني بُعدَين يتقاطعان: بحثه عن آثار حياة المسيح، من جهة، والمصير اليوميّ لشعبٍ يتعرّض لعذاباتٍ جديدة، من جهةٍ أخرى. لكن بما أنّ بازوليني يقول في الفيلم «إنّ العرب لا ينتظرون سوى المعجزة بحدّ ذاتها» فلماذا لم ينفخ فيهم شرارة المعجزة بإخراج فيلمه الإنجيليّ في فلسطين؟

وأكدت قصير: لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بأنّ ترسيخ كلام المسيح الثوريّ، كما يتجلّى في «الإنجيل بحسب القدّيس متى»، في الواقع الفلسطينيّ العام ١٩٦٣ كان ليصنع فيلماً رؤيويّاً. لكنّ بازوليني صوّر فيلمه في إيطاليا في نهاية المطاف. لقد أثّرتْ فيه هذه الرحلة، وسوف يظهر اهتمامه

بالبلاد العربيّة في أفلامه اللاحقة، من خلال الفيلم القصير الوثائقيّ «أسوار صنعاء (١٩٧٠)، وحتى فيلمه ما قبل الأخير «ألف ليلة وليلة» (١٩٧٤)، وهو آخر تكريمٍ للعالم العربيّ يؤدّيه المخرج قبل أن يموت مقتولاً في العام ١٩٧٥.

إن تعلّق بازوليني بالعالم القديم وخشيته من حداثةٍ تبدّل الطبيعة هو أيضاً موضوع «أسوار صنعاء»، والعنوان الفرعيّ للفيلم الذي صوّره في اليمن هو «وثائقيّ على شكل نداءٍ موجَّه لمنظّمة اليونسكو». وبعكس رحلته إلى فلسطين، يعرب بازوليني في هذا الفيلم عن طلب صريح هو الحفاظ على جمال صنعاء المهدَّد. وهو لا يخفي انبهاره بالمدينة القروسطيّة التي بقيتْ على حالها خلال قرونٍ، وقد تطفّلتْ عليها الحداثة الرأسماليّة أو الاشتراكيّة لبضع سنواتٍ فقط، فالصفات ليست مهمّة على حدّ قوله. يبدو أنّ عدوّ بازوليني هو محوُ الشخصيّة، بينما هو مبهورٌ بهذه المدينة الرائعة، بنقاء هذه الجوهرة التي يصفها بالجمال الغامض، غير الحقيقيّ، والكامل. بحماسةٍ يعلن بازوليني أنّ صنعاء هي آخر مدينةٍ في العالم قاومتْ اجتياح الحداثة ويخشى الدمار الداهم على هذا العالم الأثرّي. فالطرق الجديدة التي شقّتْها الحكومة الصينيّة جلبتْ معها السلع الاستهلاكيّة للثورة الصناعيّة والرغبة في التطوّر يجري استيرادها عَبر الطّرُق ذاتها لتنتشر في عقول سكّان المدينة القديمة.

"أسوار صنعاء"، الذي صوّره بازوليني في يومٍ واحدٍ، يعرض علينا صوراً من اليمن من خلال الحساسيّة الصريحة للمخرج الذي نجح في عرض خطابه ورَفعه إلى مصاف إعلان مبادئ. ينتهي الفيلم بهذا الدفاع الصارخ الذي يجدُر الإصغاء إليه، واستنساخه وقراءتُه رغم الخمسين سنةً التي تفصلنا عن إلقائه: "ندعو اليونسكو إلى إنقاذ اليمن من التخريب، الذي بدأ بتخريب سور صنعاء. ندعو اليونسكو إلى مساعدة أهل اليمن على وعي هويّتهم وقيمة بلدهم الثمين. ندعو اليونسكو إلى المساهمة في وقف هذه العمليّة التعسة في بلدٍ لا يحتجّ فيه أحد عليها. ندعو اليونيسكو إلى إعطاء هذا البلد إمكانيّة أن يدرك أنّه أحد عجائب الإنسانيّة وإلى حمايته لكي يبقى كذلك. ندعو اليونيسكو، قبل فوات الوقت، لإقناع الطبقات الحاكمة بأنّ كنز اليمن الوحيد هو جماله. باسم الشعب اليمنيّ ورغبته الحقيقيّة، التي لم يعبّر عنها بعد، باسم جمال الأزمنة الغامضة، باسم قوّة الماضي الثوريّة الرائعة".. على أنّ استغاثة بازوليني لم تلقَ صدىً أرحب من الذي تلْقاه صرخة صنعاء الحاليّة.

يترك «زيارة إلى فلسطين» و«أسوار صنعاء» لدى قصير شعوراً حلواً ومرّاً. فالأوّل يقدّم لها لقاءً مع أرضٍ محرّمة.. «منذ الطفولة كان لديّ ردُّ فعلٍ أن أغمض عينيّ عندما أجد أمامي كلمة إسرائيل.. بعد مشاهدتي هذا الفيلم، أشعر بالحاجة إلى أن اشاهد المساحات التي صوّرها بازوليني فيما وراء الحدود اللبنانيّة. إنّي أتجوّل في فلسطين المحتلّة على خرائط غوغل. أتجوّل في الجليل، وأعاين بحيرة طبريّة، وأجد موقع كفرناحوم، أصل إلى الناصرة، وأرى حدود القدس وكلّ القرى التي زارها المخرج. أتوقّف، وألاحظ

بدهشةٍ أنّ مساحتي العقليّة المخصّصة لفلسطين هي أيضاً ضيّقةً جدّاً، محرّمةً، ومُصادَرةٌ. ماذا لو كان أكبر انتصارٍ مؤكّد أحرزتْه إسرائيل هو أنّها عرفتْ كيف تمحو أسماء فلسطين هذه من ذاكرة أقرب جيرانها؟».
قل لي يا بازوليني العزيز، تتساءل قصير:هل سيكون لي الحقّ يوماً بالقيام بهذه الزيارة إلى فلسطين؟ وماذا عن صنعاء؟ وما الذي تبقّى منها في هذا الحاضر القاسي؟، أما الفلسطينية أنسطاس، وقبل زميلتها اللبنانية بخمسة عشر عاماً تساءلت فيلميّاً، بل ساءلت بازوليني الذي احتفل العالم قبل فترة وجيزة بمئوية مولده.

مئوية بازوليني

ترك بيير باولو بازوليني بصمات لافتة في مجالات متعددة، من الشعر إلى الكتابة مروراً بالسينما والمسرح والصحافة والنقد الفني، فيما لا يزال اغتيال هذا المبدع الإيطالي الذي احتفل بمئوية ميلاده الأولى، في الخامس من آذار ٢٠٢٢، لغزا عصياً على الحل بعد حوالي نصف قرن على الحادثة.
وقد ترك بازوليني إرثاً كبيراً مطبوعاً بالالتزام السياسي لهذا الفنان ذي التوجهات الماركسية، حسب تقرير لوكالة «فرانس برس».. وقال صديقه ألبرتو مورافيا خلال تشييعه الرسمي في الخامس من تشرين الثاني ١٩٧٥، بعد ثلاثة أيام على وفاته، «فقدنا قبل كل شيء شاعراً، والشعراء ليس بكثر في العالم".
وخلال نشاط فني استمر زهاء عقدين، أثار بازوليني الذي لطالما تمت مقارنته بجان كوكتو أو جان جينيه، جدلاً قوياً بمواجهة النقاد البرجوازيين والرقابة الممارسة من الكنيسة وتهديد الفاشيين الجدد.
وأثمرت أعماله في الشعر والنثر والمسرح والسينما ومقالاته الكثيرة، نتاجاً قائماً يتساءل فيه هذا الفنان المقرب من جان لوك غودار وفيديريكو فليني عن معنى الحداثة في إيطاليا الضاربة في القدم والفتيّة في آن.
وكانت إيطاليا في تلك الحقبة بلدا ريفيا بدرجة كبيرة، لكنها بدأت تكتشف يومها أوجه الحضارة الجديدة مع انتشار الأجهزة الكهربائية المنزلية والتلفزيون والسيارات الفردية، في مقابل استشراء مشكلات اجتماعية مثل البطالة والعشوائيات.
وقال بازوليني بلسان بطل فيلمه الأول «المتسوّل» (Accattone)، وأخرجه في العام ١٩٦١ ويتناول «المعجزة الاقتصادية» الإيطالية من وجهة نظر المهمشين من هذه المنظومة، «لينكولن ألغى العبودية، إيطاليا أعادتها».
وقالت صديقته الكاتبة الإيطالية داشيا ماراييني التي شاركت معه في كتابة سيناريو فيلم «ألف ليلة وليلة» في العام ١٩٧٤، «بحث طوال حياته عن عالم قديم يشبه ما كان عليه الوضع ما قبل الثورة الصناعية والعولمة، عالم ريفي كان يراه بريئاً".

كان بازوليني يحظى بشهرة لا بأس بها في بلده بفضل دواوينه الشعرية المتنوعة عندما طارت شهرته في الخارج بفضل السينما.

فمن الواقعية ببعض الأفلام إلى الاقتباس الرمزي من أدباء تاريخيين مثل بوكاتشي وسوفوكليس وماركيز دو ساد، أخرج بازوليني في المجموع ٢٣ فيلماً، كان آخرها «سالو أو ١٢٠ يوماً في سدوم»، العام ١٩٧٥، وصدر بعد وفاته.

كذلك وقّع على أفلام أخرى معروفة بينها «الإنجيل بحسب القديس متى» العام ١٩٦٤ والذي حاز جائزة لجنة التحكيم في مهرجان البندقية السينمائي، و«تيوريما» (١٩٦٨)، و«ميديا» (١٩٦٩) مع ماريا كالاس، فضلاً عن فيلم «ديكاميرون» الفائز في مهرجان برلين العام ١٩٧١.

وقدم بازوليني سلسلة روايات، ليختتم مسيرته في الكتابة الروائية مع قصة لم يتسن له أن ينهيها بعنوان (Petrolio)، ويشاع أن معلومات تضمنها فصل قيل إنه ضائع تسببت بمقتله، وفق نظرية من بين نظريات كثيرة.

وفي مقابلته التلفزيونية الأخيرة في ٣١ تشرين الأول ١٩٧٥ في باريس، لخص بازوليني جزءاً من عقيدته في الحياة قائلا، «إثارة الفضيحة حق.. الشعور بالصدمة لذة".

قُتل بازوليني ليل الأول إلى الثاني من تشرين الثاني ١٩٧٥ على شاطئ أوستيا قرب روما، وكانت إيطاليا تعيش حينها فترة اضطرابات سياسية واجتماعية عُرفت بـ«سنوات الرصاص» تخللتها سلسلة اغتيالات واعتداءات هزت البلاد لأعوام طويلة.

وأفضى التحقيق في الجريمة إلى إدانة شخص وحيد في العام التالي هو بينو بيلوزي، العامل في الدعارة، والبالغ وقتها ١٧ عاماً.. وأكد بيلوزي أنه تشاجر مع بازوليني لأنه استاء منه بسبب رفضه إقامة علاقة معه، لكنه غيّر بعد سنوات هذه الرواية التي لم تقنع أحداً في إيطاليا.

ولا يزال الغموض يكتنف الاغتيال، دون إمكان الجزم بالدوافع، سواء أكانت جريمة ارتكبها منحرفون فرديون أم أنه اغتيال بدوافع سياسية ومافيوية، أم الفرضيتان معاً ربما.

وقال الكاتب الفرنسي رينيه دو سيكاتي، وهو كاتب سيرة بازوليني ومترجم أعماله، إن «ثمة تفسيرين متزامنين عن مقتله، أحدهما يصوره شهيداً بما يتماهى مع روح أشعاره والجانب القاتم والانتحاري في بعض نصوصه، والثاني أنها جريمة سياسية».

وتقام فعاليات تكريمية عدة لذكرى بازوليني خلال الأشهر المقبلة، في إيطاليا والخارج، فيما شهدت لوس أنجليس حدثاً استعادياً لأفلامه استمر حتى ١٢ آذار الماضي، بفضل شراكة بين «تشينيتشيتا» وأكاديمية متحف الصور المتحركة.

كتب وعروض

«شال الحرير» رواية الكاتبة الفسطينية بشرى أبو شرار، الرواية القصيدة

عِذاب الركابي

"إنَّ الرواية كَكُل في النهاية هيَ سيرةٌ ذاتية" – إيزابيل اللندي !

«شال الحرير» رواية الـ«أنا» والمكان والزمان والوطن والناس معاً!

في نسيج نثرٍ مُتقنٍ ، يتماهى فيه الشعرُ والنثرُ ، ويصبحُ فيه الساردُ والشاعرُ واحداً ، إذ كُلٌّ منهما بوحٌ confidenceمُضنٍ ، عصارة ذاتٍ متشظيةٍ ... والوقتُ ثلجٌ وصقيعٌ .

" شال الحرير" رواية ذاتُ طابعٍ نستولوجي nostalagie بامتياز !

البطلُ – الراوية narrator الذات ، وهي نزيفُ كلماتٍ محرقة ، حرثٌ في تربةِ الجسدِ ولحمِ الروح .. والذاتُ تبحثُ عن ذاتها . والراوية – الساردة في مهارةٍ عاليةٍ ترسمُ بورتريها لذاتِها ، ألوانهُ صدأ روحِها ، وخطوطهُ وظلالهُ ماتناثرَ من شظايا جسدها المنهك شوقاً وحنيناً ، وهي في عباراتٍ بركانيةٍ ، تمنحُ الحقيقة والمتخيّل شكلاً شعرياً شائقاً ، ورمزياً موحياً بالكثير .

البطلُ الأوحدُ الراوية narrator – الذات الكاتبة في مقاماتٍ بوحٍ confidence مُضنٍ ، جارحٍ في كلّ سطرٍ وجملةٍ وعبارةٍ في أوراق عمرٍ ، تقاسمت كنزَ سنينهِ الأمكنة ، خلاصة عطر بنفسجة أسرارها ، وهي بشفافية الحُلم ، والتي يفيضُ عطرها في اللامكان . هيَ البداية – النهاية ، الأمل – اليأس ، الفرح- الحزن ، كُلّ تضاريس الحُلم يتسعُ بها المكان ، « الوطن» الفردوس المفقود « دورا» جغرافيا القلب ومساحة ذاكرةٍ تنبضُ أبداً في تفاصيلهِ ومفارقاتهِ وأناسهِ وشوراعهِ وأشجارهِ « ذاكرة بمثابةِ دفتر مسوداتٍ" – كما تُعبّر سيجال مور .. وصعبٌ جداً أنْ يطالها صدأ النسيان ، أو تعبث في تربتها رطوبة وظلمة الوقت .

." شال الحرير" رواية ذاكرةٍ جسورٍ بامتياز !!

وعبرَ المونولوج الداخلي ، وأسلوب الفلاش باك flash back، واسترجاع حكي ، تعلو مفرداتُ وجملُ الحوار في أبجديةٍ غير مسبوقةٍ .. والحوار عبرَ قوافي وعوالم القصيدة المتمردة يحتوي كلّ صفحاتِ الرواية ، وبإمكان القاريء أن يستمتع بها شعراً .. حوارٌ بينَ الذاتِ وذاتِها ، وبينَ الذاتِ والوطن ، وبينَ الذاتِ والحبيب الافتراضي ، كُلّ ذلك عبرَ أوركسترا الحنين ، ميراث الساردة العظيم ، حيث تتوزعُ عناصر كيميائه لاحتواء المكان والزمان والذكريات التي تُدفِّيء وتجرحُ في الآن .. النوستالجيا nostalagie الشائقة حيث قِبلة الأرض – الأمّ – الرحم ، البعيدة – القريبة ، الحلم-اليقظة ، الحقيقة – الخيال ، إلى أن تتبعثر كلّ تفاصيلها في محطات المنافي الباردة الرطبة وسكون ليلها المرعب .. والذات – الراوية تكتبُ نفسَها في حبر اللحظاتِ العسيرةِ المضادِ للشحوب ، والكلمات في انسجامٍ وتناغمٍ .

. " شال الحرير" هي الكاتبة - الناصّة textor و" كما أنَّ (أنا) الكاتب تُطلق في العالم الخيالي (أنا) الراوي" – حسب تعبير ميشال بوتور .. والرواية كتابة ذاتٍ مُتشظيةٍ بامتياز!!

و" فعلُ الكتابة يصبُّ في ماهوَ ذاتي صرف" – كما تقولُ إيزيكا سارتوري ! والذات – الكاتبة في « شال الحرير» الروحُ في نزفها المبارك بآياتِ الإيحاء allusion ، وإليها يُنسبُ هذا البوحُ المُستّفز المثقل بأسرارها التي يصعب فكّ شيفرتها إلا بفسفور الحروفِ ، وسحرِ الكلماتِ ، وقوافي القصيدة ، والذات تكتبُ نفسها ، أو تنكتب سيان ! المهم أن ينطقَ الصمتُ ، يُبدع لغةً ، صوتاً ، موسيقا ، احتجاجاً على بعثرة ذهب الروح ، فوقَ رمالِ وقتٍ غادرٍ خؤونٍ :

"صندوقٌ صغيرٌ أجمعُ فيه أقلامي ، صفحاتٍ طويتها وأسكنتها الصمتَ والعتمة ، نور مكتبي شاحبٌ يتسرّب إليه نورٌ متعبٌ ، جاري رآني وأنا لا أدري عن حالةٍ صرتُ إليها ، هلْ تطولُ محطة الغياب؟" – ص٩.

و» شال الحرير « الرواية – القصيدة ، في قوافٍ جديدةٍ ، وأخيلةٍ مبتكرةٍ ، وقد جمعت بمهارةٍ بينَ السرد الرائع ، والاهتمام بالبنيةِ القائمةِ على الأسلوبِ الشعري الجاذب ، ما منحَ الرواية كلّ هذهِ الدهشةِ والمتعةِ - جوهرِ الجمالِ في السردِ .

." شال الحرير" سردٌ narrative واقعي استثنائي .. في شاعريةٍ poetices استثناء الاستثناء ! والخيال الشعري في الرواية يُعمّق الفكرة داخل المخيلة ، ويجنح بها في صورٍ متواليةٍ ومتعددةٍ للحنين ، والراوية – الساردة الصورة الملتقطة في الذاكرة مطابقة لصورتِها الحقيقية .. هيّ «بشرى أبو شرار» تكتبُ نفسها ، وتنكتب في وقتٍ واحدٍ ، في انحيازٍ عنيدٍ إلى جمال الكلام ، وذهب القول ،

إلى السرد الشعريّ الماتع المانح ، العابر للنفوس والأزمان ، بلْ أجزم أنَّ هذا النوع من السردِ لا يُقرأ من دون أخيلةِ الشعرِ ، وإيقاع قوافي القصيدة المتمرّدة .. وغير ذلك لا يُعوّلُ عليه .. إذن هي الرواية – القصيدة بامتياز !!

. السردُ narrative لحظةُ كشفٍ ! و» السارِدُ هو الخالق الأسطوريّ للكونِ الروائي" – حسب تعبير هامبورغر ..!! والرواية حالة الحنين والشوق بكلّ ظمأ الروح إلى الآتي البعيد ، مرثية روحٍ في ذمةِ الغيابِ والضياعِ ، كما ذهب العمر ، كما فستق الأحلام ، حالة مصافحة ما لا يأتي ، وهي أقسى وأمرّ حالات التشظي .. حنين جارف كما السيل المداهم لحقولٍ آمنة ، تارةً إلى الوطن – الذكرى ، وتارة إلى الحبيب وهو ظلٌّ مبعثرٌ في اللامكان ، وقد صارَ الحنين والشوق لهُ صنو الشوق للوطن - جغرافيا التيه ، والفضاء السديمي ، وهو بطعم النبوءة ، والعمر في أجمل سنيهِ ينفرطُ كحبّات مسبحةٍ قديمةٍ ، عنيدةٍ في المحافظة على عطرها ، ولمسات مَنْ يجدّد فيها التسابيح والأذكار .. والأمنيات عاصفة من الضباب في خضم حُلمٍ في الوطن ، صارَ مقروناً بحُلم الذات المصهور في الواقع ، وهي باحثة أبداً عن ذاتها و» الكلّ باطل وقبض ريح"!

." شال الحرير"لحظة ألمٍ فيزيائي – بتعبير سيوران ..!!

ألمِ كتابةِ الحفر ، حيث يتعذرُ الحوار من غير كلماتٍ قدْ تمرغت بمشاعر وأحاسيس لا حصر لها .. مهارة كتابةٍ عاليةِ الصوتِ والصدى ، نسيج سردي خرافي ، خليط بديع من الشعر والنثر ، والتشكيل ، والدراما ، والموسيقى .. كلّ ذلك في إيقاع نستولوجي nostalagie مثير وجاذب ، الكلمات تتبارى وتسابقُ نفسَها في صوغ صورة تماهي الذات والوطن والحبيب ، عبرَ شريط ذكرياتٍ لا تدفيء ، ولا تجرح فحسب ، بل تحكّ على جرحٍ نازفٍ على امتداد أفق الغياب ، والخيال منطاد نجاة الراوية المثقلة بقطاراتِ صمتها الذي أصبح أكثر صخباً واستفزازاً من الكلام ، حين تغيب وتتعثر خطى البهجة المنتظرة ، ولا ترى الذات نفسها ، ولا يراها أحدٌ إلاّ مواقيت خرجتْ من أجندتها ، بلْ وتمردت على وقتها ، وهي في صلاةِ توسلٍ وخشوعٍ لآلهة الحنين.!

." شال الحرير ".. وليسَ إلاّ الوطن !

ومستند الانتماء الأمثل الروحُ .. الوطنُ العاشق والمعشوق في آنٍ ، وليد عشقٍ إلهي كونيّ ، متخذاً من لحمِ روحِ الساردةِ سكناً ، ومن جسدها ماكنة حياةٍ وأملٍ وولادةٍ ، عشق فوق القوانين !

والرواية سيرة وطنٍ وذاتٍ معاً ، أسطورة عشق ، غارقة حروفها وتفاصيلها في أعماق الذات وصراعها وذاتها في ظمأ إلى الآتي البهيج البعيد ، وهو صراع مضن بينَ الذاتِ والوطن ، وبين الحُبّ والحرب ، وبين معابد العدالة المهجورة وممالك الظلم ، وتضاريس عالم في جانبه المظلم ، والبطل

الأوحد الوطن ، وهو يتمزق أشلاء .. يغيب .. يتلاشى .. وتشحب ملامحه في نهار وشمس العالم الذي يرى الأشياء بعيونٍ من زجاجٍ ، ويسمع بآذان من خشبٍ ، ويتنفس قضايا الإنسان برئةٍ من إسفنج ، والعابثون بنبض الحياة في هذا الوطن أغراب كثرٌ ، اختلفت أماكنهم ، وجنسياتهم ، وعقائدهم ، وأسماؤهم ، وهم واحدٌ ، يعبثون في ذراتِ وطنٍ ، وهي من أجساد مواطنيه ، ومن ذهب أرواحهم من « غزة» الصابرة و«دورا»الذكرى إلى « دمشق» و» حلب» و«بغداد» و«صنعاء» وإلى كلّ شبر باتساع جغرافيا وطنٍ لمْ تعُد غير لهيب همومٍ وعذاباتٍ وانكساراتٍ وهزائمَ وحيرة ، تعمقها كيمياء حروبٍ مفتعلة ، هدر كرامةِ وطنٍ ، أصبح أهله مواطنين مجازاً .. والكاتبة – الساردة في نزيف شوقٍ تعيد عبارة – باتريشا جريس : « عندما أفكّرُ في الوطن ، ينتابني الحزنُ والبكاء"..!

." ما أقوى الحُبّ !" – كازنتزاكي !

الحُبّ بمفردات السردِ narrative المتقن ، في طقوس صلاةٍ ، وضوؤها دمعُ الحنين والشوق ، والحبيب الغائب صورة الوطن الأنقى ، نسمات الفردوس الأرضي المفقود ، وقد استحوذ على سحر الوطن البعيد – القريب ، ولمْ يترك لهُ شيئاً غير وابلِ أمطارِ الحنين ، كلّ وقتِ الوقت ، وانتظار الانتظار ، وفي تماهٍ بفسفور مفردات القصيدة ، يصبح الحبيب الافتراضي وطناً ، والوطنُ حبيباً ، واقعاً وحُلماً ، حقيقة وخيالاً ، والمحبّ المغرم ساردة أنثى هدير الوجود – حسب تعبير لوران غسبار .. وضوؤها الكلماتُ في صلاةِ الوطن ، وقد تركت كلّ قارات البهجة ، لايبدو الفرحُ مهنتها ،وهي نهبَ عواصف حزنٍ شفيف ، وليس أمامها إلاّ أن تعيد قراءة الشاعر الصوفيّ ، فيلسوف الحبّ الإلهي – جلال الدين الرومي ، وهو لا يحرضُ على الحبّ من أجل صنع الحياة وحسب ، بل في فقهِ الحبّ الشائق يقول : « لا تكُنْ بلا حُبّ ، كيْ لا تشعر بأنك ميتٌ ، مُتْ في الحُبّ ، وأبقى حيّاً إلى الأبد"!

حُبُّ الوطن هو حُبُّ الحُبّ ، بكلّ فقههِ ، وابتهالاته ، ومفارقاته ، وانتصاراته الخلبية ، وأفراحهُ الافتراضية ، لحظة أملٍ وحياةٍ ، وقد أصبحَ الوطنُ والحبيبُ واحداً ، وحديث وبوح الساردة عن نفسها ، هو حديث عن العالم مجازاً.

." فالسرد يقولُ غالباً (أنا) أكثر من قولهِ (أنت)» – رولان بارت !

وبفقهِ السرد narrative، فإنَّ القدرةَ على البوحِ confidence في صورة الـ«أنا» لا يعني انفصال وابتعاد عن «ألاخر» ، بلْ هي جزءٌ منهُ ، كلٌّ منهم يُكمّل الآخر « الساردة – الوطن – الحبيب» في اتحاد الهمّ والمصير والرؤى . وما بينَ الساردة – الناصة textor والوطن والحبيب الافتراضي ، ليسَ سوى قصائدِ حُبٍّ بإمضائهم معاً ، ترانيم روحٍ ، ومزامير عشقٍ ثمرة مشاعرٍ لا حصر لها ،

بعد الكلمات ، وبعدَ الخيال ، سردٌ يفتح أبواب اللغة في إيقاعها الشعريّ النبؤيّ لظمأ الحكاية التي تتناسلُ إلى حكايات ، نوعٌ من الكتابة بدمِ القلب ، وليسَ بالحبر ، على لحمِ الروحِ ، وليسَ على ورقٍ غارقٍ في البياضِ والصمتِ .. ولمْ يبقَ إلاّ الوطن .. ولمْ يبق إلاّ الحبيب ، والزمان نستولوجي في شريط ذكرياته ، وهي تُقرأ وتُشاهدُ في الآن ، نضرة عبقة على أوراق زيتون يافا ، وبرتقال حيفا، والأمطار التي تسقط على البيوت في « دورا» أرض الطفولة ، بداية العشق الجنونيّ ، أول أبجدية النضال ، وحدها مَن يذكّر بأطياف « درويش» و»ماجد» و» يخلف» و» القاسم» ، حيث موسيقى حُلم الكتابة والشعر ، المتلوّ باليقظة البهيجة العنيدة ، وهي تُسفّهُ بشجاعةٍ وإصرارٍ كلّ أبجديةٍ للاحتلالِ ، وتلغي كلّ خطوةٍ آثمةٍ للمحتلين والمغتصبين .

. يقولُ الروائي ج.م. كوتسي في رائعتهِ (أليزابيت كستلو) : " إنَّ الماضي بالمثلِ حكاية .. الماضي تاريخ .. وأنَّ هناك شيئاً عجيباً في الماضي ، يفتقرُ إليه المستقبل"- ص٦٤..!!

في « شال الحرير» الماضي بطلاً أيضاً !! حاضرٌ بقوةٍ ، بمثابة حرثٍ في تربةِ الذات ، وذبذباتِ كهرباء البوح confidence، وإذا ما بدا في حضوره قاسياً موجعاً ، فهو بداية النهاية لجرحٍ سرّيّ فاغرٍ فاه أبداً على أوراق الذكريات التي لن تطالها رطوبة الوقت على مدى الأزمان والحقب .. وبفقه سردِ جورج أورويل ً فإنَّ « الماضي كانَ لهُ وجود حقيقيّ".

وفي « شال الحرير» الكاتبة – الساردة هي ماضيها الذي يصعبُ التخلص منهُ .. والإنسانُ بلا ماضٍ بلا وطن .. بلا حُبّ .. وبلا حياة ووجود !

:" كُلما أطلّ بابُ العامود من زهرات ذاكرتي ، يطلُ وجهُ أبي ، يوم ترجلتُ من العربة التي حملتنا إلى رحاب القدس ، كفّي في كفّ يدهِ ، أحثّ خطواتي لنصير على ذاتِ المسافةِ ، يطلُ بابُ العامود ، نعتلي العتبة الرخامية ، تلفحُ وجهي نسماتٌ مقدسية" – ص١٠٠.

. " شال الحرير" وحكاية الآخر – العدوّ الأزليّ الذي تسطرهُ كتبُ التاريخ ، بأحرفٍ متخاذلة يائسة ، حضوراً مفروضاً .. مباركاً بكلّ سقطاتِ وظلم العالم وانحرافهِ عن طريق الحقيقة، وهو يجرحُ ضميرَ العدالة ، بأجنداتٍ وأضابيرَ في أوراق صفراء مهترئةٍ ، دبجّت حروفها أناسٌ ليسوا سوى نفاياتٍ بشريةٍ ظالمةٍ .

والآخرُ – العدوّ الفيروس الدنيوي الخطير ، والذي ليسَ من أعراضهِ غير التهجير والشتات وغربة الغربة في عالم يخطو بأقدام الوباء ، وهويملأ الدروب أمام المهجرين والمطرودين ظلماً ، شوكاً ، وأحجاراً ، وبوابات صدئة ، ونقاط تفتيش .. فكيف لا تكون كلّ صرخةٍ لهم من ضمير الكون ؟ وكيف لا تكون كلّ دمعةٍ إعلان احتجاجٍ ناريا ً ، بلْ بركانياً ، وكُلّ خيطٍ ولونٍ في نسيج شال الحرير

ذكرى ، تقضّ مضجعَ العالم المنحاز للعدو – الوباء – الظلمة ، وهويرى آيات النور تملأ الفضاء بلا حدود ، وهو يجهل قراءة كلّ حرفٍ منها :

" أنا أعرفُ ، وأنت تعرفُ بأنّ كلّ ما يحيط بنا من تبدلاتٍ وتحولاتٍ صارت على أهلنا من قبلنا ، رحلوا ونحنُ نحملُ ذات الإرث .. لا حيلة لنا إلاّ أن نلوذ بمواقيت صبرنا ، ونعيد تشكيل ذواتنا ، إنّنا حياة بشر غير هذا البشر ، إننا واحدٌ.." – ص١٠٤.

." إنَّ حياتي تتجسّدُ حينَ أرويها ، وذاكرتي تثبتُ بالكتابةِ ، وما لاأصوغهُ في كلماتٍ ، وأدونهُ على الورقِ سيمحوهُ الزمن" – إيزابيل اللندي / بولا ص١٧.

و» شال الحرير» كتابة الذات ! كلّ كلمةٍ هي أشبه بجمرةٍ حارقة ، ولا يستطيع الكاتب – السارد ، مهما بالغَ في استخدام وسائل وحيل التخفي ، الهروب من إيعازات ونداءات ذاته ، وهي لدى الروائية بشرى أبو شرار سيلٌ جارفٌ ، وهي تتحدث عن ذاتها ، أو تكتب ذاتها ، أو تبحث عنها .. والكاتبة «بشرى أبو شرار» موجودة في كلّ سطرٍ في سردها ، وهيَ لا تملّ ، ولا تتعب ، أو تؤجّل كتابة ذاتها ، مادامَ البوحُ عزفَ حنينٍ وشوقٍ وعشقٍ ، بل أوركسترا إنسانية .

." الرواية هي قصيدة القصائد ، وهي مزيج من النصوص والألحان" – باختين !

" شال الحرير" الرواية – القصيدة !!

وكلتاهما فنان عابران للنفوس والأزمان ، في شفافيةِ وبراعةِ ساردةٍ تصغي لفعل الكلمات ، وتسحرها تفجيرات اللغة .. والرواية والقصيدة كلٌّ منهما يستلفُ من الآخر في تناغمٍ جميلَة، وهو يجوب حدائقه المحرمة ، ويقطفُ أجملَ وروده ، وفي السرد المتقن يُكملانِ بعضهما في لوحةٍ تشكيلية فسيفسائية ، بعطر لغةٍ شعرية فاتنة ، وذبذباتِ خيالها اللازورديّ ، وكهرباء إيحاءاتها .. والرواية – القصيدة كتابة في الحُلمِ ، كلمات ، إيقاع ، تشكيل، وحسب كورت فونيغوت : « انفرطتُ في حُلمي بأن أصنعَ بالكلمات ما كانَ يصنعهُ بابلو بيكاسو في الرسم ، أو ما كان يصنعهُ أرباب الجاز بالموسيقى"

" برعمة صارت روضةً فيك ..!

أذهبُ بعيداً في اللاعنوان !!

أرنو إلى عالمَك حيث لا بشرَ هناك سوى كلمات ..كلمات !

الكلمة خضراء .. أنتَ الشجرُ .. الشجرُ أنتَ .. المطرُ أنتَ !" – ص١٥٤.

." مَن يُعيدُ لي شال الحرير؟" – الرواية ص١٨٢!

مَن شال الحرير ؟ الوطن ؟ الحبيب؟ القضية؟ الأهل؟ الصحاب؟ الذكريات؟ .. هوَ كلّ هذا بفقهِ السردِ الشعريّ الحُلميّ !

مَنْ شال الحرير؟ دورا ؟ فلسطين؟ أم هو الخطوات الحالمة فوق تربتها ، وقد نسيت أقدامها المسافات؟ أمْ هو الدفاتر الشتوية ، بكل ما فيها من قصائدَ وقصصِ العشق ومزامير النضال؟ أم هو بريقُ أوراق أشجار الزيتون المتبسمة صباحاً في وجهِ مَن يبادرها بالتحية ؟

"شال الحرير" كونٌ ، عالمٌ ، دُنيا ، حياة ، عمرٌ ، مستقبل !! كُلّ هذا زائد خريطة وطنٍ بجغرافيا وتضاريس يختلفُ عن كلّ الأوطان ، وفي عشقهِ وحنينهِ ووقتهِ الرومانسيّ هو كُلّ الأوطان !

" شال الحرير" الرواية – القصيدة وكفى ! " لأنني أردتُ أن أحتفظَ للروايةِ بجميعِ طاقاتي الشعرية" – (ميشال بوتور / بحوث في الرواية الجديدة –ص١٤٧).

." شال الحرير أنا ولا أحد سواي" – الرواية ص١٨٢!

" شال الحرير "رواية حُبّ الحُبّ ، قدْ يبدو جارحاً ، لكنّ التخلّي عنهُ صعبٌ لأنهُ : « تجربة التجارب ، القوية أكثر ، والمطلقة أكثر" – كما يعبّرُ ماريوفرجاس يوسا !

*"شال الحرير" – رواية – بشرى أبو شرار – الآن ناشرون وموزعون / الأردن – عمّان ٢٠٢١.

د. محمد علي حلَّة، الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩

رانية عبدالرحيم المدهون

عَرَضَ هذا الكتاب لثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩، الوطنية الفلسطينية، وإن بمراجع ومصادر جديدة، ما يبرِّر صدور هذا الكتاب عن تلك الثورة، وضم الكتاب ٤٧٦ صفحة من القَطع الكبير، ضمَّنهُ تقديماً، ومقدِّمة، وتمهيداً، وستَّة فصول، وأنهاهُ بخاتمة.

بدأ التقديم الذي خطَّتهُ هيئة تحرير الكتاب، بإضاءة نقطة جوهرية هامة؛ هي أن فلسطين قضية العرب الأولى؛ وهي حقيقة حاول الكثيرون طمسها؛ إما لضآلة وعيهم القومي؛ أو لتوجُّهاتهم المحلية الضيِّقة.

المفارقة أن الكاتب انتقد استخدام مصطلحي اليهود، واليهودية؛ بدلاً من المصطلحين السياسيَّين الصهاينة والصهيونية؛ وسرعان ما وقع الكاتب في المحذور نفسه.

تناول تمهيد الدراسة عرضًا لأهداف الصهيونية في فلسطين، التي تتلخَّص في تهويد فلسطين العربية، لإقامة «وطن قومي لليهود» فيها؛ ونرى أن الكاتب انجرَّ في توصيفه لأهداف الصهيونية، إلى ما أرَّخ له الصهاينة ذاتهم، حين تذرَّعوا في إقامة آباء الحركة الصهيونية للمستوطنات، إلى (هفوات) كبار السن اليهود للموت في الأرض المقدَّسة! والذين اضطروا للاشتغال بالزراعة، داخل مستعمرات زراعية، لسد احتياجاتهم، بدلاً من العيش على التبرعات؛ وكأن اشتغال الصهاينة بالزراعة، وإنشاؤهم للمستوطنات، قد بات وسيلة للعيش الكريم، وليس غاية لإقامة دولة صهيونية مُصطنعة.

كما وصَّف الكاتب رغبة تيودور هرتزل، رئيس «المؤتمر الصهيوني العالمي»، في الحصول على صك دولي لدخول فلسطين، بأن هرتزل يرى أن اليهود أصحاب حق، وليس بأنه كان يؤسِّس لخديعة العرب، والعالم.

أما في حديث حلَّة عن مشروع استيطان الصهاينة في شرق إفريقية (١٩٠٣)، أرجع فشل المشروع

إلى أسباب عديدة، منها أن الصهاينة اعتبروا هذا المشروع خيانة للفكرة الصهيونية، وأن فلسطين كانت وجهتهم الدينية التاريخية، ولا يرضون بسواها بديلاً؛ هان أسقط المؤلف حقيقة أن الحركة الصهيونية كانت ولا تزال حركة سياسية استيطانية، إجلائية، إحلالية، في حقيقتها، ولا وجود للنازع الإنساني، أو الديني الذي زعموه.

انتقل الكاتب في تمهيده إلى المساعي الصهيونية السياسية، والدبلوماسية لإنشاء وطن مُصطنع، ثم تغيُّر الموقف البريطاني من الحركة الصهيونية، حسب مصالحها، ثم منحها للصهاينة ما لا تملُك، بإنشاء «وطن قومي لليهود» في فلسطين، فتوسُّطها للقاء الشريف فيصل بن الحسين، ابن ملك الحجاز، وحاييم وايزمان، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، لاحقًا، الأمر الذي يُعد نجاحًا سياسيًا للحركة الصهيونية، وما تبع ذلك من تبلور سياسي للحركة العربية الفلسطينية، في مواجهة الحركة الصهيونية، والذي بدأ بعقد أول مؤتمر عربي فلسطيني، في مدينة القدس، من ٢٧ كانون الثاني/يناير، إلى ٩ شباط/فبراير من العام ١٩١٩، وأطلقوا عليه «المؤتمر العربي الفلسطيني الأول".

غطّى الفصل الأول من الكتاب أسباب نشوب ثورة ١٩٣٦، بعد فرض «الحلفاء» في مؤتمر «سان ريمو» (٢٥ نيسان/أبريل ١٩٢٠) انتداب بريطانيا على فلسطين، وسرعان ما تقدَّمت بريطانيا بطلب إلى عصبة الأمم للموافقة على صك الانتداب»، وضمَّنت الطلب «وعد بلفور» للصهاينة بإنشاء «وطن قومي» لهم في فلسطين (٢٠ تموز/يوليو ١٩٢١)، حيث تحوَّل بذلك الوعد من محض تصريح، إلى وثيقة دولية مُلزِمة.

عملت حكومة الانتداب البريطاني؛ سياسيًا، وقانونيًا، وإداريًا؛ على تمكين الصهاينة من السيطرة على فلسطين العربية، وابتلاع، وسرقة أراضيها؛ فلم يَتح الانتداب إقامة حكم ذاتي لأهالي فلسطين الأصليين، أو حتى تشكيل مجلس تشريعي بالمحاصصة بين الأغلبية العربية في فلسطين، والوجود الصهيوني، الذي مثَّل الأقلية على أرض فلسطين، وساعدت القرارات والقوانين التي أصدرتها حكومة الانتداب، الصهاينة، على تكثيف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ونقل أراضيها لحوزتهم، وتمكين الصهاينة اقتصاديًا، وتسليح كيانهم المصطنع، وبالتوازي تجهيل الشعب العربي الفلسطيني، والحيلولة دون تقدُّمه، لا سيما وأن سلطات الانتداب رفضت منح الفلسطينيين تصريحًا لإنشاء جامعة عربية في مدينة القدس، ووصول الحد إلى إصدار حكومة الانتداب دستورًا لفلسطين، مستوحى من وثيقة الانتداب، سهَّل إقامة دولة للصهاينة في فلسطين، الأمر الذي دفع العرب إلى الخروج في هبَّات، وانتفاضات، وتأسيس أحزاب لهم.

لفت الكاتب إلى أن الحكومة البريطانية بحثت مِرارًا عن حل يُرضي العرب، ويكون مقبولاً من

اليهود، الأمر الذي لم يحدُث؛ كما أن بريطانيا كانت تُقَدِم مشروعاتها السياسية بخصوص فلسطين، إثر حدوث الهبَّات؛ ولكن رفض العرب لهذه المشروعات، لعدم تحقيقها مآلاتِهم الوطنية، ورفض الصهاينة، أحيانًا، لبعض المشروعات، لعدم إرضاء طموحهم الاحتلالي بها، أدى إلى فشل غالبية المساعي البريطانية.

سرد حلَّة في الفصل الثاني، مزاعم الصهاينة، وذرائعهم لاحتلال فلسطين، وركَّز على سنوات ما بعد الانتداب البريطاني، ثم عرض أسباب، وملابسات الثورة العربية الفلسطينية الكبرى، وتأثُّرها بوجود حركة وطنية عربية، في ذلك الحين، ورغبة العرب في التحرُّر على مدى أقطار الوطن العربي، إلى جانب تهيّؤ أجواء دولية مناسبة، لظهور بوادر حرب وشيكة في أوروبا.

على إثر توافُر اللحظة الثورية، والظروف الذاتية، والموضوعية لعرب فلسطين لاشتعال الثورة، تشكَّلت مجموعة عربية مسلَّحة في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٣٥، بقيادة الشيخ عز الدين القسَّام، العربي السوري، للتحرّك، والنضال.

أشار الكاتب إلى تأثير حركة القسَّام على عرب فلسطين، وإكسابهم الثقة في القدرة على المقاومة المسلَّحة للانتداب البريطاني، وإمكانية الضغط بالعمليات الفدائية على حكومة الانتداب، لفرض تطلُّعات العرب الوطنية.

تناول الفصل الثالث الثورة في مراحلها الأولى، حين تسبَّبت عملية فدائية قامت بها مجموعة من القساميين على طريق طولكرم-نابلس، عندما أوقفوا حافلة، وأطلقوا الرصاص على ثلاثة من الصهاينة، كانوا ضمن رُكّابها، وتطوُّر الأحداث، حتى بدأ الإضراب العام الشامل داخل الأراضي العربية الفلسطينية، واشتعال مظاهرات، وحِراكات جزئية في المدن الفلسطينية الكبرى، وتنسيق الأحزاب فيما بينها، مكوِّنة «اللجنة العربية العليا»، ثم قدوم الثوار العرب السوريين، والعراقيين، والأردنيين، وعلى رأسهم الثائر العربي اللبناني، فوزي الدين القاوقجي، في أوائل شهر آب/أغسطس من العام ١٩٣٦.

ثم انتشرت العمليات العسكرية، بعد ذلك، ضد قوات الانتداب البريطاني، لمدة شهرين، حيث قامت حكومة الانتداب بزيادة أعداد قواتها العسكرية لوأد الثورة، والزج بالحُكَّام العرب في شرق الأردن، والعراق، والمملكة العربية السعودية، للضغط على العرب الفلسطينيين لإيقاف ثورتهم، وإيهام الثوار بقدوم لجنة ملكية بريطانية، لحل الأمور بشكل مُرضٍ للعرب.

يُحسَب للكاتب أنه فنَّد ملابسات الثورة بدقَّة، ذاكرًا أداء الصهاينة خلال الثورة، ودمويتهم في وضع قنابل موقوتة في أماكن تجمُّع العرب، مُدَّعين أنهم يتحكَّمون في ردود أفعالهم، وأن كل ما يقومون

به هو محض دفاع عن النفس!

ذكر الكاتب، أيضًا، رد فعل قوات الانتداب، التي عاثت عُنفًا في العرب، وقامت بفرض قانونٍ للطوارىء، واعتقلت الكثير من الثوار العرب، وزادت عبء الأهالي بفرض غرامات مالية عليهم، وهدم أحياء كاملة لهم، وبلغ الأمر حد تنفيذ حكم الإعدام في الكثير منهم.

تطرَّق الكاتب في الفصل الرابع إلى وصول اللجنة الملكية البريطانية إلى فلسطين، التي بدأت بالاستماع إلى شخصيات قيادية في الحكومة البريطانية، ثم إلى شخصيات عامة صهيونية، وأخيرًا، وبعد أن كانت «اللجنة العربية العليا» رافضة مقابلة اللجنة الملكية؛ قام حكَّام العرب بإقناعهم بلقاء اللجنة؛ وبالفعل، قامت اللجنة بالاستماع إلى الزعماء العرب، والشخصيات العامة منهم، وبعدها قدَّمت تقريرها يوم ٧ تموز/يوليو من العام ١٩٣٧، الذي طرح اقتراحًا لتقسيم فلسطين إلى جزئين؛ أولهما عربي، والآخر صهيوني، مع خضوع الأماكن المقدَّسة للانتداب؛ وهو المشروع الذي رفضهُ العرب، ووافق عليه الصهاينة.

انتقل حلَّة إلى المراحل التالية للثورة، حين تم اغتيال مسؤول بريطاني، نهاية أيلول/سبتمبر من العام ١٩٣٧، وتطوُّر الأمور، بعد ذلك، بسبب اعتقال معظم أعضاء «اللجنة العربية العليا»، واختفاء البعض الآخر، وخروج الحاج محمد أمين الحسيني، مفتي فلسطين، سرًا، إلى لبنان، فانتقلت الثورة من يد الزعماء السياسيين، إلى يد الثوار المسلحين، ليقودوها خلال العام ١٩٣٨. كما أن العرب الفلسطينيين لم يولوا اهتمامًا إلى لجنة «وود هيد»، التي أرسلتها الحكومة البريطانية لدراسة مشروع تقسيم فلسطين، ولم يلتفتوا إلى الزيارة المفاجأة التي قام بها وزير المستعمرات البريطاني، مالكولم ماكدونالد، إلى فلسطين، وآثروا استمرار ثورتهم.

صعَّدت سلطات الانتداب عملياتها العسكرية لمواجهة الثورة، في محاولة للقضاء عليها، فجلبت قوات عسكرية إضافية إلى فلسطين، إلى جانب عدد من الكتائب العسكرية، من مصر، ومالطا، مع إمداد كل من قوات الشرطة البريطانية، والصهيونية داخل فلسطين، بدعوى حماية المستوطنات الصهيونية من الثوار العرب؛ ولكن الثوار ازدادوا ثباتًا، ليهدِّدوا بذلك الوجود البريطاني في فلسطين.

وفي فصله الخامس، انتقل الكاتب إلى المرحلة الأخيرة من الثورة، متناولاً انعقاد مؤتمر لندن، (شباط/فبراير ١٩٣٩) وصدور «الكتاب الأبيض»، آيار/مايو ١٩٣٩)، وموقف كل من الحكومة البريطانية، والصهاينة من الثورة، وتداعيات الثورة في الوطن العربي، والعالم الإسلامي.

يؤخذ على الكاتب هنا في تحليله للبنود التي ذكرتها الحكومة البريطانية في «الكتاب الأبيض»، أنه اعتبر الموقف البريطاني بمثابة اعتراف بحقوق عرب فلسطين في الحفاظ على أراضيهم، مُسقِطًا أن

حكومة الانتداب تعثَّرت في إخماد الثورة، ما دفعها للتهدأة مع العرب بكتابها الأبيض، للالتفاف حول الثورة، بالتسويف؛ حتى تتفرغ بريطانيا لمواجهة الخطر النازي، بعد أن ظهرت سحب الحرب العالمية الثانية في الأفق.

أكمل حلَّة في الفصل السادس رصدهُ لهذه المرحلة، بأن ذكر رفض الصهاينة لـ «الكتاب الأبيض»، متطلِّعين لاصطناع دولة لهم في فلسطين.

بدأت الثورة بعد ذلك في الانحسار، نتيجة لنقص إمدادها بالسلاح، والمال، إلى جانب القبض على الكثير من قادتها العسكريين، وإبعاد زعمائها السياسيين، خارج البلاد، واغتيال قائدها العسكري الأول عبد الرحيم الحاج محمد، وهو ما لم يَذكرهُ المؤلِّف.

أشار الكاتب إلى تداعيات الثورة، على الوطن العربي، والعالم الإسلامي، ذاكرًا مساندتهما لها، ورفضهم لاقتراح تقسيم فلسطين، وعقدهم «المؤتمر العربي القومي»، في سوريا، أيلول/سبتمبر من العام ١٩٣٧، وبعده «المؤتمر الطبي العربي» الذي عُقد في بغداد ٩ – ١٣ شباط/فبراير من العام ١٩٣٨، ثم «المؤتمر البرلماني» الذي عُقد في مصر، ٧ – ١١ تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٣٨، تبعه «المؤتمر النسائي الشرقي»، الذي عُقد في مصر أيضًا، ١٥ – ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٣٨؛ وهي مؤتمرات نظَّمتها هيئات شعبية عربية، حيث أجمعت تلك المؤتمرات على تأييد الثورة، ورفض مشروع التقسيم بشكلٍ قاطع.

أنهى حلَّه كتابه بخاتمة مقتضبة، لخَّص فيها العوامل التي أثَّرت على الثورة الفلسطينية الكبرى، وأهمها الظروف الذاتية، والموضوعية للعرب في كل الأقاليم، مشيرًا إلى إيجابيات وسلبيات الثورة، وأسباب عدم تحقيقها لأهدافها.

يُحسب للكاتب تأكيده على السمات الحقيقية لثورة ١٩٣٦، بدقَّة، وموضوعية كاملة؛ ولعل أهمها شعبيَّة الثورة، والدور الهام التي قامت به «اللجنة العربية العليا»، وما أحدثته الثورة من وِحدة المكونيْن العربيَّين؛ المسلم، والمسيحي؛ في فلسطين.

اعتمد حلَّة في كتابه على مصادر أصلية، لاسيما وثائق وزارة الخارجية البريطانية، ووزارة مستعمراتها؛ بالإضافة إلى تقارير وبرقيات كانت وزارة الخارجية البريطانية تتلقَّاها من مكاتبها الدبلوماسية في العالم؛ إلى جانب التقارير السنوية التي قدَّمتها الحكومة البريطانية إلى عصبة الأمم؛ إلى ذلك مضابط مجلس العموم البريطاني؛ ووثائق الخارجية الأميركية؛ إلى المراجع المعاصرة لعدد من كبار الكُتَّاب العرب الفلسطينيين، وعلى رأسهم محمد عزة دروزة، وأكرم زعيتر، وإميل الغوري، وعوني عبد الهادي، والسياسي المصري، محمد علي علُّوبة باشا، ومذكرات كل من محمد أمين

الحسيني، وطه الهاشمي، وتوفيق السويدي، والملك عبد الله بن الحسين.

كما اطَّلع الكاتب على المراجع الصهيونية، لا سيما كتابات حاييم وايزمان، أول رئيس للكيان الصهيوني، وديفيد بن جوريون، أول رئيس وزراء للكيان، ونورمان بنتويتش، النائب العام البريطاني في فلسطين، ومراجع، ودوريات، ووثائق أخرى.

انزلق الكاتب إلى اعتماد مصطلحات استعمارية، خاصة حين وصف الثورة بـ»اضطرابات»، غير مرة، فضلا عن أنه لم يلق ضوءًا على المحددات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية للثورة.

يلاحظ أن حلَّة كان يقدم تحليلاً لبعض المعلومات في موقع من الكِتاب، ليعود ويُناقِض ما ذكرهُ في تحليل آخر، وقد تكرر في الفصل نفسه، غير مرة.

على الرغم مما شاب البحث؛ شكليًا، أو موضوعيًا؛ فلا جدال بأن المرجع وضع الثورة العربية الفلسطينية الكبرى في حجمها اللائق بثورة أوقفت العالم على أطراف أصابعه لسنوات، حتى تآمرت عليها دول، وتهاونت في حقّها أخرى.

في الفيلم الوثائقي «يافا ام الغريب»

رائد دزدار .. استعادة يافا!

تحسين يقين

هل كان بالإمكان!

«انا نزلت على البحر وصفنت.. وقلت له انت متذكرني؟»

«اه... بس أنا زعلان منك؟»

ليش؟

«انا هجت مرتين علشان ما تطلعوا»....كلمات سهام الدباغ.

لكن، كان ما كان، ليؤكد زكي النورسي في آخر الكلمات: ستعود روحي يوما ما الى يافا.

يافا!

يافا، وصمت، كأن المفردة هنا لغة وحكاية ووطن.

يافا، بمد حرف الألف، كما ينطقها راوي الفيلم، تختصر الحكاية، وتختزل ٧٤ عاما من نكبتها.

موج جميل، موجات تجري وراء بعضها بعضا، بمصاحبة موسيقى معبرة، حيث تطل يافا اليوم، ثم ليأتي تاريخ المكان المرتبط بتاريخ فلسطين.

التاريخ القريب لنكبتها ينسينا تاريخها العريق، لذلك سنبدأ بالمقابلات، كي نعيد جميعا من خلال الرواة بناء المدينة الأكثر حضورا في الوجدان الفلسطيني.

نحن إزاء مقابلات لها أهمية تاريخية وإنسانية وفنية، من خلال تقسيم ممكن عن جوانب حياة يافا، من خلال مقابلات تناولت كل جانب، إلا أنه كان صعبا ربما أن تكون المقابلات محددة تماما،

حيث تداخلت المواضيع والمضامين، تبعا لتدفقات من كانت تتم مقابلتهم.

المشهد اليافي العام:

اشترك في هذا الجانب، الذي تناول يافا بشكل عام كل من : تحسين الكريدلي، وأنطون خوري، وصلاح الدباغ، وأحمد نور السقا، والفنانة تمام الأكحل، وسهام الدباغ، وازدهار الفرخ، وفؤاد شحادة، وأبو نزار أبو شحادة (الذي بقي باقيا هناك). وهنا جرت الأحاديث عن المدينة، من خلال تموضع بيوتهم في يافا، مثل شارع النزهة وتلة العرقتنجي، حيث كانوا جميعا، بما فيهم الباقي أو نزار أبو شحادة، يصفون يافا كأنها أمامهم فعلا، بما يعني كم رسخت المدينة السليبة في العقول والقلوب. صحيح أن أعمارهم عام ١٩٤٨ مختلفة، لكن من كان/ت طفلا أو طفلة، كتمام الأكحل(التي تحدثت مبتسمة) عن مشاهدتها للميناء خصوصا مشهد تنزيل السيارات الحديثة في الميناء من خلال الرافعات الكبيرة. النساء مثل ازدهار الفرخ وسهام الدباغ تحدثنا عن طقوس العيد، والكعك، فيما تحدث آخرون عن حالة الانسجام بين السكان من مسيحيين ومسلمين. في حين ربط فؤاد شحادة بين يافا وبيروت التي قدمت أسرة والدته (صروف) منها.

حداثة وتنوير تعليم راق

اشترك في هذا الجانب فيوليت ناصر(معلمة صغيرة) وأحد أبناء يافا من الجيل الجديد الباقي الباحث سامي أبو شحادة، ود. محمد أبو لغد، وزكي النورسي، وطاهر القليوبي، وخير الدين أبو الجبين.

ظهرت مدارس يافا التي كانت تعلم باللغتين الفرنسية والإنجليزية تأسست ١٨٦٣، ومدرسة العامرية التي كان مديرها الأستاذ علي شعث، والمدرسة العدوية.

وبالطبع كان يصاحب الروايات صور وفيديوهات تظهر تلك المدارس، ليتأكد لنا عمق التنوير والحداثة التي كانت يافا تعيشهما.

صحافة:

اشترك في هذا الجانب: د. سليم تماري (باحث ومن عائلة يافية عريقة ويقيم في رام الله) وخير الدين أبو الجبين، وفؤاد شحادة المحامي؛ فيافا كانت مركز الصحافة ولم يكن غريبا أن أهم رموز الصحافة منها امثال الراحلين محمود ابو الزلف وآل العيسى و آل الشنطي وآل السبع. وبالرغم من أن الصحافة، والصحف اليافية، شكلت خلفية للكثير من الروايات هنا، لما يقرب من ٢٥ شخصية، كونها وثيقة جوانب حياة المدينة الحية، إلا أن المخرج قد خصص جانبا لها، حيث ظهر تطورها

الملموس، ظهرت صحف فلسطين والدفاع والصراط ونداء الأرض (التي تضمن نكاتا سياسية على ما يبدو كنوع من النقد السياسي). وظهر دور الإعلام هنا في ثورة عام ١٩٣٦، ومن ذلك توسيع ميناء تل أبيب خلال إضراب عمل ميناء يافا الإضراب المشهور في السنة نفسها.

وبالطبع كان يصاحب الروايات صور وفيديوهات تظهر الصحف، والمستوى العظيم للصحافة في يافا،

كما تم إيراد جزء من أغنية «يا أم العباية» لسهام رفقي التي كانت تزور يافا لإحياء حفلاتها، كون الصحافة قد كانت مجالا للحديث عن الفنانين الزائرين ليافا، والذين كانوا يضعون إعلانات في صحف يافا.

تجارة:

اشترك في ذلك كل من: زكي النورسي، ابن تاجر، الذي تحدث عن ازدهار شارع إسكندر عوض، الذي شبهه بشارع الحمراء في بيروت، حيث تراه يقول عبارة هامة وصف بها يافا: مدينة عصرية بكل معنى الكلمة.

كذلك عدلي الدرهلي وأحمد نور السقا وسهام الدباغ وخالد البيطار الذي انتقل للحديث عن بلدية يافا والانتخابات والتعيينات، كون والده عبد الرؤوف وعمه عمر شغلوا منصب رئيس البلدية.

الانفتاح والمواصلات:

اشترك في ذلك كل من أبو نزار أبو شحادة، والياس سحاب، وأنطون خوري، وصلاح الدباغ، وعدلي الدرهلي، وخالد البيطار.

دلّ الحديث هنا على سهولة تحرك اليافي والفلسطيني الى بلاد الشام ومصر، وتم التركيز على خط الساحل وصولا الى بيروت. وهنا جرى حديث عن مأسسة خطوط السيارات والباصات، وبالطبع الأسعار. ٧٠ قرشاً من يافا الى بيروت ذهابا وإيابا. وبالطبع ظهرت الصحف كوثائق جاءت مصاحبة كأنها تروي هي الأخرى عن تلك الأيام.

المقاهي ودور الفن والطرب:

اشترك في ذلك كل من: طاهر القليوبي وأحمد نور السقا، وأنطون خوري، وأبو نزار أبو شحادة.

ظهرت رواياتهم (كلهم هنا ذكور) عن المقاهي المشهورة، بما فيها الرواية الطريفة عن قهوة اشتهرت «بقهوة التيوس»، حين خط رجل مرّ من المكان هذه الصفة فالتصقت بالمكان.

والمهم هنا أن المدينة، كمدينة حضارية متمدنة، قد وجدت فيها دور الفن والموسيقى والرقص (دور اللهو كما يتم الوصف عادة). وظهر هنا من خلال الوصف والصور في الصحف والفيديو

المصاحب أن بعض دور اللهو كانت عصرية جدا. والمهم أن يافا بكل شرائحها، كان كل مواطن فيها يجد مكانا للاستجمام والترفيه.

وهنا انتقلت الكاميرا والرواة معا فنادق الى نواد ومطاعم الشاطئ، وإن لم يطل المقام فيها طويلا. وهنا فإن كل من فؤاد شحادة الذي تحدث عن تأسيس عمه لفندق الكونتنتال، وطاهر القليوبي، الذي روى عن مطعم ونادي «الدعدع» ، الذي ظهر كم كان راقيا وعصريا، لعل الصورة لعائلة بالمايوهات تدل على الانفتاح.

الصناعة اليافية:

اشترك في الرواية كل من: تمام الأكحل(عن الملابس) ومحمد أبو لغد، وعلي المنياوي، وإلياس سحاب، وأحمد نور السقا، وسامي أبو شحادة (الشاب الوحيد الذي ظهر كباحث هنا)، ويبدو أنه من أقرباء الراوي أبو نزار أبو شحادة، الذي ذكر عن صناعات راقية متقدمة في الصابون والدخان والمشروبات والثلج وهياكل السيارت والبلاط (٩ مصانع).

والبرتقال:

وهو لربما أشهر ما في يافا!

اشترك في الرواية كل من: سامي أبو شحادة، وسليم تماري، وتمام الأكحل، وخير الدين أبو الجبين، وعلي المنياوي، وإلياس سحاب، وأنطون خوري، وخالد البيطار الذي تحدث عن ال ٥ ملايين صندوق برتقال التي تفوق عائدات البترول في ذلك الوقت. كذلك راح أبو نزار أبو شحادة يفصل أنواع البرتقال. وتم إيراد الصناعات والأعمال والأدوات المرتبطة بموسم البرتقال، كم تم إيراد الصور والفيديوهات، ليختتم هذا الحديث بأغنية من ذلك الزمن.

مواسم: «يا بتروبنّي يا بتطلقني»

اشترك في الرواية كل من: طاهر القليوبي وازدهار الفرخ (دائمة الابتسامة العذبة) وخير الدين أبو الجبين وإلياس سحاب المؤرخ الموسيقي. وهنا يجري حديث عن موسم النبي روبين وطقوسه، وعادات السكان، كل له مكانه. نسمع رواية ازدهار الفرخ عن طعام الإفطار. ثم لنسمع مقطعا من أغنية: «زهر الليمون يا ابيض منور على اغصانك» من التراث اليافي.

والموسيقى والغناء والفنون:

ثمة ارتباط كبير بأهل الفن ويافا، فأهلها ذواقون ومحبون للغناء.

يشترك في الرواية كل من: محمد أبو لغد وإلياس سحاب، وخير الدين أبو الجبين، وزكي النورسي،

وتحسين الكريدلي، وازدهار الفرخ، وعدلي درهلي، وسهام الدباغ.

يفتتح ذلك الحديث محمد أبو لغد، عازفا على العود، ليتحدث عن الفرق الفنية الوافدة الى يافا من خلال القطار أو السيارات. وكيف أن تلك الفرق بعد أن تقيم فترة في يافا، تنتقل الى بلاد الشام والعراق. ويتذكر هنا الراوي تحسين الكريدلي عن حضور الفنانة الكبيرة فاطمة رشدي لمسرحية كان يمثل فيها وهو طفل.

والسينما:

والسينما في يافا تحتاج فعلا فيلما خاصا بها.

يشترك في الرواية كل من: خالد البيطار ومحمد أبو لغد، وأنطون خوري، وأحمد نور السقا، وزكي النورسي، ونبيل رملاوي، وصلاح الدباغ، وتحسين الكريدلي، وأخير الباحث سامي أبو شحادة.

وهم وهن، من مرتادي السينما في يافا، يبدو ذلك من خلال الوصف الدقيق؛ فقد عادت الى الحياة سينما: الحمراء، التي بناها نفس المهندس اللبناني الذي بنى سينما روكسي في بيروت، وفقا لخالد البيطار وإلياس سحاب. وظهرت سينما نبيل وسينما رشيد وسينما فاروق وسينما الشرق. يتخلل ذلك صور وفيديوهات تصاحب السرد، وهنا يتذكر الرواة ليلى مراد في فيلم غادة الكاميليا، ونجيب الريحاني في فيلم سلامة في خير، وفيلم النفخة الكدابة لحسن فايق. كما يظهر إعلان للسيدة أم كلثوم على واجهة إحدى دور السينما، حيث كانت دور السينما مسارح. يتذكر أنطون خوري زيارة الفنانة صباح في أواخر الأربعينات، فيما تتذكر سهام الدباغ طقوس أسرتها من النساء في الذهاب الى دور السينما. ثم ليصدمنا الباحث سامي أبو شحادة في حديثه عن أن عدد مقاعد دور السينما اليافية بالنسبة لعدد السكان، يفوق أهم المدن الأوروبية. ثم ليختتم بمقطع من أغنية صباح «وبعدين معاك».

إذاعة الشرق:

منظومة متكاملة من الحياة الثقافية والفنية والصحافية، حيث يكون من المناسب هنا الحديث عن الإذاعة، أي عن محطة الشرق، التي أسسها الانجليز خلال الحرب العالمية الثانية، لنقل أخبار الحرب.

يشترك في الرواية كل من: محمد أبو لغد، وخير الدين أبو الجبين، وكامل قسطندي وإلياس سحاب، وتمام الأكحل.

حينما يتحدث خير الدين أبو الجبين عن الإذاعة ويأتي على ذكر كامل قسطندي المذيع، يظهر الأخير ليشارك الحديث. في حين تتحدث تمام الأكحل عن عمها المطرب المعروف رجب الأكحل. ويجري حديث مهم عن استضافة الإذاعة للفنانين والكتاب العرب خصوصا من مصر مثل محمد عبد الوهاب والعقاد.

من أهم المتدخلين هنا الياس سحاب كمؤرخ موسيقي حين يؤكد أن تطور الموسيقى العربية (وبالأخص موسيقى الأخوين رحباني) في لبنان بدأ في يافا، يذكر وينوه لدور صبري الشريف الكبير في النهضة الموسيقية اللبنانية.

في هذه الأثناء نسمع مقطعا من أغنية «البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي لرجاء عبده»، فيحضر معها ذلك الزمن. وأيضا أغنية نيل يا نيل لعبد الوهاب التي سجلها في يافا.

الرياضة:

يشترك في الرواية كل من: خير الدين أبو الجبين، وأحمد نور السقا، وتحسين الكريدلي، وتمام الأكحل، وفؤاد شحادة، وأنطون خوري، وزكي النورس، وأبو نزار أبو شحادة، ومحمد أبو لغد.

لعل المظاهر الرياضية من أهم المظاهر الحيوية لأية مدينة عريقة، ولم تكن يافا استثناء، حيث عرفت النشاطات الرياضية في المدارس والنوادي، مثل النادي الإسلامي والنادي الأرثوذكسي، وهذا الراوي خير الدين أبو الجبين، الموظف في أحد النوادي، يتحدث عن كيفية مساعدة الانجليز للرياضيين اليهود في مقصد واضح في السيطرة على الاتحاد الفلسطيني لكرة القدم والذي تأسس عام ١٩٢٧ مما أدى للانفصال عن هذا الاتحاد والذي أصبح صهيونيا، حيث جرى حديث عن الصحافة الرياضية المزدهرة، والمسابقات (تمام الأكحل)، في حين يذكر فؤاد شحادة ابن العائلة الثرية، عن نادي التنس الذي اقتصر على العائلات الارستقراطية. في حين يتذكر أنطون خوري كيف كانت تقام حفلات راقصة، في حين يذكر زكي النورسي عن طه حسين محاضرا في النادي، وأبو نزار أبو شحادة يذكر رياضة الملاكمة الوافدة من مصر. كما يأتي أحمد نور السقا على ذكر استشهاد فخري قرنوح وهو أحد نجوم كرة القدم في حرب عام ١٩٤٨. خلال ذلك نرى مقطع فيديو لمباراة بين فلسطين وأستراليا عام ١٩٣٩، كما نرى الصحف وأخبار الرياضة.

الوداع:

بدأت الدقائق الأخيرة من الفيلم بالحديث عن قرار التقسيم عام ٢٩ نوفمبر كانون الأول ١٩٤٧، حيث طلب الصهاينة أن تكون يافا مدينة مفتوحة، وهذا يعني تبعيتها لتل أبيب، فلم يقبل شعبها، واختاروا الدفاع عنها. حيث يذكر الباحث سامي أبو شحادة أن الصهاينة يرون في يافا تهديدا استراتيجيا.

يشترك في الرواية كل من: تمام الأكحل، وأبو نزار أبو شحادة، وزينب ساق الله، وازدهار الفرخ، وعدلي الدرهلي، والمعلمة فيوليت ناصر، وخير الدين أبو الجبين وأنطون خوري، وطاهر القليوبي، وأحمد نور السقا، ومحمد أبو لغد- وسهام الدباغ، والمنياوي. وكما نلاحظ فإن هذا الجزء تحدث عنه معظم الرواة.

ولعلنا نقف عند بعض الروايات: تمام الأكحل تتذكر نسف مبنى السرايا، عدلي الدرهلي يتذكر

الرياضي الشهيد قريبه زكي الدرهلي، فيوليت ناصر تعود الى بيرزيت، خير الدين أبو الجبين وقرار العائلة بالهجرة رغم عدم النية بترك يافا، أحمد نور السقا والذهاب الى غزة، سهام الدباغ ووشوشة البحر وعتابه لترك اسرتها يافا، حيث تروي أن في المرتين اللتين ركبت الأسرة (قاربا) كان الحبل ينقطع، فتعود الى يافا، الى البيت، بكل الحزن. طاهر القليوبي وأنطون خوري عن قصف العصابات ليافا بقذائف الهاون وقصف المنطقة التجارية. وكيف طوقت العصابات يافا من ثلاث جهات. وصلاح الدباغ وكيف بعث والده الأسرة الى بيروت، وكيف حين رأى يافا من كوة السفينة، شعر أنه إنما يودعها لأخر مرة. أما سهام الدباغ فتحدث كيف اصطحبت الأسرة ملابس الصيف، لا الشتاء، يقينا منهم جميعا أنهم عائدون قريبا فلماذا يحملونها. وأكثر من متحدث عن السرقة والنهب، ومنها سجاد يافا الفاخر الذي جاءت سيارات كبيرة حملته من البيوت اليافية ونقلته فيما بعد ليباع في نيويورك بالمزاد العلني، كي يكون ثمنه جزءا من تمويل دولة إسرائيل.

من ١٢٠ ألف يافيّ ويافيّة لم يبق إلا ثلاثة آلاف، تم وضعهم في منطقة العجمي، ووضعت العصابات على مدخله: «جيتو العجمي»، حيث يروي الرواة حسرة هؤلاء الذين لم يمنعوا فقط من العودة الى بيوتهم، بل منعوا أن يذهبوا اليها لإحضار حاجياتهم.

آخر الفيلم: محمد أبو لغد في رثاء إنساني شجن:» كنا ناس عايشين نعزف على الكمان والان صرنا مشردين». أما أنطون خوري، وعلى خلفية جواز سفره الفلسطيني، لم يعد يحتمل الرواية بالكلام، فهطلت دموعه الساخنة كي تعبر عما آلت له يافا.

وبالطبع يستمر المخرج في عرض الوثائق الصحافية والفيديوهات. ثم أغنية «يافا شفت العجب» من اوبريت يافا على البال.

كل ما تم ذكره من تنوير في القرن العشرين، يربط الماضي الحضاري ليافا، التي اشتق اسمها من الجمال؛ ف»يافا» تحريف للفظ الكنعاني «يافي» وتعني الجميلة، التي يمتد تاريخها إلى أربعة آلاف عام قبل الميلاد، بحيث بناها الكنعانيون، وغزاها الفراعنة والأشوريّون والبابليون والفرس واليونان والرومان، وخضعت لكل الممالك الإسلامية، هي التي لم تسلم من الغزو النابليوني العام ١٧٩٩، إلا أنها بدأت تتعافى بعد جراحها الكبيرة، خاصة في فترة حكم الوالي «أبو نبوت» للمدينة، قبل أن تقع تحت الحكم المصري بعد سيطرة إبراهيم باشا على فلسطين في العام ١٨٣٠، ونمت المدينة وتوسعت بأحياء جديدة خارج أسوارها، ك»سكنة درويش»، و»سكنة أبو كبير»، و»تل الريش»، و»إرشيد»، (ربما كان هناك قطع ما بين ١٨٣٠ فترة الحكم المصري وبداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤) حيث كان يرافق الوصف لوحات وصور فوتوغرافية، أو فيديو كما في ظهور نهر العوجا،

ثم ليزداد في إيراد الصور الوثائقية والفيديوهات عند الحديث عن أواخر الحكم التركي وبداية الاحتلال الإنجليزي، والحرب العالمية الثانية، فالصراع وما آلت له يافا من احتلال وتخريب، حيث تبوح الصور عن الاحتلال وسرقة الممتلكات، واضطهاد أصحابها الأصليين. وفي كل ذلك كانت السماء زرقاء والبحر، وإن غطاهما الدخان في فترات الحرب على يافا.

خطر يافا التنويري القومي

أية جريمة ضد الحداثة والتمدن كانت؟

وبعد، فقد تجاوز الفيلم نوستالوجيا الحنين، إلى اكتشاف لعمق جريمة، تعدّ واحدة من أهم جرائم الاعتداء على الحضارة الإنسانية، حيث أنه منذ الربع الأول للفيلم سيتساءل المشاهدون سؤالا أخلاقيا وحضاريا في آن واحد: كيف سوّلت العصابات الصهيونية لنفسها بتخريب يافا!

لقد ذكر الباحث سامي أبو شحادة أن «الصهاينة رأوا في يافا تهديدا استراتيجيا»، حيث أن حضورها المتمدن والحضاري يشكل تفوقا على المدينة الجديدة، تل أبيب، التي تكونت كمدينة لليهود، في حين كانت يافا مدينة تزدان بالتعددية الدينية والثقافية؛ فلم يأت وصف يافا ب «أم الغريب» عبثا، فهي مكان جذب للعمل والإقامة، وأي إنسان يجد نفسه فيها يستطيع أن يعمل ويقيم فيها، وبذلك تكوّن سكانها متعددو الأصول والطبقات، جمعتهم يافا وانتموا لها.

في الحروب دوما منتصر ومهزوم، وهذا أمر عاديّ، لكن غير العادي هو تخريب المنجز الحضاري، وتهجير بناة الحضارة، ونفيهم بل وذبحهم، وأسر الباقي، في هدف خبيث وهو العزف على لحن أن فلسطين هي أرض بلا شعب.

الثقافة والتمدن الحضاري ودور السينما وصناعة «البرتقال الذي كان يقايض بأحدث انواع السيارات الأوروبية في ذلك الوقت»، الى جانب المسرح والفن والرياضة وزيارة اساطين الفن العربي امثال ام كلثوم وعبد الوهاب لإحياء الحفلات فيها الى جانب نشر اهم الصحف الفلسطينية لهو دليل حي على ان فلسطين كانت تنافس اوروبا في مضامير الحياة الراقية. والحق أن الوفرة المالية اليافية، والمستوى الثقافي للسكان، هو ما جعل يافا مشاركة حضارية أكثر منها مستوردة له. ويمكن أن تكون يافا مثل المدن التركية الراقية التي انتقلت إليها حداثة أوروبا ومظاهر التمدن العصرية، ساعد ذلك كونها مدينة ساحلية، تجارية وزراعية وسياحية أيضا. لقد صدق ابن يافا زكي النورسي حين وصف يافا: مدينة عصرية بكل معنى الكلمة.

فنيا:

وثائقية إنسانية تاريخية، نقلتنا جميعا إلى يافا، فرحنا نعيش أحداثها حدثا وصولا لأقسى درجات

الألم، والأمل والحنين وتزاحم الأسئلة، وعلى رأسها: لم حدث هذا كله؟ وكيف ولماذا!

بالرغم أن المخرج قد قسم الفيلم من خلال المقابلات للحديث عن جوانب حياة المدينة المزدهرة، بما في ذلك ما كان يحل بالمدينة من غزو، وصولا لسقوطها في أيدي العصابات الصهيونية، إلا أنه كان صعبا ربما أن تكون المقابلات محددة تماما، حيث تداخلت المواضيع والمضامين، ما منح الفيلم حيوية.

لقد نجح رائد دزدار في إعادة بناء يافا، من خلال فيلمه ورواته، فاستعادها حرة، من خلال ترك رواته يروون بحرية التحدث على سجيتهم في إطار موضوع الفيلم العام.

لقد كانوا جميعا، بما فيهم الباقي أو نزار أبو شحادة، يصفون يافا كأنها أمامهم فعلا، بما يعني كم رسخت المدينة السليبة في العقول والقلوب.

عند طرح كل موضوع من حياة يافا، كنا إزاء روايات الذين واللواتي تمت مقابلتهم. صحيح أن كل رواية-مقابلة كانت تكون على حدة، لكن بالمجمل منحنا ذلك على تصورهم المتحدثين معا حول كل جانب، وكأنهم في ندوة.

موسيقى: أضفت المختارات الموسيقية تأثيرا، حيث كانت سيناريو سمعيا، بالإضافة الى أربع أغاني، أغنية يا أم العباية، لسهام رفيقي، وأوبريت يافا على البال، خاصة مقطع «من نابليون وأبو الدهب يا يا يافا شفت العجب»، واغنية صباح، وعبد الوهاب.

كنا إزاء فيلم هام، شكّل بانوراما وثائقية ربما تقود المخرج نفسه، ومخرجين آخرين نحو تفصيل ما جاء مجملا؛ حيث أن كل جانب في المدينة، وفي الفيلم عنها، يمكن ان يكون له فيلم خاص. ولعل قيام المخرج بالبحث التاريخي قد منحه المصداقية من جهة، والإحاطة بتاريخ المدينة الحديث عشية لحظات سقوطها، مستحضرا جوانب حياتها، التي أراد لها الغزاة الموت.

أحسن المخرج في الخاتمة لا في التأثير العاطفي فقط، بل في السؤال الوجودي والفلسفي، هل كان بالإمكان؟

«متذكرني ؟

اه بس زعلان منك؟

ليش؟

لقد هجت مرتين علشان ما تطلعوا»..تلك كلمات سهام الدباغ، التي تخيلت حوارا مع البحر، حين زارت يافا بعد زمن على ضياعها.

سيكولوجيا المتكلم:

من المهم أيضا، وهذا ما لا تحتمله الدراسة هذه، أن يتم مشاهدة الفيلم بالتركيز على الرواة الذين تمت مقابلتهم/ن، من حيث الزمن الذي تمت فيه المقابلات وأعمارهم، وموجودات المكان الذي تمت فيه المقابلة، وبالطبع خلفية الشخصية، والأهم السحنة من منظور سيكولوجي.

صوت اليافيين/ات، مستوياته وما يحمل من مشاعر عميقة جدا، لعل مخارج الحروف نفسها حملت المشاعر.

عيونهم، كأن كل منهم ومنهن يقرأ أو يشاهد. عيونهم الدامعة المتماسكة، التي أخيرا هطلت، كما دموع أنطون خوري، وهو يتحدث عن أمس كيف كانوا، وما حدث بعد نيسان ١٩٤٨, يلفت النظر هنا نظرات متماسكة أقرب للجمود، كما لدي سهام الدباغ وزكي النورسي، الذي بالكاد ظهرت ابتسامته الحزينة. في حين يلفت النظر وجه ازدهار الفرخ الذي ظل باسما في رواياتها المنثورة طوال الفيلم.

فؤاد شحادة كان في معظم حديثه كونه ضريرا ينظر الى الأعلى، لكن هل من سماء ليافا أو لعل يافا في سمائه ظلت باقية!

ويذكر أن صوت الراوي...كان منسجما مع موضوع الفيلم، وأضفى جمالا خاصة.

قضايا بحاجة لبحث:

مصر وفلسطين: بمشاهدة الفيلم، تعمق لدينا العلاقة الوثيقة التي كانت تجمع حواضر الشرق العربي في بلاد الشام ومصر، خصوصا حاضرتي القاهرة ويافا، حيث لا تكاد تظهر رواية أو صورة، إلا وفيها شيء عن فلسطين ومصر.

عاصمتا فلسطين القدس ويافا:

في الجزء الأخير من الفيلم، يتحدث الباحث سامي أبو شحادة عن تخطيط المدينة عام ١٩٤٦، وهو يرى بأن القدس هي العاصمة الدينية وفيها مراكز الحكومة، وأن يافا هي عاصمة فلسطين الحقيقية، وهي قلبها النابض.

ب «يافا أم الغريب»، يواصل المخرج الفلسطيني رائد دزدار مشروعة السينمائي التوثيقي الجاد والتنويري، حول فلسطين الذي بدأه ب «هنا القدس» و»الأخوين لاما»، بما يدلل على وعي المخرج الخاص.

أوراق الذاكرة

برنامج توثيق وتسجيل تاريخ الثورة الفلسطينية

شهادة الأخ عبد الله الافرنجي (عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح»)

حوار وتقديم وتوثيق يحيى يخلف

يحيى يخلف: أعزائي المشاهدين مرحبا بكم في اطار مشروعنا لتسجيل و توثيق تاريخ الثورة الفلسطينية، نواصل لقاءاتنا مع القادة و الكوادر القيادية اللذين شهدوا مرحلة التحضيرات و مرحلة التأسيس، كما ذكرنا في حلقات سابقة تشكلت الثورة الفلسطينية من نبع و مجموعة من الروافد، النبع كان هو الخلية الاولى و النواة الاولى التي كانت في الكويت، من الاخ ابو جهاد و الاخ ابو عمار و الاخ ابو اياد والاخ عادل عبد الكريم والاخ ابو الاديب و الاخ أبو اللطف و الاخ خالد الحسن و أخوة اخرين، وكانت هناك روافد عدة، كانت هناك مجموعة في قطر و كانت هناك مجموعات في سوريا في الاردن في السعودية، و كان هناك رافد قوي في المانيا، في اوروبا و مركزه المانيا، سنتحدث في هذه الحلقة عن تجربة المانيا، لأن المانيا و الروافد الاخرى شكلت معا ينبوع النهر العظيم، نهر الثورة الفلسطينية الخالد المتجدد المتدفق و بالتالي كانت المانيا اضافة نوعية للجهد و للتجربة، نلتقي اليوم مع الاخ د . عبد الله الافرنجي القائد السياسي عضو اللجنة المركزية والمثقف الذي كتب العديد من الدراسات باللغة الالمانية و اللغة العربية حول القضية الفلسطينية وكانت له تجربة مميزة سياسية و دبلوماسية في المانيا و في كل المواقع التي تسلم بها مهمات، أهلا بك أخي عبد الله في هذا اللقاء .

عبد الله الافرنجي: أهلاً وسهلاً أخي أبو هيثم .

يحيى يخلف: أخي أبو بشار لنبدأ من مرحلة الطفولة، و قد كانت في تلك المرحلة أحداث كثيرة،

أولا أنت نشأت في بيت مسكون بالهم الوطني و كان هناك الوالد الذي شارك في ثورة ٣٦ و أصيب و جُرح في عام ٣٩ و شارك في حرب ٤٨ و كان هناك الأخ الأكبر محمد الافرنجي الذي التحق باكرا و عاش تجارب مع المرحوم أبو جهاد و كان أيضا هناك أعمام في الأسرة و غيرهم، حدثنا كيف تفتح وعيك الوطني في البداية قبل أن تلتقي بالاخ أبو جهاد فيما بعد .

عبد الله الافرنجي: يعني الحقيقة أن كل انسان فلسطيني تبدأ قصته منذ طفولته و من البيئة و البيت الذي نما فيه و ترعرع فيه، والدي كما تعلم هو شيخ عشيرة كبيرة و كان من قيادات المقاومة في عام ٣٦ وأصيب عام ٣٩ وكان معه في قيادة المقاومة في ذلك الوقت عبد الله أبو ستة، وأصيب برصاصة في ساقه وبقيت لم يستطيعوا اخراجها حتى توفاه الله قبل عشرين سنة، هذه لعبت دورا كبيرا و أساسيا في حياته كنقطة مهمة وأساسية وأولى ولذلك أول بصمات كطفل كانت هي البصمات التي وضعها الوالد رحمه الله، ثم كما تعلم نحن كنا في منطقة بئر السبع و القبائل الموجودة هناك كلها و العشائر كانت تشارك بشكل أو باخر في الثورة الفلسطينية، لي عم كان يحبني جدا و أحبه جدا عمي عبد ربه، هذا العم خرج يوما ما وذهب الى غزة و أستشهد هناك مع ثمانية اخرين في منتصف عام ١٩٤٨ وعندما جاء الخبر تألمت جدا لأنه كان يرعاني ويدللني وكان يأخذني معه الى الصيد ويأخذني معه الى ركوب الخيل، وعندما جاء خبر استشهاده شعرت بألم شديد جدا كأنه والدي، هذا العم استشهد في معركة كبيرة جدا بالقرب من مدينة غزة يعني على مفترق الطرق بين بئر السبع وبين غزة ومعه ثمانية شهداء اخرين، أيضا أصيب زوج أختي خليل الصانع وهو يعني أبن الشيخ ابراهيم الصانع، أصيب اصابات بالغة وتزوج أختي بعد ذلك رحمه الله أيضا وهذه الصور الاولى التي لم أكن أعيها جيدا ولكني شعرت بها وأحسست بها بالرغم من ان عمري كان في ذلك الوقت ٥ سنوات أو لم أصل الى ٥ سنوات. ثم هاجرنا الى قطاع غزة و كانت الهجرة ايضا جزءاً من المسيرة الاولى التي عشتها مع أسرتي ومن هذه المسيرة شعرت بِكم تألمنا و كم خسرنا الى أن وصلنا الى قطاع غزة، في قطاع غزة عشنا بداية في المخيمات و هذا أعطى فرصة لنا لكي نلتقي بمهاجرين اخرين من جيلنا في ذلك الوقت وهناك بدأنا نشعر رويدا رويدا بأن هناك اعداداً كبيرة جدا غادرت فلسطين وأُبعدت وطُردت من فلسطين. ويمكن أول اختلاط في المجتمع الفلسطيني كان هذا الاختلاط في مخيمات اللاجئين، فمثلا كنت أرى أبناء يافا وأبناء اللد والرملة والقرى الفلسطينية الاخرى كلها مع أبناء بئر السبع ومع أبناء غزة موجودين في هذه المخيمات، هذه كانت المحطة الاولى التي استفدنا منها التجربة و المناخ الفلسطيني بشكل أو باخر و الهم الفلسطيني الذي عشناه في ذلك الوقت، في المدارس، الوقوف في المدارس و انشاد عائدون عائدون وهذه الاناشيد كانت تردد من الجيل الاكبر منا و نحن كنا نرددها خلفهم، ثم بدانا نشعر أيضا

بالمذلة عندما كنا نقف في طوابير الاونوروا لكي نشرب الحليب أو لكي نُطعَم أو لكي يرشّونا بال (DDT) كل هذه الامور صور أعتقد انها لعبت دور كبيراً جدا في تأسيس شخصية كل فلسطيني بشكل أو باخر بغض النظر عن مدى احساس وشعور كل انسان بهذه المسألة، هناك من يشعر بها بشكل قوي و هناك من لا يشعر بها بشكل قوي .

يحيى يخلف: أخي أبو بشار يعني اذاً بدأ هناك تفتح في الوعي الوطني والوعي السياسي، كيف لامست العمل الوطني و السياسي؟، كيف بدأت في أي سن في أي لحظة، ومن هو الذي كان أكثر تأثيرا عليك في تلك المرحلة الاولى المبكرة لتفتح الوعي السياسي والوطني ؟

عبد الله الافرنجي: الحقيقة ان اخي الكبير محمد (أبو حسن) كان أيضا من أعضاء اللجنة المركزية التي اتخذت قرار الكفاح المسلح كما ذكر الاخ الرئيس أبو مازن في حديثه الاخير في هذا البرنامج الذي تشرف عليه، وأخي محمد رحمه الله أيضا توفي العام الماضي كان هو الذي أشرف علينا جميعا في غياب والدي لأن والدي كان كثير السفر لكي يعمل و لكي نكسب لقمة العيش فكان محمد هو الذي يقوم مقامه، طبعا محمد وعدد من الاخوان الاخرين كان لديهم حس و وعي وطني واضح، أنا كنت أشعر بأنهم كانوا يلتقون دائما في الليل في بيارتنا و كانوا يحملون السلاح، فكنت دائما أتلصص في اتجاه المجموعة واحاول أن افهم ما يقومون به و ما يقولونه وكطفل أُبعد من وطنه و المناخ العام كله يتحدث عن العودة، بدأت أشعر ان هناك الحس الوطني نما وبدا ينمو ويكبر من خلال هذه المجموعات .

يحيى يخلف: نتوقف قليلا هنا، انه في تلك المرحلة جمعت علاقة كفاحية ما بين الأخ محمد وما بين الاخ أبو جهاد وكانا في تلك المرحلة في المرحلة الثانوية كانا بعدهما في شبابهما المبكر وبشكل مبكر أيضا اسسا، أسس أبو جهاد ومعه مجموعة من الاخوان أبرزهم الاخ محمد الافرنجي والاخ حمد العايدي خليه عسكرية قامت بعمل مقاومة داخل اسرائيل .

عبد الله الافرنجي: المجموعة الاولى التي كانت تقوم بالعمل في داخل اسرائيل كانت من المجموعات التي كانت تذهب بشكل او باخر ليس في اتجاه اهداف عسكرية في البدايات، ولكنهم كانوا يحملون السلاح و يتسللون الى داخل الارض الفلسطينية وبذلك يخترقون الهدنة ومن ثم كانت تتم اجراءات من قبل المصريين الذين كانوا ملتزمين بالهدنة لاحتجازهم بشكل او باخر، شاءت الصدف ان يكون معظم هؤلاء الاشخاص من اقربائي، مثلا احمد أبو خبيزه و سليمان الزميلي وأبو صالح الافرنجي، هؤلاء الاوائل الذين دخلوا الى الارض المحتلة من قبل محمد اخي الكبير و هنا بدأ التعارف بينه وبين أبو جهاد فأعتقد انهم اتفقوا أن يجيروا عمل هؤلاء الى عمل وطني و ليس

فقط الذهاب و اجتياز الحدود بقصد غير واضح، وهنا بدأت العمليات الاولى يتم توجيهها من خلال الاخ أبو جهاد و الاخ محمد في اتجاه عمل هادف ضد المحتل في داخل الوطن الفلسطيني في عام ٤٨، وهنا بدأت تتكون أعتقد الفكرة بينهم في تشكيل تنظيم عسكري يقوم بالنضال في داخل الارض الفلسطينية، هذه العمليات بدات تأخد بُعداً أكبر لأن اسرائيل كانت تهاجم قطاع غزة ولأن اسرائيل كانت تقوم بالقصف العشوائي بين فترة و اخرى .

يحيى يخلف: هل تتذكر بعض الاحداث للعدوان الاسرائيلي على قطاع غزة قبل عام ٥٦ ؟

عبد الله الافرنجي: انا في عام ٥٤ عشت في فبراير اعتقد كان هناك هجوم اسرائيلي على الشمال ونحن كنا في بيارة الوحيدي نقطن فيها وكانت بالقرب من البوليس الحربي، فقام الاسرائيليون بهجوم على ثكنة عسكرية للسودانيين في شمال قطاع غزة وقاموا بنصب كمين بجانب البوليس الحربي أي بجوار ما كنا نسكن و في تلك الليله كان هناك سيارة من جيش التحرير الفلسطيني محملة ب ٢٤ شخص وقعت في هذا الكمين فأمطروها بالقنابل وتم حرق كل من فيها، فذهبت أنا وطفل اخر كان معي عبد الكريم شبلي لنشاهد ما يحدث، وبالفعل شاهدنا منظراً لم انساه في حياتي واعتقد انني لن انساه في حياتي، النار تلتهم كل من هو بداخل هذه السيارة، وكان هذا الحادث مؤثراً ومرعباً جدا وهذا يمكن خلق دوافع كبيرة بالنسبة لي ان هذا العمل غير مقبول وانه لا بد للانسان أن يدافع عن وطنه، وأن لا يستمر هذا العمل، طبعا هذه الامور في ذلك الوقت لم تكن بهذا المعنى الذي أتحدث فيه اليوم، ولكن المنظر كان موجوداً والتأثير النفسي والصدمة كانت موجودة وبدون شك هنا جاء دور أبو جهاد و محمد والمجموعات التي كانت موجودة معهم عندما عرض الشهيد مصطفى حافظ وهو ضابط مصري كبير كان يشرف على هذه المجموعات بشكل أو باخر ليس لإرسالهم الى فلسطين، بقدر ما هو رعاية أو الحرص على ان لا يدخلوا الى فلسطين بدون إذن، في هذه الحالة تأثر هو أيضا كثيرا وأعتقد أنه أعطى تعليمات بالدخول الى اسرائيل واستعمال القوة ضد من يروه من الاسرائيليين، فكانت هذه هي العملية الاولى للفدائيين الذين دخلوا من غزة وخرجوا الى الضفة الغربية في الاردن ومن ثم الى الضفة الشرقية و بعدها الى القاهرة .

يحيى يخلف: كانت هذه تُعَبر عن الارهاصات الاولى لبروز الشخصية الوطنية الفلسطينية وفكرة أن يمسك الفلسطينيون القضية، يعني يبادروا بمسك زمام القضية بأيديهم، هذه كانت الإرهاصات ثم جاء احتلال ١٩٥٦ ولا بد أن تجربة الاحتلال هذه ألقت بظلالها على ذاكرة الفترة في ذلك الوقت عبد الله الإفرنجي، ماذا تقول في ذلك ؟

عبد الله الافرنجي: بدون شك نحن كنا ايضا انتقلنا من بيتنا الذي كنا فيه وسكنا في بيت اخر في البداية مدينة غزة بالأجرة أيضا في البيت حوش كبير وفي مكان كبير وكان على الطريق مباشرة على طريق صلاح الدين مباشرة، وكان له باب واسع جدا فعندما جاءت حرب عام ٦٧ وتأكدنا من ان الاسرائيليين احتلوا هرعنا كعائلة بكل أفرادنا بأتجاه البحر بأتجاه الكروم الموجودة أعتقد انه في كروم عائلة دحدوح من الزيتون في قطاع غزة لأنها كانت هي في جنوب غزة، ومكثنا يوم كامل وعند عودتنا كان لا بد أن يذهب أحد ليكتشف أو ليستكشف ما حدث في البيت ويحضر بعض الاغراض من الاكل لنا على مسافة حوالي كيلو متر تقريبا من البيت بعيدين عن البيت فأرسلني محمد أخي الكبير وذهبت الى البيت وعندما دخلت البيت وجدت هناك حوالي بين ١٢ الى ١٤ جثة في داخل بيتنا كانوا مختبئين عندما رأوا الجيش الاسرائيلي أعتقد انهم دخلوا الى البيت وطاردهم الجيش الاسرائيلي وكانوا كلهم مدنيين فتم قتل الجميع في ذلك الوقت، طبعا أنا تسمرت عندما رأيت هذه الجثث ودخلت البيت وأحضرت ما طُلب مني وعُدت وأخبرت محمد بذلك وأخبرت عائلتي وأمي رحمها الله أيضا فقررت ألا تعود الى هذا البيت، لأنها شعرت بخوف شديد وشعرت بألم كبير وبالتالي كان يجب أن نبحث عن بيت وعندئذ انتقلنا بدون ان نعود الى بيتنا انتقلنا الى بيت أسرة صديقة من عائلة عيّاد وانتقلت كل الاسرة هناك وتحملونا لفترة زمنية لا بأس بها، هنا بدأت إرهاصات كبيرة، إرهاصات من كل الفلسطينيين من كل التيارات، الحزب الشيوعي مع الاخوان المسلمين مع التيارات الاخرى مع مع، كل الفلسطينيين بدأوا يتحدثوا عن مقاومة الاحتلال الاسرائيلي وأعتقد ان محمد أخي كان واحداً منهم وكان يرسل لي برسائل كنت البس جلابية لاني صغير بالعمر وفي ملابسي الداخلية كنت أخبئ الورقة والعنوان الذي يرسلني اليه، فكنت أذهب الى عدد من الاسماء التي كانت تقود هذه المقاومة دون أن أقرأ هذه الرسائل و دون ان اعرف ما محتواها ولكنني كنت أشعر اني أقوم بمهمة وطنية وكنت أشعر انني اقوم بتأدية واجب إرتحت له كثيرا، وكنت دائما شغوفاً وأنتظر التعليمات منه متى أقوم بنقل رسالة من مكان الى اخر، من هذه الاسماء أعتقد التي أرسلني لها كان الشيخ هاشم الخزندار و أحمد فؤاد بسيسو و عدد اخر من الاسماء التي لا أذكرها الان و لكن كنت أشعر أن له دوراً لا بأس به يقوم به مع اخرين، الى ان تم اعتقاله بعد اسبوعين من قبل القوات الاسرائيلية، واحتجازه وشعرنا انه طال احتجازه لمدة ٢٤ ساعة، بهذه الفترة كان الاسرائيليين خرجوا من سيناء وخرجوا من العريش، فقرر أن يغادر قطاع غزة لأنه شعر ببدء الخطر عليه والاسئلة وعنف بدا بشكل كبير جدا لدرجة انه بالفعل غادر عن طريق سيناء مشيا على الأقدام الى العريش .

يحيى يخلف: اذا هذه الاحداث كانت مكونات للوعي والذاكرة المبكرة بالنسبة لك والتي فيما

بعد بُني عليها تجربة كبيرة و دعني اسأل هنا بعد انسحاب الاحتلال لنقل في عام ٥٧ او عام ٥٨ او ٥٩ خلال هذه السنوات توثقت العلاقة ما بينك و بين الاخ أبو جهاد، صحيح كان هناك فارق كبير في السن ولكنه كان يتطلع اليك ويبدو انه كان يتوسل بك الخير والى اخره وبذلك توثقت العلاقة خاصة وانك قمت ببعض المهام كفتى، أهداك كاميرا كما نعلم وأنا أعتقد ان اهداء أبو جهاد الكاميرا لها دلالة رمزية ان أهداك كاميرا يعني كأنما هو يكلفك بمهمة أن تقوم بتصوير المخيمات واللاجئين بها لنشرها في وسائل الاعلام، ماذا تُحدثنا عن هذه اللقطة مثلا .؟

عبد الله الافرنجي: أولا قبل الكاميرا الاخ الشهيد ابو جهاد رحمه الله عندما كان يتحدث كنت استمع بشغف كبير جدا لحديثه وكان حنونا و ودودا وكنت أشعر انه يعاملني معاملة خاصة و في إحدى المرات انا طلبت منه كاميرا لانني كنت احب التصوير، فأعتقد انني ما زلت كذلك فأعطاني كاميرا (akva) واهداني اياها لم اكن افهم انها هدية، قال لي انا أعطيك الكاميرا ولكن بشرط ان تذهب تتجول على المخيمات إذا في أي صور مؤثرة او أي صور ممكن تنفع إذا نحن نريد أن نعملها نشرة أو تصدر لنشرة أرسلها لي، انا طبعا بالنسبة الي كان في ذلك الوقت انه انت تملك كاميرا وكاميرا (akva) و كاميرا غالية جدا في ذلك الوقت يمكن كان ثمنها ٤٥ جنيه أو بهذه الحدود فلم اكن اتصور على الاطلاق لأنه انا طلبت الكاميرا من والدي رفض وطلبتها من اخوي الكبير رفض يجيبها لأنه يعني ما كان يخطر على بالي الواحد ان يشتري كاميرا لأبنه، فأحسست بأنه بالفعل الاخ أبو جهاد يحبني كثيرا ويمكن أن شيئاً كان في ذهنه و بالفعل بدأت أصور تقريبا ما يريد هو من مناظر الى ان وجدت في عام ٥٩ بعض الصور التي صورتها لوجه امرأة مجعد بشكل كثيف وكبير جدا وجدتها في فلسطيننا أعتقد على الغلاف، فطبعا انا بالنسبة لي كان هذا الشيء كحلم بمعني كان شيئاً كبيراً جدا وفي تلك الفترة كل ما كان ياتي الى بيتنا الاخ ابو جهاد كنت أشعر ان والدي كان يحبه كثيرا، هنا ايضا بما يتعلق بتأمين الاسلحة هو حصل على كافة الاسلحة التي كانت بحوزة والدي والتي حرص على ان يحضرها من بئر السبع الى قطاع غزة فقام بتسليمها الى ابو جهاد و لمحمد وكان يثق بابو جهاد بشكل كبير جدا وكان يساهم ماليا لمساعدتهم على ان يقوموا بشراء بعض الامور وبعض الاحتياجات اللازمة ومحمد كان يذهب الى شخص اخر هو عبد الله أبو ستة، فكان بالاتفاق بينهم ابو جهاد له العلاقة ودالة على والدي ومحمد له علاقة ودالة على عبد الله أبو ستة، أيضا هذه العلاقة لعبت دوراً كبيراً جدا بالتأثير على والدي أن اسافر لاحقا الى المانيا لأن والدي كان يعارض سفري الى المانيا وابو جهاد تبنى وأكد لوالدي انه انا بتعرف على المانيا بلد بعيدة و بلد غربية ووالدي كان يريد ان يكون تحت اشرافه كل ابنائه، على أي حال بالنسبة الي ابو جهاد وضع بصمات حقيقية في حياتي منذ تعرفت عليه وكل ما تعرفت عليه اكثر كلما أحببته اكثر وكلما شعرت بأنه هو يشكل يعني دينامو

فلسطيني متحرك في كل مكان، يعني كانت دائما فلسطينيته واضحة و حبه لفلسطين واضح وأثّار وكان ايضا يشدك دائما الى فلسطين وانسان عنده قدرة غير معقولة و صبور و متابع .

يحيى يخلف: هو دعمك لدى الوالد من أجل أن تذهب الى المانيا للدراسة، واعتقد واظن انه في تلك الفترة و قبل ان تُسافر نظمّك في الحركة بشكل رسمي و اعتقد انه كان مفروغاً منه بحكم علاقتك مع ابو جهاد و مع الاخ محمد الافرنجي انك دخلت في الحركة، حدثنا كيف حدث أو حصل خاصة و قد اطّلعنا على احدى الرسائل التي وجهها ابو جهاد لك عندما وصلت الى المانيا وقال انت خلية ثورية نظّم الشباب المؤمن بالتحرير، يعني كيف التحقت رسميا بالحركة ؟

عبد الله الافرنجي: عمليا انا دخلت الحركة كأمر واقع أن محمد وابو جهاد موجودين وأصبحت أقوم بكل المهمات المطلوبة مني وبالتالي كان هناك في ترقب الى ان يأتي يوم او مكان كي استطيع ان انفذ هذه التعليمات بشكل واضح، فكنت بدمي وبروحي مثل الآخرين بيشتغلوا بشكل او بآخر و لكن الذي طرح علي موضوع العمل للحركة بشكل واضح كان ابو جهاد، نحن نريد منك ١ ٢ ٣، تريد أن تكون ملتزم ب ١ ٢ ٣ نكلفك وهنا وهناك، ومحمد كان يقول لي دائما وفي رسائله التي يرسلها لي أخي محمد كان يقول أرجو ان تكثف اتصالك على بن عمار الذي هو الاسم الحركي لأبو جهاد وان توثق علاقتك به لانه هو من الاخوة الجيدين جدا والممتازين والوطنيين وبالتالي كنت أشعر بأن هناك وجهتي حددها محمد بالالتزام وأنا شخصيا بمعايشتي مع ابو جهاد كنت مستعداً في ذلك الوقت أن اقوم بأي شيء يُطلب مني، الى ان جاء اليوم الذي ذهبنا الى المانيا فكانت جلسة عندنا بالبيت على البرندة وقال نحن نريدك أن تذهب الى هناك وفي المانيا شباب كتير وهناك في نافذة مفتوحة على العالم وهناك تستطيعون أنتم أن تتحدثوا دون خوف، وبدا يتحدث باتجاه ان تذهب إلى المانيا مهمتك الاولى ان تلتزم ان تقوم بخدمة الحركة، وطبعا كان بين فترة والثانية يقول لكن ليس على حساب دراستك بس المهام لكن المهام التي كلفنا بها اعتقد لن تترك للفرد القدرة أن يستمر بالدراسة .

يحيى يخلف: اذا انت ذهبت عام ٦٢ الى المانيا .

عبد الله الافرنجي: ذهبت في ٣١ /١١ /١٩٦٢.

يحيى يخلف: في عام ٦٢ الى المانيا، وفورا بدأت الدراسة، لم تغفل عن العمل السياسي، كنت تدرس وكنت بالوقت نفسه تباشر العمل السياسي و التنظيمي في ذلك الوقت و نظمت مجموعة خلايا كان هناك خلايا موجودة في أوساط الطلبة الى اخره، نحن نتذكر في ذلك الوقت كان هناك الأخ أمين الهندي وأظن كان أخ اسمه احمد عبد الله واسماء أخرى .

عبد الله الافرنجي: في الحقيقة اول واحد تم تنظيمه لأنه أمين وأعرفه هو صديقي من غزة و سافر قبلي بسنة الى المانيا، فأنت وجدت انه فرصة بالفعل ونحن أول لقاء تم بينا براحة في ١٩٦٢/١٢/٣١، فأشرت لأمين بما تم الحديث فيه مع الاخ أبو جهاد و مع الاخ محمد، وأشَرت له بإسم الحركة وبإسم العاصفة وبإسم التوجهات الموجودة في ذلك الوقت و حلف اليمين على هذا الأساس، هذه أول خلية تستطيع أن تقول فتحاوية تم انشاؤها في المانيا، ثم بعد ذلك على حدة أيضا تم تنظيم أحمد نمر عبد الله من أبو ديس وهو أخ حبيب وعزيز كان يدرس الهندسة وكان في معهد اللغة وأخ اخر اسمه يوسف النونو كان يدرس الطب أيضا من غزة من أصدقائي وأخ ثالث اسمه حسين جابر وكنا طبعا في ذلك الوقت ننظم واحداً فقط وما في خلايا بمعنى ٣ و ٤ و ٥ وانما واحد وبعد فترة زمنية اذا في واحد اخر كانوا هم يرشحونه وبالتالي يتم استقطابه بشكل او بآخر، هذه الخلايا أو هؤلاء الاشخاص أو مجموع هؤلاء الاشخاص كان يُشكل بدايات الخلايا لحركة فتح في المانيا، الان انتقلت من مدينة لينوبورغ الذي هي بجانب هامبورغ الى مدينة فرانكفورت .

يحيى يخلف: نتوقف هنا قليلا، كانت المانيا في ذلك الوقت في المشهد العام تشهد حركة سياسية نشطة ذات طابع عربي و قومي، كان هناك جالية عربية وجالية فلسطينية من الطلبة والعمال في هذا الوسط الذي كان ممتلئاً بالاحزاب القومية والاسلامية واليسارية، انت كنت تحمل فكرة الشخصية الوطنية الفلسطينية، الكيان السياسي الفلسطيني الخاص، وكنت تحاول أن تنشر هذه الافكار و تنظم الى اخره، نريد ان نتوقف عند حدث كان له أيضا تأثير كبير في حياتك السياسية، عندما تعرفت على الاخ هايل عبد الحميد في عام ٦٣ كانت هناك ندوة أو مؤتمر تحدث فيه عدد من الاحزاب القومية او اليسارية عن قضايا عديدة وطرح لأول مرة بالنسبة لك موضوع القومي و القطري، كان هناك مناهضة لفكرة العمل الفلسطيني المستقل، كانوا يتهموننا بالاقليمية على الرغم من أننا كنا نعمل بأفق قومي و ليس بأفق قطري مغلق، تدخلت أنت في ذلك الوقت وعملت مداخلة لفتت نظر الجميع ولفتت نظر الاخ هايل عبد الحميد بشكل خاص، هل كانت هذه البداية مع الاخ هايل ؟

عبد الله الافرنجي: نعم، الحقيقة انه في ذلك الوقت كان المناخ العام هو مناخ قومي ومناخ ناصري وانا لم يكن عندي تجربة حزبية قبل ذلك وما انخرطت نقابي لان عمري كان صغيراً و لم أدخل في أي تجربة سياسية بمعنى انه منتمي لحزب أو الى نقابة فكانت اول تجربة في غزة، وكان هناك اجتماع لأتحاد الطلبة العرب وكان في نهاية الاسبوع في شهر فبراير عام ١٩٦٣ وكانت دعوة عامة فذهبت الى حضور هذا الاجتماع و كان في ذلك الوقت فكرة اقامة اتحاد طلبة فلسطين، و اتحاد عمال فلسطين تتبلور وتأخذ شكلاً جدّياً بشكل واضح، وفي هذا الاجتماع تم طرح قضايا متعلقة بهذا الموضوع وكان في أخ اسمه وصفي ذبلان، وصفي ذبلان كان بعثي و قرر ان يخرج من اتحاد

الطلبة العرب و ينضم الى اتحاد طلبة فلسطين في ذلك الوقت الذي بدأ يتشكل بشكل أو بآخر، وهنا تمت مهاجمته بشكل عنيف جدا و اتهامه بالخيانة وكان واضحاً انه صار عليه هجمة كبيرة جدا من بعض الافراد البعثيين في ذلك الوقت، أنا انتَخيت لوصفي ذبلان و وقفت ادافع عنه بحس و بمعنى انه نحن كلنا وطنيون ونحن كلنا قوميون ولكن يجب ان نناضل كفلسطينيين اولا لأنه غير مقبول منا نحن كفلسطينيين ان أي واحد يأتي يناضل عندنا و يحرر فلسطين لنا وكانت هذه الفكرة التي دائما بطرحها بشكل كبير وعنيف وواضح وساخن كان ابو جهاد دائما انه يحثنا على أن نشتغل نحن لا بد أن نعمل لبلدنا، فأنا تحدثت باندفاع شديد جدا وكنت بدون شَك صادق في مشاعري فشعر بها واحد اسمه هايل عبد الحميد في ذلك الوقت فبعد ما انتهت الندوة و خرجنا جاءني، طبعا وكان هناك فارق بالعمر بيني و بينه عمر لا بأس به فسلم علي و هنأني على مداخلتي وانه هكذا الفلسطينية التي نريدها لابد أن يكون حرصنا على فلسطينيتنا وحرص على هويتنا وحرص على كياننا، فبدأ يتكلم بألفاظ وكلمات شبيهة بالكلمات التي كنت أسمعها من أبو جهاد والتي كنت أسمعها من محمد أخي كنت أستمع وعندي إحساس انه عنده تجربة كبيرة وافترقنا، أخذ عنواني وافترقنا، هذا الحديث كان يوم سَبت، الأسبوع الذي بعده مباشرة في يوم سبت أو أحد في العطلة هو كان دائما يعمل، فكنت خارج من البيت انا كنت ساكن في قرية اسمها لوندن بعيدة عن فرانكفورت حوالي ١٢ كيلو متر، فرأيت انسان نزل من الباص في الشارع الذي انا ساكن فيه ونزل لمحته ونظرت كأني أعرفه، هذا الشخص الذي انا قابلته قبل اسبوع فوقفت أسلم عليه لماذا أنت هنا؟ ومن تريد؟ فقال لك، فأنا طبعا بالفعل اندهشت، لماذا هو قادم لي ماذا يريد؟ ، وعزمته عندي على قهوة و بدأنا نتحدث وبدأ يتحدث عن حاله و يتحدث عن فلسطين و يتحدث عن تنظيم عرب فلسطين ويتحدث عن تجربته وإنه يتحدث بشكل مثل السيل كان لا يتوقف، ولما أحسست انه هو قادم ليتحدث معي لأنه كان مبسوطاً على مداخلتي الذي حمست بها يعني شعرت باحترام كبير وشديد له، وذهبنا تغدينا مع بعض وثم بدأنا نلتقي أكثر وأكثر، وبدأ يشرح لي انه هنا في محاولة في المانيا لعمل اتحاد طلبة فلسطين ونحن في محاولة لخلقها ونحن كفلسطينيين لا بد أن ندعم هذه المحاولة، وأن تأتي وتدخل اتحاد طلبة فلسطين ومهم جدا تدخل اتحاد طلبة فلسطين وبدأ يقنعني بهذا الموضوع وانا كنت أيضا ليس بحاجة الى اقناع كثير وبالفعل بدأنا ننطوي في لواء اتحاد طلبة فلسطين، الان هذه العلاقة بيني وبين هايل أنا شعرت انها لعبت دوراً أساسياً ورئيسياً في تكويني السياسي وفي تكوين شخصيتي السياسية و يمكن الانسانية الى حد كبير جدا .

يحيى يخلف: نتوقف قليلا أخي أبو بشار، سنعود الى تفاصيل كثيرة حول علاقتك مع أبو الهول، تعرفت بعد فترة على الاخ هاني الحسن كما أعتقد، اللقاء الذي تم بينك وبين الاخوين هايل عبد

الحميد وهاني الحسن أسفر فيما بعد عن ربط مجموعة المانيا بحركة فتح، أنت كنت الذي لعبت الدور الاساسي في ربط ابو الهول وهاني الحسن بالاخ ابو جهاد وانت الذي لعبت دوراً في ان كل هذه المجموعة تأخذ قراراً بالانضمام الى الحركة، هناك قصة لهذه التفاصيل، كيف حاول أبو الهول ان ينظمك في تنظيم طلائع العائدين وانت عرضت عليه أن يُنَظَم في فتح و ماذا حدث ؟ قصة مهمة نريد أن نسجلها للتوثيق و للتاريخ .

عبد الله الافرنجي: الحقيقة انا تعرفت على هاني مباشرة بعد فترة قصيرة، وايضا وجدت في هاني الاندفاع وكان شاباً يتدفق طاقة وحماساً، ولكن شعرت ان هايل كان رحمه الله عنده نفس بين قوسين (اشتراكي قومي) وهاني كان عنده نَفَس خلفية دينية الى حد ما فكتبت بامانة كل ملاحظاتي على الشخصين وأرسلته الى الاخ أبو جهاد فورا الذي كان موجوداً في الجزائر، وأرسلت رسالة واضحة وصريحة، فجاءني رد من أبو جهاد بسرعة ايضا انا سوف ازوركم او انت تأتي لعندي كي نتناقش بهذا الموضوع.

فأنا أقول الاخ أبو جهاد رد بشكل سريع جدا حيث قلت له ان الاخوة الاثنين يشكلان طاقة جبارة، وعندهم خبرة نقابية، إثنين عندهم اتحاد طلبة فلسطين واتحاد عمال فلسطين ويعملان فيهما والإثنين انضمامهم لفتح يعتبر مَكسباً كبيراً جدا، فرَد الاخ ابو جهاد رحمه الله تأكد لي اذا هاني الحسن أخوه علي الحسن وأخوه خالد الحسن أحضر لي منه عنوان مسعود الحسن في انجلترا واذا يكونوا إخوه نتناسى الموضوع، طبعا انا رديت عليه بعد ما تحدثت مع هاني وأرسلت عنوان مسعود، وبدأ الحوار بين الاخ ابو جهاد و بيني حول هذا الاستفسار مستمر الى أن قرر أن يُرسل يحيى عاشور حمدان الى المانيا، فحضر يحيى عاشور الى المانيا من النمسا على موتورسيكل (فزبة) ليس موتورسيكل كبير و انما فزبة .

يحيى يخلف: أُرسل كمبعوث للأخ أبو جهاد .

عبد الله الافرنجي: كمبعوث للأخ ابو جهاد ليتعرف على هايل وهاني لحركة فتح، فشاءت الظروف ان هايل ما كان موجود أو مشغول فالتقى مع هاني و بدأت الامور تتطور و بشكل سريع جدا ، باتصال لاحق ذكر لي الاخ أبو جهاد انه فيما يتعلق بموضوع هايل وهاني هذا الموضوع ما في داعي لمتابعته لان الإثنين أصبحوا عندنا موجودين والان هم مسؤولون عنك وعن التنظيم في اوروبا، انا طبعا فرحت لأنهم يملكون الطاقة ويملكون القدرة ويملكون الوعي السياسي وبالفعل عندما شعرت ان توجه الاخوان ان يضموا هاني وهايل فرحت جدا والتزمت بشكل سريع جدا لقيادتهم، طبعا كانا هما الإثنان يحباني وكان عندنا عدد اخر من الاخوان الموجودين يشتغلوا معنا فبدأنا

نختار من يكون في الصف الاول من هؤلاء الاخوان وكنت مشاركاً معهم في هذا الموضوع، وفي الحقيقة وللتاريخ ايضا اريد ان اذكر نقطة مهمة جدا، كانت معرفة هايل في هذه الفتره السريعة قد علمتني القدرة على التنظيم وتعلمت منه المثابرة على الاتصال بالعمال هذه الأشياء التي لم أكن أعرفها أو متعوداً عليها، تعلمت منه الصدق في التعامل وتعلمت منه الصمود على رأيك اذا كنت تتشعر أن معاك حق، بالاضافة الى أشياء كثيرة وكبيرة فقد كان يشتغل نصف يوم ويعمل للتنظيم و يعمل لدراسته فكان رجلاً عصامياً الى ابعد الحدود و بكل معنى الكلمة، أما الاخ هاني حقيقة فأنا تعلمت منه عندما كنت اشارك معه في المحاضرات والندوات تعلمت منه طريقة القاء الخطاب والاتصال بالجماهير وقدرته على التعبير وتعلمت منه ايضا التواصل مع الاتحادات والفروع الطلابية الموجودة في المانيا وتعرفت من خلاله على اصدقاء كثيرين جدا، وبالتالي الإثنان أغنيا شخصيتي و تجربتي بشكل كبير جدا .

يحيى يخلف: نعود الى معلومة صغيرة عندما تحدثت انت مع ابو الهول جاء لكي ينظمك في تنظيم طلائع العائدين فذكرت له انك تنتمي الى حركة فتح، نريد أن نسجل للتاريخ ماذا دار بينكما من حوار في تلك اللحظة؟ .

عبد الله الافرنجي: قبل ذلك الاخ هايل عندما اطمئن اليّ بشكل كبير جدا وأصبحت الثقة كبيرة كنت أشعر انه قريب علي مثل محمد أخي ومثل ابو جهاد فسألني اذا كان هناك امكانية ان يسكن بنفس القرية التي كنت انا ساكناً فيها، فوجدنا له غرفة وبالتالي كان كل يوم أحد يدعوني الى الافطار معه من خلال طرود كانت ترسلها له أخته فريال و كان يسعد بها كثيرا وكنا نتحدث كأننا نعيش على رأس جبل في فلسطين أو في أي مكان عربي و بدأ يتحدث معي بشكل أوضح، ان اتحاد الطلبة جيد واتحاد العمال جيد لكن ما رأيك تدخل معنا في طلائع العائدين، ونحن عندنا تنظيم وهذا التنظيم أهدافه عمليا نفس الاهداف التي نتحدث فيها، الاستقلالية الفلسطينية ان نحارب ونحمل سلاحاً ومن أجل أن نصل لبلدنا ومن أجل العودة لبلدنا، هذا مختصر الرسالة التي كانت موجودة لطلائع العائدين، وان لا نبقى مُسَيَّرين من المخابرات من أي جهة كانت أن لا ننصاع لأي توجيه يريده الآخرون، لازم تكون عندنا القدرة على رؤية ما نريد نحن و ان نأخذ قرارنا بدون السيطرة علينا من أي حكومة أو من أي جهاز مخابرات أو من أي جهة مهما كانت، فأنا كانت قد وصلتني رسالة الاخ أبو جهاد فقلت له لا انا موجود في تنظيم اخر فهو تفاجأ ولم يصدق، فقال لي هو هذا التنظيم الذي انت فيه ؟ قلت له تنظيم اسمه فتح، قال لي هؤلاء يقولون عليهم اخوان مسلمين، قلت له لا انا في معي رسالة أريد أن أريك إياها، فأطلعته على رسالتي انا و ابو جهاد، قرأها مرة و مرة ولم يعلق وصمت قال لي هل ممكن ارى هذا الشخص ؟ قلت له طبعا ممكن ورسالة أبو جهاد بدون شك أوجدت صدى سريعاً عند

هايل، فاحتار هو في هذا الموضوع وانا طبعا خجلت احكي له تعال نريد أن ننظمك معنا، انا انظمك هذا غير مقبول لأنه بالفعل أقدر مني بالخبرة و بالتجربة و أكبر مني بالعمر، فهو كان اقتراحه وهو كان مقتنع انه نحن فتح لن يستطيع أن يعمل شيئاً، فقال لي انا عندي اقتراح انه انت الان تدخل معنا في هذا التنظيم الذي هو طلائع العائدين تبقى معنا وتلتزم وأنت تبقى بتنظيمك، والذي يبدأ بالكفاح المسلح الأول، الجهة التي تبدأ الكفاح المسلح الاول نحن سنلتحق بها، قلت له اتفقنا ويمكن كان هذا يعني سهّل علي الكثير لأني لو تُرك لي الخَيار والحَسم لكان صعباً جدا ان اقول له لا انا غير ممكن أن أترك سنة ... فطرحها بطريقة انه ترك المجال أمامي مفتوحاً دون أن أخون القسم الذي أقسمته لفتح وبنفس الوقت وضع فتح دون أن يشعر أو قد يكون متعمداً ذلك والتنظيم الذي هو يفكر به في نفس المستوى وانه أعطى المصداقية الان من يبدأ التجربة العملية ويبدأ الكفاح المسلح و لذلك احترمته أكثر عندما حل مشكلتي بهذه الحالة .

يحيى يخلف: بهذه المناسبة نريد ان نتذكر شخصاً اخر ايضا كادر مهم ويعمل في نشرة يصدرها تنظيم طلائع العائدين و لعب دوراً كبيراً فيما بعد أيضا نريد أن ننصف الناس للتاريخ نتذكر نبيل نصّار و من ترغب من الاخوة الاخرين .

عبد الله الافرنجي: الحقيقة الاخ نبيل نصّار رحمه الله كان من أفضلنا اجادة للغة الالمانية وأيضا عندما تعرفت عليه ونَصيحته الاولى كانت ان عليك ان تتعلم اللغة الالمانية لكي تتحدث بطلاقة حتى تستطيع أن تخاطب هذا المجتمع، وهو كان فيلسوفاً وكان يقرأ لكل الفلاسفة الالمان وبالرغم من انه كان يدرس الطب وكان يجيد اللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية بطلاقة، وكانت نصيحته بالنسبة لي أيضا خدمة كبيرة جدا لأني التزمت بهذه النصيحة، ونبيل هو الذي فَتَح لنا باب اليسار الالماني نحن لم نكن مهتمين بالتنظيمات الالمانية ونبيل كان يستطيع أن يتحدث لغتهم السياسية و فَتَح لنا باب الحركات اليسارية كلها الموجودة في المانيا وفي فرنسا وفي اماكن أخرى بحكم انه كان يتحدث اللغة الفرنسية، وأيضا عندما توقفت نشرة فلسطيننا أو مجلة فلسطيننا يوم ما سجنوا الاخ أبو عمار والاخ أبو جهاد في الشام سنة ٦٦، تم تكليفه بإصدار مجلة العودة غير طلائع العائدين، مجلة العودة وهذه نشرة راقية جدا وهي التي استمرت في الصدور من خلال نبيل نصار طبعا كان هاني يدعمه والاخوة الاخرون يأيدوه .

يحيى يخلف: بأي لغة كانت تصدر ؟

عبد الله الافرنجي: باللغة العربية وهذه النشرة كانت للتعويض عن فلسطيننا حتى تعود فلسطيننا للصدور، واستمرت هذه النشرة، طبعا نبيل أيضا رحمه الله نجح أن يصدر نشرة اسمها

(resestensia) أو بالعربي (المقاومة) كانت باللغة الالمانية وأول عدد منها كان من ٨ صفحات، يمكن الكثير من شبابنا في ذلك الوقت لم يستوعبوا اللغة التقدمية فيها، فكثير من الشباب الذين كانوا منظمين عندنا في داخل فتح احتَجّوا وأعادوا لنا المجلة مشطّبة، إلا انه لم يتأثر كثيراً بهذا الموضوع وقال هذه البداية، الان نبيل أيضا كان هو صاحب فكرة ان نفتح مكتب في مدينة فرانكفورت، وأول مكتب حقيقة لحركة فتح في اوروبا وفي العالم كان في مدينة فرانكفورت في الخارج، في تسايل رقم ٨٣ هذا المكتب كان يقوم بالاعلان باللغة الالمانية ويتصل بكافة الاحزاب الموجودة ولعب دوراً رئيسياً وأساسياً في المستقبل بعد ذلك في عام ٧٠ في الندوة التي جرت للتضامن مع الشعب الفلسطيني التي جرت في الجزائر والذي لعب فيها هاني دوراً أيضا وفي الاشراف عليها والذي ترأسها الاخ نبيل نصار .

يحيى يخلف: ومن الكوادر الاخرى التي كانت موجودة نذكر الاخ عدنان سمارة وكان الاخ حيدر ابراهيم واخوة آخرون .

عبد الله الافرنجي: الاخ عدنان كان موجوداً في مدينة ميونخ في الجنوب لم يكن في المدينة التي كنا موجودين فيها، هو أيضا تم تنظيمه أعتقد من خلال الاخ هاني الحسن، وكان يقوم في منطقة الجنوب بدور فعّال ودور كبير جدا والاخ حيدر ابراهيم كان يقود اتحاد العمال الفلسطيني وسجّل في النقابات الالمانية في ذلك الوقت يعني كانوا واعيين هذه المسألة وهؤلاء الاخوة مع بقية الاخوة كان في النمسا ايضا عوني قرمان وعمر صوفان في السويد وفي مناطق اخرى كلهم بدأوا في الخلية الأولى أو في الإتصال الأول، هؤلاء جميعا نجحوا يعني هاني وهايل الذي انتقل من عندنا وراح الى القاهرة وصار في الهيئة التنفيذية نجحوا كلهم مع بعض في تكوين اتحاد طلبة فلسطين في المانيا وصلنا الى انشاء ٢٤ فرعاً، يعني ٢٤ مدينة المانية كان فيها ٢٤ جامعة لاتحاد طلاب فلسطين، و٢٦ بلداً كان فيها ٢٦ فرعاً للعمال وهيَّ تُعتبر أكبر كتلة نقابية بنتها حركة فتح في العالم، يعني الكتلة نقابية مبنية على أساس نقابي والتي رفعت شعارات فَتح الكفاح المسلح والطريق الوحيد لتحرير فلسطين واستقلالية القرار الفلسطيني، وثورتنا فلسطينية الوجه عربية العُمق عالمية الأبعاد كل هذه الشعارات بدت تترجم ومن خلال البيانات التي كانت تصدر من اتحاد طلبة فلسطين في اوروبا، وشكلنا الكونفدرالية وهي أول كونفدرالية قمنا بها في الخارج، والتي لعبت أيضا دوراً رئيسياً وأساسياً ...

يحيى يخلف: تضم طلاباً فلسطينيين في اوروبا .

عبد الله الافرنجي: في اوروبا، الكونفدرالية كانت بشكل أساسي بين المانيا والنمسا، بين طلبة

فلسطين في المانيا والنمسا ولكنها ضمت الذين في فرنسا والذين في السويد والذين في بلجيكا وايطاليا وهنا بدأنا بضم الاسماء الاخرى فكان في ايطاليا وائل زعيتر وفي باريس محمود الهمشري وفي بلجيكا نعيم خضر. كل المدن أصبح فيها ١ أو ٢ من شباب فتح ورؤساء لاتحاد طلبة فلسطين، ويمكن أن أقول وبدون مبالغة السفارات الاولى لمنظمة التحرير الفلسطينية كانت هي اتحادات طلاب فلسطين واتحادات عمال فلسطين والتي كانت موجودة في اوروبا .

يحيى يخلف: نعم ، أخي أبو بشار عقدتُم في صيف عام ٦٣ في مدينة ماينز في المانيا مؤتمرا لكونفدرالية طلاب فلسطين في اوروبا، المانيا، النمسا، والدول الاخرى، وكان الهدف منها انتخاب ممثلين لحضور المؤتمر العام للاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي عُقد بعد ذلك في غزة وكان هذا المؤتمر علامة على طريق الرُقي بالعمل السياسي والتنظيمي والانتقال الى المنظمات الشعبية الواسعة والاطار الأوسع وتمرير الفكر السياسي الوطني التقدمي من خلال العمل النقابي حيث فعلا انتخبتم ممثلين واتخذتم قرارات هامة افكار كانت تطرحها الحركة، الكفاح المسلح مثلا، أهمية هذا المؤتمر وماذا جرى به وننتقل بعدها للحديث عن مؤتمر اتحاد الطلاب في غزة .

عبد الله الافرنجي: هذا المؤتمر كان تمهيداً او كان المؤتمر العام سوف يعقد في قطاع غزة المؤتمر الثالث لإتحاد طلبة فلسطين، وهنا تم انتخاب مجموعة بخط سياسي واضح وهو خط حركة فتح، تريد أن تُمثلنا في هذا المؤتمر وكان على رأس هذه المجموعة الاخ هاني والاخ هايل منذ أن أصبح ملتزماً بالوطن وبالهيئة التنفيذية ودَخل الهيئة التنفيذية وذهبوا الى المؤتمر كلهم مع بعض بالطرح الذي تحدثت به وهو طرح وجهة نظر حركة فتح في ذلك الوقت التي كانت تُهَيء للانطلاقة وللكفاح المسلح وهذا كان المناخ العام الموجود وعندما ذهبوا الى القاهرة ومنها الى قطاع غزة والى مدينة غزة، صار هناك المؤتمر الثالث وصار في هناك نوع من الصدام لانه في ذلك الوقت كان غير مقبول أو غير مسموح لأي تنظيم فلسطيني أن يتحدث عن كفاح مسلح من داخل الاراضي الذي تشرف عليها أي دولة عربية وكان في قرار أعتقد من جامعة الدول العربية بهذا المعنى فكان لا بد من طرح هذه المشكلة وكسب أنصار في المؤتمر في ذلك الوقت وهايل بحنكته وبراعته طَرَح هذا الموضوع وأخذ القرار، في المؤتمر الثالث ولكن هذا صَعّد قبوله في القاهرة الا انه أيضا بنفس الصفات التي انا عرفته فيها والناس كلها عرفته فيها أصر انه هو لا يريد أن يدخل بِصدام مع اخوانا المصريين فأصر على شرح الفكرة وشرح القضية وشرح الوضع الى أن أقنعهم بضرورة أن اتحاد طلبة فلسطين هذا مؤسسة طلابية وعندما تتحدث عن هذا الموضوع فيجب أن يعطوها فرصة ويعطوها امكانية وأن لا تُقمع هذه الفكرة، وبالفعل على الرغم من الاجواء والقرار العام والمناخ العام الذي كان ضد هذه الفكرة حيث كانت فتح تُتَهم بالتوريط كانت فتح تُتَهم بأنها من حلف

السنتو وانها تخدم حلف السنتو وما الى شابه ذلك، فهو نجح في مصر بالفعل ان يخلق مناخاً في الاوساط الحكومية وفي الاوساط الصحافية وفي الاوساط الوطنية المصرية لصالح هذا القرار ويمكن في ذلك الوقت لو واحد غير الاخ هايل كان ما نجح في ذلك، لان الاخوة الاخرين بما فيهم اخي محمد الذي كان في مصر في ذلك الوقت أيضا ما عندهم الخبرة، كانت عندهم الخبرة العسكرية ولكن ما عندهم الخبرة النقابية والسياسية وبالتالي كان ذهاب هايل للقاهرة نعمة من الله في ذلك الوقت لأن القاهرة كانت تشكل مركز الثقل الحقيقي في الحركة السياسية العربية .

يحيى يخلف: اذا كان هذا المؤتمر الثالث منحنى في حياة الاخ هايل عبد الحميد حيث وضعتم اقدامكم على أرضية عمل نقابي واسع يساهم في استكمال بناء الشخصية الوطنية الفلسطينية، وانتُخب الاخ هايل عبد الحميد عضوا في الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين مسؤولا للعلاقات الداخلية وكما أظن فتح انتخبت رئيسا أو دعمت انتخاب رئيس من القوميين العرب هو الاخ تيسير قُبعة وكان الاخ هايل عبد الحميد مسؤولا للعلاقات الداخلية مما مكنه أن يتواجد في القاهرة، مرحلة القاهرة كانت مرحلة جديدة في مسيرته السياسية، في البداية كان هناك سوء تفاهم ولكن فيما بعد تعززت علاقته مع ثورة ٢٣ يوليو وبشكل خاص مع الرئيس عبد الناصر وأصبح الوجود الفتحاوي في مصر حقيقة قائمة ويعود الفضل في هذا البناء للرعيل الاول الاخ محمد ومن معه الذين وضعو البدايات والاخ ابو الهول الذي وضع الخبرة والتجربة في ذلك الوقت، حبذا لو تعطينا بعض الملامح عن علاقة ابو الهول مع الرئيس عبد الناصر وثورة يوليو .

عبد الله الافرنجي: اولا هو عندما ذهب الى مصر بدأ يعمل في عدة اتجاهات، أول شي كان لا يريد أن يُفهم خطأ من قِبَل ال .. وكان يعتبر عبد الناصر الثورة المصرية حركة وطنية أصيلة وبالتالي في ناحية الجوهر أشعرهم بموقفه وبقناعاته، ولكن بنفس الوقت أشعرهم باصراره على ضرورة أن يقوم الفلسطينيون بالدفاع عن وطنهم، وهذه الفكرة بدأ يُقنع بها عدداً كبيراً جدا من الناس خاصة محمد حسنين هيكل الذي كان هو حلقة الوصل بينه وبين الرئيس عبد الناصر والذي فتح له أبواباً كثيرة جدا ويُضاف الى ذلك عدد كبير من الضباط المصريين الذين بالفعل كانوا يحبون فلسطين بشكل كبير جدا وكلهم كانوا يعملون على غرار مصطفى حافظ، الذي دفع حياته ثمناً لحبه لفلسطين وتضحيته من أجل فلسطين، فكما قلت أنه هو أيضا اختار عدداً كبيراً جدا من الكُتاب و اختار عدداً كبيراً جدا من الادباء والصحافيين فلم يكن وحيدا كان عنده مناخ مصري عام يحميه ويشجعه وعندما تحدث له مشكلة كان هلاء يتطوعون للدفاع عنه، الى أن وصل الى ان الرئيس عبد الناصر قرر أن يعطينا مكاتب و قرر أن يُعطينا ميزانية في مصر وأن يدرب شبابنا وخاصة المجموعات الاولى التي كانت كلها في مصر وتمت رعايتهم هناك وأنا أعتقد أن المرحوم أبو الهول

نجح ان يكسب ثقة عبد الناصر وثقة قيادة الثورة وثقة الحكومة المصرية .

يحيى يخلف: وأن ينسج أو يربط العلاقة ما بين فتح والثورة الفلسطينية من جهة وما بين ثورة يوليو.

عبد الله الافرنجي: هذه كانت أهم نجاحات عمله الله يرحمه هايل، أيضا مهم جدا أن نذكر عندما دخل الهيئه التنفيذية كثير من الاخواة كانوا يطرحون انه هو لابد أن يكون الرئيس وكيف يقبل أن تيسير قُبعة يكون الرئيس فبالعكس هو الذي أصر وهو الذي دعم تيسير قُبعة وهو الذي ظل وراء الموضوع الى أن تم تثبيت تيسير قُبعة رئيساً للاتحاد وكان أيضا يسعى الى الحوار مع كل الاخواة الموجودين في الهيئة التنفيذية، يعني ما كان من النوع الذي يحب أن يستفرد بهذا الموضوع بأي مهمة يقوم بها وانا أعتقد ان نجاح الهيئة التنفيذية كان العصر الذهبي للهيئة التنفيذية في ذلك الوقت، وتوسيع اتحاد طلبة فلسطين وانتشاره في العالم ونجاحه في ان يصل الى الفكرة التي كان طرحها الأخ ابو عمار، بالنسبة لرابطة طلبة فلسطين ولا بد أن تكون موجودة في كل أنحاء العالم، والذي ترجمها عمليا الى واقع موجود كان هو وجود هايل في الهيئه التنفيذية، ومعه طبعا الأخوة محمد صبيح و سعيد كمال وتيسير قُبعة والذي خلق الحوار الاخوي النضالي بين الجبهة الشعبية من جهة وبين حركة فتح في كل النقابات ونحن كنا مسيطرين سيطرة كلية بالانتخابات ليس بأي وسيلة اخرى على كافة النقابات والاتحادات الطلابية في الخارج، إلا إنه أصر على أن يبقي مكاناً في الهيئات الادارية كلها الى عدد من الجبهة الشعبية يتفق معهم على تحديده والى عدد من التنظيمات الاخرى التي كانت موجودة ولها فعالية في الساحة، وأنا أعتقد هذا جزء من التمسك بالوحدة الوطنية الفلسطينية والتمسك باعطاء الفرصة لأخوتنا الذين يختلفون معنا في وجهات النظر .

يحيى يخلف: أخي أبو بشار انت تتحدث عن سلوك الأخ هايل عبد الحميد الحضاري الديمقراطي الذي اكتسبه من خلال ثقافته الميدانية واحتكاكه وتجربته الطويلة، نحن لم نتعرض بالتفصيل الى أساليب العمل الذي كنتم تقومون بها سواء في اتحاد طلبة فلسطين أو اتحاد عمال فلسطين كيف كان يجري، السلوك والثقافة وكيف كنتم تدبرون الامور والتمويل والنشرات والعمل السياسي والاعلامي ، يعني نريد أن تضعنا في صورة بعض الجهود التي كانت تُبذل في الحياة الداخلية للعمل السياسي والتنظيمي والنقابي .

عبد الله الافرنجي: بعض النقاط التي أذكرها لعب فيها دوراً كبيرأ الاخ هايل والاخ هاني، فيما يتعلق بآلية العمل كان مثلا اتحاد طلبة فلسطين مكان يتجمع فيه الطلبة القادمين الجدد واتحاد عمال فلسطين العامل الذي يأتي جديداً يبحث عن عمل، الطالب يريد دراسة ويريد جامعة ويريد

سكناً والعامل يريد مصنعاً يشتغل فيه من أجل ان يستطيع العيش، هذه النقطة الاولى التي كان فيها اهتمام من التنظيم وبالذات اللذان لفتا النظر لها الأخوان الإثنان، أنه من اجل ان يستطيع الطالب الكسب لا بد أن تساعده على تعلم اللغة وتساعده على ان يجد مسكناً وتساعده على ان يسجل في الجامعة بشكل أو بآخر ثم عندما تنضمون الى اتحاد طلبة فلسطين أن تعطي فرصة كل اسبوع في الاجتماعات وأن تعمل محاضرة وما كان في أسبوع ينقضي الا وتتم محاضرة من واحد حتى يتعود الطلبة أن يتحدثوا ويناقشوا ويجمعوا معلومات عن مدينة فلسطينية عن قائد فلسطيني عن زعيم فلسطيني في الماضي وبالتالي كان دائما المحور الرئيسي والاساسي هو احياء الكيانية الفلسطينية لأن الطرح كان غير موحد كثير من الناس كانوا يأتوك من الضفة الغربية وعندما تسأله انت من أين يجيبك أنا اردني والذي عنده وثيقة السفر لا توجد مشكلة كبيرة عنده، و بالتالي كان الطرح غير متجانس. فكانت المدرسة الاولى في هذه النقابات ان نقوم بطرح موحد ليس فتحاوياً وانما فلسطيني باتجاه بناء الكيانية الفلسطينية، هذه نقطة كثير كثير مهمة ولعبت دوراً أساسياً ورئيسياً في العمل الذي قام به الاخوة والذين كانت لهم رؤيا سباقة في هذا الموضوع، فيما يتعلق أيضا بادارة الجلسات الاخ هايل كان مثلا لا يرغب ان يترأس واحد دائما ، يعني اذا انتُخب واحد مرة رئيساً فكان يُصر بعدين انو يدخل الهيئة الادارية لاحقا كسكرتير او مسؤول مالي او او الى آخره، وهذه مارسها مع الاخ هاني لأن هاني كان يُنتخب أكثر من مرة رئيساً فحاول هايل أن يحجم هذا الموضوع و طبعا هذا قاد الى كثير من المداعبة الموجودة بينهما لكن كان بالحقيقة في اصرار عند ابو الهول الله يرحمه على هذه النقطة و طَبَّق هذا الشي عليه هو أولا والكل كان ملتزماً بهذا الموضوع . الشغلة الثالثة أيضا اللي التنين لعبو دوراً اساسياً ورئيسياً فيها هي أن نموِّل نفسنا منا فينا يعني في ذلك الوقت كان اشتراك الفتحاوي ٢٠مارك في المانيا يعني اليوم بتقدر تقول ٢٠ يورو يعني قيمة كبيرة جدا فاللي مكنش عندو كان يُتاحلو فرصة انه يروح يشتغل يوم أو يومين في الشهر و يتبرع باشتراكه أو بجزء من المبلغ اللي هو بشتغلوا ويمكن من أظرف الشغلات اللي كانت موجودة شغلتين، وحدة على الاخ هايل و وحدة على الاخ هاني بدي احكيهم، انا يعني كانت توصلني فلوسي من الوالد الله يرحمه واجا هايل قلي لازم انتا تروح تشتغل معي عشان تجرب الشغل و تحتك بالشغل فقلتلوا هو يعني شو شغلك ؟ قال ولا اشي بسيط، انا بكره باجي بتسجلني عندك و باجي بشتغل في المصنع اللي بتشتغل فيه اسمو (ليكر) المصنع، فرحت لهناك طلعت روحي بعد ساعات طويلة لا أذكر بالضبط، ثاني يوم قلتلوا انا بدفع الاشتراك من دون ما اشتغل فقال لأ بدك تكمل شغل، المهم كانت هذه أول مداعبة بيني و بين هايل و بعدين شوي شوي حسيت انو طب انا مش ممكن أطلب من واحد يشتغل عشان يدفع اشتراكه وانا ما اشتغل

بغض النظر عن الموضوع فاقتنعت لاحقا بالفكرة و لقيتلي مهمة كويسة انو اسوق سيارة، باص (فولكس فاجن) لنقل السجاد من محل الى محل فمين اللي كان بيعتل معي ؟ هاني، فهاي السيارة كنا لما يعني ننزل جبل يغنيلنا هاني « عبد الله راكب طيارة عبد الله راكب طيارة «، هذه حقيقة ولما نيجي نطلع طلعة توقف السيارة تمشي ٥ كيلو متر في الساعه لأنو بتقدرش تمشي أكثر من هيك ، فيقول جملة أخرى يعني « عبد الله راكب حمارة عبد الله راكب حمارة «ودمو خفيف هاني في هاي المواضيع فهاي الشغلات انا الان بحكيها لأنو ضلت عالقة في ذهني بس احنا استطعنا انو كل واحد فينا يدفع اشتراكه راضيا و راغبا و بالتالي كان عنا بالاخر ميزانيات بتكفينا، انو نسافر نلقي محاضرات كل واحد يتغطى من الميزانية سفره واستمر هذا الى فترة زمنية طويلة، كان عنا جمع تبرعات و جمع أدوية و ارسال هذه الامور للحركة فكانت لدينا كثير من الامور فيها اكتفاء ذاتي وانا أعتقد ان هذا سرّ قوتنا و نجاحنا في المانيا والنمسا في هذا الموضوع و هذا استمر لاحقا و تطور بشكل كبير جدا لأنو تم فسح المجال الى شيء كبير عندنا في المانيا .

يحيى يخلف: أخي أبو بشار يعني في عام ٦٥ بعد الانطلاقة جاءكم وفد قيادي لزيارة التنظيم في المانيا، الوفد كان مكون من الاخوة ابو جهاد و ابو مازن و ابو يوسف النجار يعني ما اهمية هذه الزيارة في تلك المرحلة و خاصة و انها جاءت تقريبا بعد الانطلاقة مباشرة .

عبد الله الافرنجي: كان الأخوة حريصين جدا على استمرارية الاتصال، والاتصال إما كان يتم بالرسائل او من خلال التنقل و من خلال اللقاءات وانا اعتقد ان هذه الزيارة ايضا في تلك الجولة كانت لمزيد من الدعم و يمكن كان عندهم مهمات اخرى في ذلك الوقت موجودة كان هناك في اسماء لازم يلتقوا بها و كان هاني طبعا موجوداً في استقبالهم و أذكر أن الاخوة طلبوا ان ياكلوا في مطعم فأخذتهم انا على مطعم طلياني و الاخ ابو جهاد كان يحاول تعلم اللغة الالمانية هو و محمد اخي لأنهم كانوا يرغبوا في الذهاب الى المانيا في فترة من الفترات، فكان دائما الاخ ابو جهاد بيحب يعني يحكي مباشرة مع الجرسون (النادل) و بيحاول يحكي باللغة الالمانية طبعا مزبطش معاه، فالاخ ابو يوسف قال له انت بدك تسكت ولا ؟ احنا بدنا ناكل انت اذا بتضلك تحكي مش حناكل، مش حنعرف نطلب فكانت هاي المداعبة بينهم حلوة و دمهم خفيف و كان لقاؤهم مع الشباب جيداً جدا، طبعا كان العدد اللي التقى معاهم محدوداً جدا، كان الاخ هاني و انا يمكن و بعدين متَمِّش يعني توسيع هذا اللقاء لاعتبارات كثيرة جدا، أما انا بعتقد انو من أهم اسباب نجاح فتح انو كنت ترسل رسالة و استفسارات يجيك عليها رد و اجابات في المسألة السياسية وغيرها واذا لم يكن هناك في اقناع بالرسالة فكان يُرسل دائما واحد او إثنان او ثلاثة، ففي تلك الزيارة يعني لأول مره انا أتعرف على الاخ ابو مازن و لأول مره تعرفت على الاخ ابو يوسف، وابو يوسف طبعا له شؤون في مراحل قادمة.

أوراق المؤسسة

مجلس الإدارة

عقد مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات اجتماعه الحادي والخمسين برئاسة د. نبيل شعث، يوم الخميس ٢٠٢٢/٢/١٧، وجاهياً للأعضاء داخل دولة فلسطين وعبر تقنية الاتصال المرئي للأعضاء المقيمين خارج فلسطين.

وقام المجلس بدراسة وتقييم مُجمل فعاليات ونشاطات المؤسسة، واتخذ القرارات الخاصة بذلك بما فيها إعادة تشكيل لجان المؤسسة والمتحف.

كما بحث وأقرّ برامج عمل جديدة، وتم اعتماد التقارير الإدارية والمالية للمؤسسة.

مسابقة المعرفة الوطنية

بدأت مؤسسة ياسر عرفات بعقد التصفيات قبل النهائية من مُسابقة المعرفة الوطنية في موسمها الخامس للعام ٢٠٢٢/٢٠٢١ يوم الأربعاء الموافق ٢٠٢٢/٣/٢ وذلك في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات. وفازت مدرسة بنات سلواد الثانوية من مديرية التربية والتعليم في رام الله والبيرة بالمركز الأول في الحلقة الأولى، وحصلت مدرسة بنات شهداء يطا الثانوية من مديرية التربية والتعليم في يطا على المركز الثاني وجاءت مدرسة بنات بديا الثانوية من مديرية التربية والتعليم في سلفيت في المركز الثالث.

وفازت مدرسة الشابات الثانوية الشاملة من مديرية التربية والتعليم في القدس بالمركز الأول في الحلقة الثانية، وحصلت مدرسة بنات بيت ليد الثانوية من مديرية التربية والتعليم في طولكرم، على المركز الثاني، ومدرسة الساوية الثانوية للبنات من مديرية التربية والتعليم في جنوب نابلس على المركز الثالث.

كما فازت مدرسة سبسطية الثانوية المختلطة من مديرية التربية والتعليم في نابلس بالمركز الأول في الحلقة الثالثة، وحصلت مدرسة بنات أريحا الثانوية من مديرية التربية والتعليم في أريحا على المركز الثاني، و مدرسة قرطبة الثانوية المختلطة من مديرية التربية والتعليم في مديرية الخليل على المركز الثالث.

وفازت مدرسة ذكور الظاهرية من مديرية التربية والتعليم جنوب الخليل، بالمركز الأول في الحلقة الرابعة ، وحصلت مدرسة بنات طوباس الثانوية من مديرية التربية والتعليم في طوباس على المركز الثاني، وحصلت مدرسة بنات أبو قش من مديرية التربية والتعليم في بيرزيت على المركز الثالث.

وفي الحلقة الخامسة فازت مدرسة بنات كفر راعي الثانوية من مديرية التربية والتعليم في قباطية، بالمركز الأول وجاءت مدرسة العروب الثانوية للبنات من مديرية التربية والتعليم شمال الخليل في المركز الثاني، و مدرسة بنات السواحرة الشرقية الثانوية من مديرية التربية والتعليم في ضواحي القدس في المركز الثالث.

وفي الحلقة السادسة فازت مدرسة بنات تقوع الثانوية من مديرية التربية والتعليم في بيت لحم بالمركز الأول، وجاءت مدرسة بنات كفر قدوم الثانوية للبنات من مديرية التربية والتعليم قلقيلية

في المركز الثاني، ومدرسة بنات برقين الثانوية مديرية التربية والتعليم جنين في المركز الثالث.

و في المرحلة نصف النهائية؛ ومن خلال حلقتين تأهلت مدارس سبسطية الثانوية المختلطة وذكور الظاهرية الثانوية و بنات كفر راعي الثانوية .

وفي اللقاء الختامي الذي عقد يوم الخميس ٢٠٢٢/٣/٣١، في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات فازت مدرسة ذكور الظاهرية الثانوية بالمركز الأول و مدرسة سبسطية الثانوية المختلطة بالمركز الثاني، و مدرسة بنات كفر راعي الثانوية بالمركز الثالث.

وفي نهاية الحلقة، ألقى د. أحمد صبح مدير عام المؤسسة كلمة ترحم فيها على شهداء مدينة جنين الذين قتلتهم غطرسة الاحتلال صباح يوم اللقاء الختامي، متمنياً الشفاء العاجل للجرحى والحرية للأسرى، مؤكداً أهمية المسابقة واستمرارها لما تمثله في تعزيز المعرفة والهوية الوطنية الفلسطينية لدى الطلبة وزيادة النطاقات المعرفية لديهم، وحفظ موروث الحركة الوطنية الفلسطينية والنضال الفلسطيني.

وعبر صبح عن اعتزاز المؤسسة بالشراكة مع وزارة التربية من مديريات ومدارس وطلبة ومشرفين في نشر هذه المسابقة التي تُعتبر دُرة برامجنا، وعن التعاون المستمر مع الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون لإيصال رسالة وهدف المسابقة لبيوت جميع عائلات دولة فلسطين من خلال شاشتهم، مؤكداً أن المؤسسة مُنفتحة مع وزارة التربية لتقديم أي اقتراحات لتقييم المسابقة وتصويبها والعمل على تطويرها بعد مرور خمسة مواسم ناجحة.

بدوره، عبر السيد صادق الخضور الوكيل المساعد للأنشطة الطلابية بوزارة التربية والتعليم عن اعتزاز «التربية» بالشراكة مع مؤسسة ياسر عرفات وتلفزيون فلسطين لإنجاز المسابقة التي تُطل على جميع بيوت الفلسطينيين بالمعلومات الوطنية والتاريخية الخاصة بقضيتنا.

وقال: «إننا اليوم وعلى مقربة من ضريح الرئيس الراحل ياسر عرفات نكرر إحدى عبارته الشهيرة «يا جبل ما يهزك ريح»، حتى نُبلغ رسالته لطلبتنا في نشر القيم والمعرفة الوطنية والتاريخية وحماية هذا الجيل كونه هدفاً منشوداً لوزارة التربية، مؤكداً المضي قُدماً في مسابقة المعرفة وهي علامة فارقة وجزء لا يتجزأ من النشاط الثقافي الهادف.»

واختتم الحفل بتكريم الفائزين والمشاركين، وتسليم الجوائز للفرق الفائزة والجائزة الأولى هي جهاز حاسوب محمول «لاب توب» عالي المواصفات ومبلغ أربعمائة دولار نقداً، لكل من الطلاب الثلاثة من مدرسة ذكور الظاهرية الثانوية؛ كونها حصلت على المركز الأول.

والجائزة الثانية؛ هي جهاز «آيباد» عالي المواصفات ومبلغ ثلاثمائة دولار نقداً لكل من الطلاب الثلاثة من مدرسة سبسطية الثانوية المختلطة.

والجائزة الثالثة؛ هي جهاز «تابلت» عالي المواصفات ومبلغ مائتي دولار لكل من الطالبات الثلاث من مدرسة بنات كفر راعي الثانوية.

وفي قطاع غزة حصلت مدرسة طبريا للبنات من مديرية التربية والتعليم خان يونس على المركز الأول في مسابقة المعرفة الوطنية في موسمها الخامس في الحلقة الختامية التي جرت يوم ٢٠٢٢/٣/٢٩ في مقر مؤسسة ياسر عرفات في غزة (بيت الرئيس أبو عمار).

وحازت مدرسة بلقيس اليمن للبنات من مديرية التربية والتعليم غرب غزة على المركز الثاني، كما حصلت مدرسة الشجاعية الثانوية للبنات/ ب من مديرية التربية شرق غزة على المركز الثالث.

ورحب السيد موسى الوزير بالحضور ونوه إلى أهمية هذه المسابقة لتعريف الأجيال المتعاقبة بتاريخ شعبنا وإكمال المسيرة حتى تحقيق النصر بإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف.

واختتم الحفل بتكريم الفائزين والمشاركين وذلك بحضور السيدة انتصار الوزير (إم جهاد) عضو مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات رئيسة لجنة متحف ياسر عرفات، وموسى الوزير مدير مكتب مؤسسة ياسر عرفات في غزة، ومازن الخطيب مدير دائرة الأنشطة الطلابية في وزارة التربية والتعليم وممثلون من المؤسسة والوزارة وأهالي الطلبة المشاركين.

وتم تسليم الجوائز للفرق الفائزة وهي، الجائزة الأولى جهاز «لاب توب» عالي المواصفات ومبلغ أربعمائة دولار نقداً، لكل من الطلاب الثلاثة من مدرسة طبريا للبنات كونها حصلت على المركز الأول.

والجائزة الثانية مبلغ مالي وقدره ثلاثمائة دولار نقداً لكل من الطالبات الثلاثة من مدرسة بلقيس اليمن للبنات.

والجائزة الثالثة مبلغ مالي وقدره مائتي دولار لكل من الطالبات الثلاثة من مدرسة الشجاعية الثانوية للبنات/ ب .

وأكدت السيدة انتصار الوزير على أهمية المسابقة لما لها من دور في زيادة الوعي الوطني والمعلومات الثقافية التاريخية الخاصة بالقضية الفلسطينية لدى الطلبة، وأشادت بجهود القائمين على المسابقة في وزارة التربية والتعليم ومؤسسة ياسر عرفات.

وكانت مؤسسة ياسر عرفات قد أطلقت بالشراكة مع وزارة التربية، وبالتعاون مع الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون مسابقة في المعرفة الوطنية في العام الدراسي ٢٠١٨/٢٠١٧.

وتتمحور المسابقة حول أهم الأحداث التي مرت بالقضية الفلسطينية خلال نحو مائة عام من الصراع. وتم اعتماد رواية متحف ياسر عرفات كمرجع أساسي بحيث قام الطلاب المشاركون بزيارات ميدانية للمتحف لتسهيل فهم المعلومة وبقائها بالذاكرة، ومن خلال الموقع الإلكتروني الخاص بالمؤسسة ، كما تهدف إلى زيادة الوعي بتفاصيل القضية الفلسطينية، وتعزيز الثقافة والهوية

الوطنية للأجيال الفلسطينية الصاعدة، وكانت الفئة المستهدفة الصف العاشر في مدارس الوطن. وفي مرحلتها الأولى تتاح الفرصة للمشاركة في المسابقة لنحو ١٠٠ ألف طالب /ة في المدارس التابعة لمديريات التربية والتعليم في كافة محافظات الوطن ، ويمثّل كل مدرسة ثلاثة من طلابها أو طالباتها . وتعقد كافة اللقاءات في قاعة المنتدى في متحف ياسر عرفات مع مراعاة التعليمات الصحية الوقائية. ويتم بث كافة الحلقات المسجلة عبر شاشة تلفزيون فلسطين مباشر.

إحياء ذكرى ميلاد خالد الحسن

أحيت مؤسسة ياسر عرفات، يوم الأحد ٢٠٢٢/٢/١٣ ، ذكرى ميلاد القائد الوطني الراحل خالد الحسن، عضو اللجنتين التنفيذية لمنظمة التحرير، والمركزية لحركة «فتح»، في قاعة المنتدى بمتحف ياسر عرفات. وبدأت الفعالية بالنشيد الوطني الفلسطيني، وبعدها دعا عريف الحفل منصور طهبوب نائب مدير عام مؤسسة ياسر عرفات إلى الوقوف دقيقة صمت وقراءة الفاتحة على روح الرئيس الشهيد ياسر عرفات وروح القائد الكبير خالد الحسن وكل الشهداء.

ثم عرضت المؤسسة فيلماً من انتاجها بعنوان «فيلسوف الثورة» يروي نبذة عن حياة الراحل خالد الحسن واسهامه في العمل الوطني الفلسطيني.

وقال د. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات: تأتي هذه الفعالية ضمن برنامج «في الذاكرة الوطنية»، الذي يُسلط الضوء على رفاق درب الرئيس الراحل ياسر عرفات، وروى جزءا من مشاهداته لمواقف القائد خالد الحسن في مراحل مختلفة من رحلته السياسية والفكرية، لافتا إلى حضوره المميز وحنكة خطاباته في كافة المحافل الدولية.

وتحدث بكر أبو بكر مسؤول التعبئة الفكرية في حركة «فتح»، عن الإنجازات الفكرية للقائد الوطني خالد الحسن، مسلطًا الضوء على مؤلفاته، حيث تم عام ٢٠٢٠ إعادة نشر كتابه «من يحكم الآخر.. أميركا أم إسرائيل»، والذي يحاكي في محتواه إشارات لبعض ما يحدث في الحاضر السياسي، ويتضمن تنبؤا للتغيرات السياسية في العالم العربي، مشيرا إلى أن فكرة العقل دائما كانت حاضرة في كتاباته.

وشكر د.هيثم الحسن نجل الراحل، مؤسسة ياسر عرفات على هذه اللفتة منها ضمن برنامج «في الذاكرة الوطنية، واستذكر بعض مواقف وعبارات والده وعباراته القوية التي كان أبرزها «السياسة فن الصدق مع الشعب والمناورة مع العدو».

ومن جهته اختتم عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح» عباس زكي القول: إن تاريخ القائد الراحل خالد الحسن يحمل في طياته الحصانة والأصالة الوطنية، إضافة إلى تاريخ عائلته النضالي في منظمة التحرير وحركة «فتح»، مؤكدا دوره الكبير من خلال مصداقيته ومسؤوليته في اجتذاب ثقة من حوله في حركة «فتح» وأهدافها.

وأضاف، كان الراحل مدرسة تنظيمية من خلال تمسكه بالقيم والتقاليد والتربية الوطنية، على أساس تلبية احتياجات العامة، وهو الذي كان يقول «التنظيم القوي يخلق القوة في أضعف القلوب»، منوها إلى أن فكرته كانت تدعو إلى تقييم كل مرحلة وأخذ الإيجابيات منها ومعالجة السلبيات. وتابع زكي: كان الحسن صاحب استراتيجية سياسية ثابتة مرتبطة بفكر مرحلي مرن دون التنازل عن الثوابت، وكان أصيل الانتماء للقضية الفلسطينية وله الكثير من المواقف على الصعيد السياسي والفكري والتنظيمي. وتضمنت الفعالية معرض صور لخصت مراحل حياته، ورحلة نضاله إلى جانب الرئيس الراحل ياسر عرفات، كما تم توزيع مطوية أعدتها المؤسسة عن خالد الحسن .

معرض صور «مسيرة شعب»

افتتحت مؤسسة ياسر عرفات معرض صور بعنوان «مسيرة شعب» بالتعاون مع اتحاد الفنانين التشكيليين وجمعية الشبان المسيحية يوم ٢٠٢٢/١/١١ بمناسبة إحياء الذكرى السابعة والخمسين لانطلاقة الثورة الفلسطينية وحركة فتح، بمدينة غزة.

وحضر الافتتاح ابراهيم أبو النجا محافظ محافظة غزة، وكمال الشرافي عضو مجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات، وموسى الوزير مدير مكتب مؤسسة ياسر عرفات في غزة، وعصام حلس من اتحاد الفنانين التشكيليين، وشخصيات اعتبارية وأكاديمية وحشد من الجمهور.

واستمر المعرض لمدة ثلاثة أيام في قاعة جمعية الشبان المسيحية من الساعة العاشرة صباحًا وحتى السابعة مساءً.

اليوم الفلسطيني لمحاكاة الإعلام

وشاركت مؤسسة ياسر عرفات في اليوم الفلسطيني لمحاكاة الإعلام والتي نظمته كلية الإعلام الحديث يوم ٢٠٢٢/٣/٩، في حرم الجامعة العربية الأميركية بمدينة رام الله. وذلك لخلق مساحة تقارب وعرض تجربة متحف ياسر عرفات الإعلامية، مع جمهور طلاب الثانوية العامة المشاركين في الفعالية.

وتم عرض منتجات إعلامية أعدتها المؤسسة، كما أتيحت الفرصة للطلاب للاطلاع على التطبيق الإلكتروني للمتحف والزيارة الافتراضية . ويتيح التطبيق الحصول على التفاصيل من صور وفيديوهات ومشاركتها على مواقع التواصل الاجتماعي.

وبواسطة التطبيق يُمكن أيضاً القيام بزيارة افتراضية كاملة للمتحف والاطلاع على كل تفاصيله، ويتوفر التطبيق بنظامي «اندرويد»، و«اي أو أس».

يذكر أن المؤسسات المشاركة إضافة إلى مؤسسة ياسر عرفات: تلفزيون فلسطين، تلفزيون الفجر، إذاعة Jerusalem ٢٤، وكالة وطن للأنباء، مؤسسة إنجاز فلسطين، منتدى شارك الشبابي، الهيئة الفلسطينية للإعلام وتفعيل دور الشباب «بيالارا»، جمعية برج اللقلق المجتمعي، صحيفة الحياة الجديدة، شبكة أجيال الإذاعية. كما شارك في الفعاليات المصمم ربيع جرادات والمصور علاء بدارنة.